نحو علم كلام إسلامي معاصر

العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث

الدكتور
سعد الدين السيد صالح
أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة
ووكيل كلية أصول الدين - الزقازيق.

الجزء الأول

الطبعة الثانية
١٤١١ هـ ١٩٩١م

الناشر دار الصفا للطباعة والنشر والتوزيع
١٠٣ ش متحف المنيل - القاهرة.

الإهــــداء

إلى المسلمين عامة ...

وإلى إخوانى أساتذة قسم العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر خاصة ...

أهدى هذا الكتاب، مع خالص تحياتى وتقديرى للجهود التى يبذلونها من أجل الحفاظ على العقيدة الإسلامية.

بسم الله الرحمن الرحيم

«سنريهم آياتنا فى الآفاق، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق».

(فصلت الآية : ٥٣)

«إنما يخشى الله من عباده العلماء».

(فاطر الآية : ٢٨)

«إذا فكرت تفكيراً عميقا فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد فى وجود الله».

(جون كليفلاند)

أستاذ علم الكيمياء والرياضة بجامعة نولث

«كلما استرسلت فى دراستى للطبيعة والكون ازداد اقتناعى وقوى إيمانى (..) فالعمليات والظواهر التى تهتم العلوم بدراستها ليست إلامظاهر وآيات بينات على وجود الخالق المبدع لهذا الكون».

(إدوارد لوثر كيسيل)

رئيس قسم الأحياء بجامعة سان فرانسيسكو

«القليل من العلم قد يؤدى بالإنسان إلى الإلحاد، ولكن التعمق فيه والسير معه حتى نهاية الشوط يؤدى به إلى الإيمان الذى لايقبل الشك».

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

وبعد

فهذه هى الطبعة الثانية من هذا الكتاب الذى صدر فى طبعته الأولى تحت عنوان "العقيدة الإسلامية رؤية جديدة فى اسلوب الدراسة"

وقد رأيت ولأسباب فنية أن أضع له هذا العنوان الجديد

وتتميز هذه الطبعة بكثير من الإضافات الجوهرية التى صدرت الطبعة الأولى خالية منها، كما تمتاز بتصحيح الأخطاء المطبعية التى جاءت فى الطبعة الأولى.

المؤلف

د. سعد الدين السيد صالح

الزقازيق فى

١٩٩٠/٩/٢٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله. صاحب الدعوة الطاهرة الواضحة والتى بلغها بصدق وأمانة كما تلقاها من وحى السماء، ليحيى من حى عن بينه ويهلك من هلك عن بينه، فهى نور الله لخلقة وهدايته لهم «لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين» فمن أراد السير فى النور فقد اهتدى بهدى الله. ومن تنكب الطريق فلا هادى له.

وبعد:

فان المتخصصين فى مجال العقيدة الإسلامية يواجهون الآن مسئولية تاريخية كبرى، وهى : مواكبة المشكلات العقدية التى طرأت على الساحة الإسلامية،

هذه المشكلات التى تختلف فى شكلها أو مضمونها عن المشكلات التى واجهت القدامى من علماء العقيدة.

ولقد قام علماء الكلام قديما بدورهم وأدوه بأمانة حيث دافعوا عن العقيدة الإسلامية بالأدلة العقلية وردوا على المبتدعين والمنحرفين عن هذه العقيدة. ونجحوا فى ذلك إلى أقصى حد لأنهم :

أولا : ردوا على المخالفين بأسلوبهم وبما يناسب عقولهم وفكرهم.

ثانيا : راعوا وجود الفرق الموجودة بالفعل والمخالفة للعقائد الإسلامية.

ولم يشغلوا بالهم بفرق ليس لها وجود، اللهم إلا بعض الفرق القديمة ردوا عليها من باب الترف العقلى، أو الاستطراد الذى يناسب تفرغهم التام للبحث العلمى ولكن المسلمين فى العصر الحديث والمعاصر يواجهون مشكلات من نوع آخر وطبيعة أخرى، منها :

١- أنهم يواجهون إلحاداً من نوع آخر، هو إلحاد مغلف بالعلمية يدعى العلم وهو أبعد مايكون عنه. خلافا للإلحاد النظرى القديم الذى اكتفى بمجرد الحجج والجدل العقلى.

فقد كان الإلحاد القديم يركز كل جهوده حول مناقشات الجواهر والأعراض وإثبات

قدمها، وإمكان الكمون والظهور فى الأعراض، ولكن الإلحاد المعاصر بدأ يناقش مناهج البحث العلمى، وحتمية المادة، والاحتمالات الرياضية لتأثير الصدفة فى نشأة الكون وامتداده، وحتمية التطور وغير ذلك من الموضوعات الجديدة التى يحاول بها الإلحاد المعاصر اجتثاث جذور الإيمان.

٢- ويواجهون فرقا كثيرة واتجاهات متباينة تختلف عن الفرق القديمة، ومن هذه الفرق من يدعى الإسلام الحق، ويرمى من عداه من الفرق بالكفر والضلال.

ومن خلال هذه الفرق الحديثة يواجه المسلمون سوء الفهم المتعمد أو غير المتعمد لأصول العقيدة الإسلامية، حتى وصل الأمر إلى أن أعداء الإسلام من اليهود والنصارى قد قاموا بتكوين فرق ادعت الإسلام ولاهم لها إلا تشويهه ونقض أسسه مثل : فرقة البهائية والقاديانية وغيرها من الفرق المعاصرة.

٣- كما أنهم يواجهون عدواً آخر من داخل أنفسهم وهو السوس الذى ينخر فى عظامهم فى محاولة خبيثة لإبعاد العقيدة الإسلامية عن التطبيق على حياة المسلمين، حتى يحولوا المسلمين إلى مسخ آدمية لاتحمل من الإسلام إلا اسمه وهى بعيدة تماماً عن جوهره وحقيقته.

ومن هنا كان على المتخصصين فى مجال العقيدة من المسلمين أن يواكبوا هذا التطور الخطير الذى طرأ على الساحة الإسلامية وذلك فى نظرى وفى تصورى - لن يكون إلا بالطرق الآتية :

أولا - مواجهة الإلحاد المعاصر بأدلة علمية جديدة تبطل كل حججه وشبهه.

ذلك أن الردود القديمة على الملحدين قد لاتفيد فى المحدثين الذين يدعون العلمية اعتماداً على منهج الحس التجريبى - والذى يدعون أنه لم يثبت وجود الله؛ لأنه لايسلم إلابما يقع فى دائرة التجربة والمختبر. غير أن مانقوله الآن ليس دعوة إلى إهمال كتب التراث القديمة.

ذلك أننى أعتقد أن هذه الكتب مازالت تؤدى دورها فى الدفاع عن الإسلام ولكن لو أحسن عرضها العلماء المحدثون - كما سيتبين بعد قليل - فبعض الشبه التى يرددها الملحدون المعاصرون ماهى إلا تكرار ممل لشبه القدماء منهم والتى سبق أن رد عليها علماء الكلام قديما - والكفر كله ملة واحدة، مما يستلزم منا أن نأخذ الزاد من هذه الكتب ثم نضيف إلى ذلك ماتفتقت عنه عقول وتجارب العلماء التجريبيين المؤمنين، والذين أثبتوا وجود الله عن طريق المنهج العلمى الصحيح.

ولابد من صياغة ردودنا على الملحدين صياغة تتمشى مع أسلوبهم العلمى حيث نرد عليهم بنفس مصطلحاتهم(١). وليس هناك مانع أن نناقش فى علم التوحيد مناهج المعرفة البشرية، ومناهج المعرفة البشرية، منها منهج البحث التجريبى الذى يعتمدون عليه حيث نبين حدوده ومجاله وإمكاناته المتاحة حتى يكون ردنا على العلمانيين رداً علمياً واقعياً،

ثانياً – مواجهة الفرق الإسلامية المعاصرة ودراستها دراسة علمية صحيحة من مصادرها الأساسية حتى نصل إلى التقويم الصحيح لها، وبيان مدى قربها أو بعدها عن الإسلام.

وإنه لأمر غريب حقا أن يهتم علماء العقيدة بدراسة. فرق الكرامية والنظامية والخياطية والعجرودية(٢) وغيرها من الفرق المنقرضة والتى لاوجود لها الآن على الساحة الإسلامية، وفى الوقت نفسه يتركون فرقا معاصرة مثل فرقة الفرماوى وجماعة السماوى، والتكفير والهجرة والجهاد والإخوان المسلمين وغيرهم من الفرق الإسلامية التى لها وجود فعلى وتأثير واقعى فى الحياة الإسلامية ولها آلاف الأتباع والأنصار.

إنها لمفارقة عجيبة أن يدرس طالب العقيدة فى الأزهر فرقا انقرضت منذ أزمان متطاولة وهو فى الوقت ذاته جاهل بفرق أخرى تعيش معه وتدعوه إليها وتحاوره، لكنه لايعرف عنها شيئا اللهم إلا مايسمع به من أجهزة الإعلام.

ولاشك أن هذا الفراغ الفكرى له آثاره السلبية على عقول الشباب والدراسين حيث يتسبب فى تخريج أجيال جاهلة بما يدور حولها، مما يصيبها بالانعزالية واللامبالاة تجاه أخطر مسائل العقيدة.

ثالثاً – مواجهة السوس الذى ينخر فى عظام المسلمين، بمحاولة ربط العقيدة بالواقع العملى وبيان أنها لاتدرس لمجرد المعرفة والثقافة وإلافقدت قيمتها الحقيقية.

١– وفى هذا المجال لانستطيع أن نغفل تجربة الكاتب الإسلامى (وحيد الدين خان) فى كتابة «الإسلام يتحدى» فقد ناقش الإلحاد المعاصر مناقشة علمية واقعية ولم يناقشه بالأدلة القديمة فى علم الكلام.

وكذلك تجربة الكاتب الجزائرى مالك بن نبى فى كتابه (الظاهرة القرآنية) وإن كان الأخير قد أهتم بالسيرة النبوية وبإثبات المعجزة للرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من اهتمامه بتفاصيل العقيدة.

٢– وهى فرقة من فرق الخوارج أسسها عبد الكريم بن عجرد، راجع ص ٥٦ من كتاب «اعتقادات فرق المسلمين المشركين» للرازى، وراجع الملل والنحل للشهرستانى.

لابد من الرجوع إلى المصادر الأساسية للعقيدة وهى : الكتاب والسنة، ولابد من تنقيتها من الشوائب التى علقت بها فشوهتها، وحولتها إلى مجرد ثقافة لاأثر لها فى حياة معتقديها اللهم إلا نيل الشهادات العلمية والتشدق بها فى المحافل وفى أجهزة الإعلام.

لذلك حاولت أن أعرض مسائل العقيدة الإسلامية فى هذا البحث بمنهج جديد.

نحو منهج صحيح لدراسة مسائل العقيدة

يتمثل هذا المنهج الجديد فيما يأتى :

١- إغلاق باب الجدل فى المسائل العقدية التى أثارها علماء الكلام قديماً مع التركيز على الرأى الصحيح فى المسألة بميزان الكتاب والسنة والعقل.

فلم يعد هناك داع لتعدد آراء الفرق الإسلامية المختلفة فى المسائل الخلافية، كما هو المنهج العام لمعظم الكاتبين فى علم الكلام قديما وحديثا.

ذلك أن إشاعة هذه الفرقة لاتفيد المسلمين فى شئ اللهم إلا بلبلة الفكر. وماذا يفيد المسلم إذا قرأ آراء الخوارج والمعتزلة والشيعة والأشاعرة وغيرها من الفرق الإسلامية فى قضية من القضايا، ولماذا لانركز على الرأى الأقرب إلى الكتاب والسنة ونهمل ماعداه.

وهكذا يتضح لنا أنه لافائدة من هذه المناهج الخلافية، اللهم إلازيادة الفرقة والانقسام داخل الفكر الإسلامى فى وقت نحن فيه أحوج مانكون إلى وحدة الكلمة وتوحيد الصف.

٢- التركيز على مايهم المسلم فى جدله مع أصحاب العقائد الأخرى. فلو فرضنا أننا نتحدث عن موضوع صفات الله - مثلا - مافائدة التطويل حول الصفات التى يسلم بها الجميع «مثل : القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر» مع أن مثل هذه الصفات يسلم بها الجميع المسلمون وغير المسلمين من أتباع الأديان الأخرى.

ولكن ماينبغى التركيز حوله فى هذا المجال هو الصفات التى تدور حولها مسائل خلافيه بين الإسلام وغيره من الأديان، وذلك مثل : صفة الوحدانية وصفة المخالفة للحوادث، وهنا يكون الحديث مواكباً لمطالب الساعة.

٣- البساطة والوضوح فى عرض الأدلة والقضايا ومحاولة تقريبها إلى ذهن المسلم

المعاصر بصوره واضحة بعيدة عن تعقيدات الكتب القديمة التى تحتاج إلى كد الذهن وإرهاقه.

بل إن الباحث المدقق المحقق الواعى قد يجلس أمام الفقرة الواحدة من هذه الكتب الساعات والأيام حتى يصل إلى مراد صاحبها منها.

ومأدراك بأمهات كتب علم الكلام، مثل : المواقف، والمقاصد، وأبكار الأفكار، والاقتصاد فى الاعتقاد، والمطالب العاليه، وشرح مطالع الأنظار على الطوالع، ونهاية الاقدام. وغيرها من الكتب التى أدت دورها فى تاريخ العقيدة الإسلامية وكانت مواكبة لعصرها.

ولكنها الآن إن كانت صالحة للعلماء والمتخصصين فى استخلاص مافيها فإنها غير صالحة لجمهور المتعلمين الذين يحتاجون إلى عرض العقيدة الإسلامية بما هو أبسط من ذلك بكثير.

وليست هذه دعوة إلى إهمال هذه الكتب أو عدم العناية بها من جانب المتخصصين، بل على العكس إنها دعوة إلى تحديث هذه الكتب عن طريق عرضها عرضا حسناً ملائماً للعقول.

فكتب التراث فى علم الكلام هى الزاد الأساسى للكاتب المسلم.

ونحاول الآن أن نبين الرأى فيها بأوضح من ذلك.

موقف الباحث من كتب التراث :

هناك اتجاهان على الساحة الإسلامية فى دراسة الكتب القديمة والمصادر الأساسية فى مجال علم الكلام والتى تسمى بكتب التراث.

الاتجاه الأول :

يرى أصحاب هذا الاتجاه – وعلى رأسهم دعاة العلمانية والتغريب – بأن هذه الكتب لم تعد صالحة الآن وأنه ينبغى أن تختفى من الساحة الإسلامية.

الاتجاه الثانى :

يرى أصحابه وعلى رأسهم – المحافظون – أنه يجب أن تظل هذه الكتب بما فيها مصدراً أساسيا من مصادر العقيدة الإسلامية ولابد أن يدرسها الطالب كما هى ولاداعى للشروح والملخصات التى يكتبها المحدثون.

تقويم الاتجاهين :

يلاحظ أن أصحاب الاتجاهين أخطأوا فى تفكيرهم فهما بين إفراط وتفريط.

١- **فأصحاب الرأى الأول** : مخطئون لاشك فى ذلك وخصوصاً إذا علمنا أن الدعوة إلى إهمال كتب التراث تأتى من معسكر العلمانيين الذين يدعون إلى إبعاد الدين عن مجال الحياة وطبع المجتمعات الإسلامية بالطابع الغربى وإشاعة الفكر الغربى والثقافة الغربية.

ولقد تبنى هذه الدعوة كثير من الكتاب وعلى رأسهم سلامه موسى وطه حسين وزكى نجيب محمود، ويحاول كاتب آخر من الكتاب المحدثين تبنى هذه الدعوة وتجديدها وهو الدكتور عاطف العراقى. دون أن يدرى أنها دعوى مستهلكة وأن كل دعاتها قد فشلوا تماماً فى تثبيت أقدامها، لدرجة أن الدكتور طه حسين رفض أن يعيد طبع "كتاب مستقبل الثقافة فى مصر" الذى دعا فيه إلى هذا الرأى، كما أن الدكتور زكى نجيب محمود قد رجع بصراحة عن هذا الرأى فى كتابة «تجديد الفكر العربى» ومقالاته وأحاديثه التليفزيرنية، واعترف بأهمية كتب التراث الإسلامى، وندم على دعوته السابقة.

ولعل الدكتور عاطف العراقى يفيق إلى رشده ويبدأ من حيث انتهى اساتذتة لا من حيث بدأوا. وإلا فهو يدور فى حلقة مفرغة ويكرر غيره بلا وعى.

٢- وأصحاب الرأى الثانى جامدون ومازالوا يعيشون فى عصور سابقة. ولم يلاحظوا التغيير الكبير الذى طرأ على ساحة العقيدة الإسلامية.

- فلقد ظهرت مشكلات جديدة غير تلك المشكلات التى عالجتها الكتب القديمة.

- وطرأ تغير كبير على عقليات الدارسين ومستوى الفكر الذى طحنته مشاكل الحياة، فلم تعد عنده الإمكانيات للجلوس الأيام الطويلة أمام نص أو فكرة حتى تنجلى معانيها، فما بالك بعرض كل مسائل العقيدة بأسلوب هذه الكتب؟؟

وهنا ندلى بهذا الرأى الثالث الذى يتلخص فى أن كتب التراث واكبت عصرها وأدت دورها تماما ومازالت حتى الآن قادرة على أداء أدوار أخرى فى عصرنا، ولكن لو عرضت بصورة جديدة نحدد ملامحها فيما يأتى :

١- اهتمام المتخصصين من علماء العقيدة بهذه الكتب وعرض مافيها بأسلوب مناسب لمشكلات العقيدة الراهنة.

٢- استبعاد مافى هذه الكتب من مشكلات خلافية أجهدت الفكر الإسلامى طويلا، ثم تبين بعد ذلك أن الخلاف كان لفظياً لاحقيقياً، أو حتى المشكلات التى كان الخلاف فيها حقيقياً إلا أنه لافائدة من عرضها الآن.

٣- تنقية هذه الكتب من الأخطاء العلمية التى أثبت العلم الحديث بالتجربة أنها خاطئة، وذلك مثل : حديث صاحب المواقف - مثلا - عن مباحث من علم النفس وعلم الطبيعة من خلال حديثه عن الجواهر والأعراض والعلة والمعلول - وهى إبحاث خطأها العلم الحديث، إلا أن الرجل له الفضل فى معالجة هذه المشكلات على قدر الإمكانات المتاحة فى عصره.

٤- محاولة ربط الأجيال الحديثة بهذه الكتب عن طريق عرض نماذج منها وتمرين الطالب على القراءة فيها، إذ لابد من خلق الجيل الثانى الذى يتحمل أمانة تدريس العقيدة بعد الأجيال الحالية.

ومن هنا فلابد أن يضمن الكاتب المسلم كتابه نصاً أو أكثر كنماذج للتمرين على القراءة فيها والرجوع اليها عند الحاجة، إذ لابد أن تظل هذه الكتب الدرع الواقى فى الدفاع عن الإسلام - ولكن بالمنهج الذى أشرنا إليه - ولن يتأتى ذلك إلا بتربية أجيال قادرة على فهمها متمرسة على القراءة فيها، ولكن مانرفضه نحن هو عرض مسائل العقيدة كلها من خلال هذه الكتب وحدها وبواقعها الراهن.

لذلك أحاول فى هذا الكتاب أن أعرض مسائل العقيدة الإسلامية ملتزما بهذه الخطوط التى رسمتها لبيان علم الكلام الإسلامى الجديد.

وقد قسمت هذا الكتاب إلى تمهيد وثلاثة فصول :

- أما التمهيد فقد تناولت فيه تعريف العقيدة الإسلامية، وخصائصها، وتاريخها.
- وأما الفصل الأول، فقد تحدثت فيه عن منهج الاعتقاد فى الإسلام.
- وفى الفصل الثانى تحدثت عن قضية الإيمان بالله.
- وفى الفصل الثالث تحدثت عن الصفات.

والله أسأل أن ينفع به المسلمين إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

دكتـــور

سعد الدين السيد صالح

الزقازيق فى ١٩٨٣/١/١

تمهيد عام

يتناول المباحث الآتية :

المبحث الأول : فى تعريف العقيدة الإسلامية.

المبحث الثانى : فى خصائص العقيدة الإسلامية.

المبحث الثالث : فى تاريخ علم العقيدة الإسلامية.

المبحث الأول
تعريف العقيدة الإسلامية

العقيدة فى اللغة : هى ماانعقد عليه القلب واستمسك به وتعذر تحويله عنه سواء كان راجعا إلى تقليد أو وهم، أو كان راجعاً إلى الدليل والبرهان العقلى.

فهى كل مايدين به الإنسان ويخضع له سواء كان صحيحا أو باطلا. وأما فى الاصطلاح : فقد اختلف فيها العلماء.

١- فقد ذهب جوستاف لوبون فى كتابه (الآراء والمعتقدات) إلى أن العقيدة هى : إيمان ناشئ عن مصدر لاشعورى يكره الإنسان على التصديق بقضية من القضايا من غير دليل، فلا دخل للعقل فى ايجاد هذا الإيمان، وإن حاول تأييده بعد تمام تكوينه، لذلك تكون العقيدة مطابقة للواقع حينا وغير مطابقة فى أكثر الأحيان.

ويفرق (لوبون) بين العقيدة - والعلم - باختلاف المنشأ. فالعقيدة إلهام لاشعورى ناشئ من علل لادخل لإرادتنا فيها، والعلم اقتباس شعورى عقلى منشؤه التأمل والاختيار.

وحصول اليقين فى النفس - عنده - لايتطلب من المعتقد سعياً ولاكداً ذهنياً، لأنه يواتيه من اللاشعور، وبدون إرادته - إما المعارف فالوصول إليها عسير.

وقد تقع العقيدة فى القلب ثم يستعين صاحبها على تحقيق صحتها بالعقل فتتحول إلى علم ومعرفة[1].

هذا هو تصور جوستاف لوبون لمعنى العقيدة. ولنا عليه بعض الملاحظات منها :

أولا : ادعاؤه أن العقيدة تقوم على مجرد التسليم بصرف النظر عن الاستدلال العقلى.

ثانيا : تفرقته بين العقيدة - والعلم.

وأما علماء الإسلام فقد وضعوا لتعريف العقيدة معنى آخر فقالوا : إن العقيدة هى الأمر الذى يصدق به القلب وتطمئن إليه النفس[2] وتؤمن به أيمانا ناشئاً عن الدليل اليقينى الذى لايخالطه ريب.

١- راجع ص ٥ من كتاب علم التوحيد للدكتور على حسب الله - القاهرة سنة ١٩٥٢.

٢- الشهيد حسن البنا - العقائد ص ٧ القاهرة سنة ١٩٧٨.

فالاعتقاد والعلم عند علماء الإسلام بمعنى واحد، وهو الإيمان المطابق للواقع الثابت بالدليل.

ويلاحظ على تعريف علماء الإسلام أنهم اشترطوا الاستدلال العقلى اليقينى لصحة العقائد وخصوصا فى من هم أهل لذلك، وذلك نظراً لأن القرآن الكريم قد دعا فى كثير من آياته إلى إعمال الفكر والعقل والنظر، ونعى على المقلدين الذين يسلمون بالعقائد عن طريق التقليد والإرث لا عن طريق التفكر والتعقل.

وهذا هو الفرق بين الإسلام وغيره من الأديان الأخرى التى طلبت من الناس أن يسلموا بعقائدها مجرد تسليم بلا دليل ولابرهان كالنصرانية.

ومن هنا كان تعريف النصرانى «لوبون» تعبيراً من واقعه وعقيدته التى يسلم بها ولايفهما، حيث ادعى أن العقيدة فى أكثر أحوالها مخالفة للواقع وأن تعلق القلب بها يرجع إلى مجرد التسليم لا إلى الدليل العقلى (١).

ويقول المفكر الغربى المجرى «آرثر كستلر».

«إن العقيدة لاتأتى عن طريق الاستدلال أو الاستنتاج، فإن الإنسان لايدخل الكنيسة نتيجة اقتناع منطقى؛ أن المنطق قد يحمى العقيدة ويدفع عنها ولكن بعد أن تكون العقيدة قد تكونت ورسخت، وقد يلعب الاقتناع دورا فى إيمان الإنسان بعقيدة ما؛ ولكنه دور الوصول بالعقيدة إلى ذروتها الواعية بعد أن تكون قد نضجت وتكونت فى مناطق بعيدة عن نطاق المنطق أو الاقتناع»(٢).

وأما علماء الإسلام فقد أتفقوا على أن العقيدة لاتستحق هذا الأسم إلا إذا كانت فى ذاتها مطابقة للواقع ناشئة عن الدليل.

والإسلامية : نسبة إلى الإسلام وهو لغة : مصدر أسلم، ويأتى بمعنى خضع واستسلم، وبمعنى أدى، يقال : أسلمت الشئ إلى فلان إذا أديته إليه. وبمعنى دخل فى السلم بمعنى الصلح والسلامة. والمسلم هو المنقاد الخاضع لله سبحانه وتعالى بعبادته وحده والإخلاص له فى الاعتقاد والعمل معاً.

ومعنى إخلاص الاعتقاد : ألا يتوجه المسلم بقلبه إلا إلى الله ولايستعين بأحد - فيما وراء الأسباب الظاهرة - إلا الله.

١- راجع كتابنا - مشكلات العقيدة النصرانية (الفصل الأول).

٢- أرثر كستلر - الصنم الذى هوى - ترجمة د. فؤاد حموده دمشق ١٩٦٠.

ومعنى إخلاص العمل : أن يقصد بعمله مرضاة الله سبحانه لااتباع الهوى وإرضاء الشهوات (١).

والإسلام اصطلاحا هو الدين الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وارتضاه الله سبحانه وتعالى لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :«اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام دينا».

وللإسلام عنصران أساسيان لايتحقق إلا بهماهما :(العقيدة والشريعة) (٢).

ومعنى عقيدة : أى تنظيم لعلاقة الفرد بربه وبيان مايجب عليه نحوه من الاعتقاد فى وجوده والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبعدالة حكمه وتقديره، ومعرفة مايجب أن يوصف به، ومايجب أن يتنزه عنه.

ومعنى الشريعة : أى تنظيم لعلاقة الأفراد بعضهم ببعض وبيان مايجب على الإنسان المسلم نحو أخيه المسلم وسائر مايحتاجه الإنسان فى أمور حياته من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية.

وقد اختص علماء الفقه والاقتصاد والاجتماع والسياسة والأخلاق بالناحية التشريعية واهتموا بها اهتماما بالغاً حيث استخرج كل واحد منهم النظرية الإسلامية فى مجاله.

وأما العقيدة : فقد اختص بها علماء الكلام وجمعوا مسائلها فى علم خاص

١- المصطلحات الأربعة د/ عبد المتعال الجبرى ص ٦٩ وقارن ص ١٨ من كتاب المفهوم الحقيقى لكلمة أبو الأعلى المودودى.

٢- يلاحظ أن كلمة «إسلام» لها إطلاقات متعددة، فقد أطلقت بمعنى إسلام الوجه لله وعبادته وحده، وهو بهذا المفهوم دين كل الأنبياء والرسل السابقين «إن الدين عند الله الإسلام»، « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين». وبهذا المفهوم كان إبراهيم وإسماعيل من المسلمين «ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك»، «ماكان إبراهيم يهوديا ولانصرانيا ولكن كان حنيفا مسلماً وماكان من المشركين»، «قولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا وماأنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وماأوتى موسى وعيسى، وماأوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» فهذا هو الإسلام بالمعنى العام وهو توحيد الله سبحانه وتعالى.

وقد أطلقت إطلاقا خاصاً لكى تكون علماً على الدين الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم من السماء وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت لمن يستطيع إليه سبيلاً، كما ورد فى الحديث الشريف.

أطلقوا عليه اسم : علم الكلام، أو علم التوحيد، أو علم أصول الدين ويسميه أبو حنيفة بالفقة الأكبر(١)، ويمكن أن نطلق عليه اسم : علم العقيدة الإسلامية. وقد عرفه صاحب المواقف بأنه العلم الذى يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه)(٢).

أى أنه العلم الذى يوصل الإنسان إلى الدلالة اليقينية على عقيدته ويمكنه من هدم شبه الملحدين والمعاندين.

ونستطيع أن نعرفها تعريفا أكثر وضوح فنقول :

إن العقيدة الإسلامية هى مجموعة من القضايا الفطرية المسلمة بالعقل والسمع يعقد عليها الإنسان قلبه بعد أن قطع بها عقله وسلم بصحتها تسليما يقينا لايرقى إليه الشك، وذلك كاعتقاد الإنسان فى وجود الخالق وارساله لمحمد (صلى الله عليه وسلم) خاتم الأنبياء والمرسلين وإيمانه بصفات اللّه والقضاء والقدر والبعث وكل ما اخبر به القرآن الكريم وفصلته السنة النبوية المطهرة جملة وتفصيلا.

ويتضح من تعريف علم العقيدة الفوائد التى يمكن أن تعود على المسلمين من وراء دراسته. وأهمها :

١- استيقان المسلم من عقيدته بحيث لاتكون مجرد تسليم وتقليد، وإنما تقوم على الدليل والبرهنة واليقين، وهنا يتحول هذا اليقين إلى سلوك عملى حيث يخلص العبد فى عبادته للّه.

وهذا ماأشار إليه الشيخ حسن البنا حيث فصل أهمية هذا العلم وذكر له فوائد كثيرة، منها :

١- أن يرقى الإنسان بنفسه عن مواطن التقليد فى التوحيد.

١- يختلف الباحثون فى سر هذه التسميات :

فقد قيل : إن سبب تسميته بعلم التوحيد هو كثرة الكلام فى صفة الوحدانية وهى أشهر مباحثه فسمى باسمها من باب إطلاق الجزء علي الكل.

وقيل : إن سبب تسميته بعلم الكلام كثرة الكلام فى صفة «كلام اللّه وهل هو حادث أم قديم» هذه المسألة التى كانت سبباً فى تعذيب عدد كبير من العلماء. وقيل : سمى بعلم الكلام لأنه يورث القدرة على الكلام مع الملحدين والمجادلين ومناقشتهم وهدم شبههم راجع ص ٦١ من كتاب المواقف.

٢- السابق ص ٣٥.

٢- أن يعمل الفكر والعقل فى تفهم عقيدته.

٣- وبذلك يحسن عبادة الله سبحانه وتعالى ويمتثل أمره، ويعلم أن الدين الإسلامى لايزيده العلم إلا قوة وثباتاً.

يقول الشيخ رحمه الله : «اعلم أن الناس أمام العقائد الدينية أقسام : منهم : من تلقاها تلقيناً، واعتقدها عادة وهذا لايؤمن عليه من أن يتشكك إذا عرضت له الشبهات، ومنهم : من نظر وفكر فازداد إيمانه وقوى يقينه؛ ومنهم : من أدام النظر وأعمل الفكر، واستعان بطاعة الله تعالى وامتثال أمره، وإحسان عبادته فأشرقت مصابيح الهداية فى قلبه فرأى بنور بصيرته ماأكمل إيمانه وأتم يقينه وثبت فؤاده «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم»[١].

وهنا نفهم الغاية الأساسية من دراسة هذا العلم. وهى : أن نعرف عقيدتنا معرفة يقينية لا لمجرد المعرفة وإنما لكى نعبد الله على حق، ونطيع أوامره وننتهى عما نهى.

فإذا عرفت الله حق المعرفة وجب أن تعبده حق العباده وإلا كانت معرفتك وبال عليك أمام الله، وتحولت إلى منافق ينطق لسانه بالإيمان ويردد عقله الأدلة والبراهين على هذا الإيمان، ولكن – وللأسف – تأبى جوارحه أن تمتثل لمقتضيات هذا الإيمان.

وهذه هى مشكلة المسلمين فى العصر الحاضر، فكلهم يعرفون أنهم على حق، وأن عقيدتهم هى طريق النجاة فى الدنيا والآخرة .. ولكن القليل منهم هم الذين تمتثل جوارحهم لمقتضى إيمانهم كما أراد الله سبحانه وتعالى.

٢- إن هذا العلم يمد المسلم بالأسباب والوسائل التى تمكنه من الدفاع عن الإسلام ورد شبه الجاحدين والمعاندين لأنه يعرف المسلم تفاصيل عقيدته بالدليل والبرهان كما يعرض للشبه القديمة التى طرحها أعداء الإسلام ويرد عليها ويدحضها، وهذا من شأنه أن يمرس المسلم على أساليب الجدل والحوار مع أعداء الإسلام.

٣- ومن فوائد هذا العلم أيضاً بيان الحق للمسترشدين الذين يبحثون عن الحق فيضلون الطريق، وماأكثرهم فى هذه الأيام، فقد منى العالم الإسلامى المعاصر بكثير من الاتجاهات المنتسبة للإسلام والتى حاول كل واحد منها فهم الإسلام بمفهوم خاص فضلوا الطريق وشوهوا صورة الإسلام بمفاهيمهم المتضاربة.

١- راجع ص ٨ من كتاب العقائد.

ومن هنا تبدو أهمية علم العقيدة فهو الذى يبين العقيدة الإسلامية بيانا واضحا كما أرادها اللّه تعالى.

ومأأحوج المسلمين فى هذا العصر إلى تعلم هذا العلم، حتى يكون سبباً فى صد الهجمات الشرسة التى يواجهها الإسلام من مختلف المعسكرات.

المبحث الثاني
خصائص العقيدة الإسلامية

تتميز العقيدة الإسلامية عن غيرها من العقائد الآخرى، كالنصرانية واليهودية والأديان الوضعية، بعدد من المميزات و الخصائص، وأهمها :

١- العموم والشمول :

فالعقيدة الإسلامية ليست عقيدة خاصة بزمان معين أو مكان محدد، أو جنس محدد، وإنما هى عقيدة كل الأزمان، وكل الأوطان وكل الأجناس.

لقد كانت العقائد السابقة عقائد خاصة بأقوام معينين، لهم زمان محدد ومكان معين، فلقد أرسل شعيب إلى (مدين) وأرسل هود إلى (عاد) وأرسل صالح إلى (ثمود)، وأرسل موسى إلى بنى إسرائيل، وأرسل عيسى إلى الضالين من بنى إسرائيل. وأما رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وعقيدته، فقد كانت عامة وشاملة لكل البشر ولكل لأجناس.

فهى عقيدة الإنسان أياً كان زمانه وأياً كان مكانه.

لقد خصص عيسى رسالته بنص كتابه. فقال : «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة[١]» وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أكد القرآن على عموم عقيدته فقال :(وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين)[٢] وقال :(قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً)[٣] وقال :(تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)[٤].

وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول أيضا؛ لأنها تناولت كل القضايا العقدية التى تهم الإنسان فى آجله وعاجله.

فلقد أجابت العقيدة الإسلامية على كل التساؤلات التى طرحها الإنسان قديماً وعجز عن الوصول إلى الحل الصحيح.

مثل : السؤال عن الإنسان ماهو؟ ومامصيره ومالغاية من وجوده؟

١- إنجيل متى ١٥/٢٤.

٢- سورة الأنبياء آية ١٠٧.

٣- سورة الأعراف الآية : ١٥٨.

٤- سورة الفرقان الآية : ١.

والسؤال عن الإله وعلاقته بخلقه.

والسؤال عن الكون وحقيقيته.

والسؤال عن الموت ومابعده.

نعم، أجابت العقيدة الإسلامية بصورة واضحة عن كل التساؤلات التى حيرت الإنسان قديماً.

فحلت قضية الألوهية، وقضية الكون وقضية الإنسان، وقضية النبوة، وقضية المصير.

خلافاً للعقائد والأديان السابقة التى لاتجد فيها إجابة صحيحة عن هذه المشكلات الكبرى.

ولكن العقيدة الإسلامية اهتمت بهذه القضايا الأساسية وقالت كلمتها بوضوح وشمول.

ومن هنا كان المسلمون مأمورين بتبليغ هذه العقيدة إلى سائر الخلق وإلا كانوا مقصرين خارجين عن توجيهات الله سبحانه وتعالى (ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته).

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير).

وهكذا ألقت خاصية عموم العقيدة الإسلامية مسئولية كبرى على المسلم، الذى افترض الإسلام فيه أن يكون دائما داعياً إلى هذه العقيدة.

٢- الخاتمية :

فالعقيدة الإسلامية هى آخر إرسال السماء إلى أهل الأرض وبعدها انتهى الوحى وانتهت النبوة، ومن هنا كان أخص خصائصها أنها خاتمة العقائد ونهايتها، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (: أنا العاقب فلا نبى بعدى).

٣- الخلود :

ونظراً لأن العقيدة الإسلامية هى خاتمة العقائد الإسلامية كان الخلود والبقاء أخص خصائصها، ولذلك تكفل المولى سبحانه وتعالى بحفظها حتى لاتتعرض لتغيير أو تحريف. قال : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

٤- القوة الذاتية :

ومن أهم خصائص العقيدة الإسلامية أنها تعطى معتقدها قوة ذاتية تجعل القوة المادية – مهما كانت – فى نظره لاتساوى شيئاً.

ولعل هذا مايفسر لنا كيف بدأ الإسلام بعدد من الأفراد يعدون على الأصابع، ثم كيف تطور إلى قوة كبرى دمرت كل القوى العالمية المتمثلة فى الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية.

وكيف تحول المسلمون من أعراب أجلاف إلى سادة للعالم ومعلمين للإنسانية :

فالعقيدة الإسلامية قوة فى ذاتها حين يتمسك بها المسلم.

ولعل هذا مايفسر لنا حالة التدهور والتفكك الذى يعيش فيه العالم الإسلامى فى هذا العصر، حين ترك المسلمون عقيدتهم وساروا وراء المعتقدات الشرقية والغربية فحدث لهم ماحدث من التفرق والاستضعاف رغم بلوغهم ألف مليون مسلم فى العالم، ذلك أن كثيرا من الناس يعترضون علينا فى أثبات هذه الخاصية ويقولون اذا كان الإسلام قوة فى ذاته كما تقولون، فلماذا انهارت حضارته ولماذا استضعف اتباعه.

والجواب : أن العقيدة الإسلامية استطاعت فى فترات سابقة أن تخلق اعظم حضارة عرفتها الإنسانية؛ لأن المسلمين قد تمثلوا هذه العقيدة بحق والتزموا بكل مقتضياتها فى كل مجال من مجالات حياتهم، ولكن حين ضعفت هذه العقيدة فى نفوس المسلمين، وتحولت إلى مجرد معارف واشكال دون تطبيق، انهار بناء الحضارة الإسلامية، لأنها فقدت القاعدة الاساسية التى قامت عليها. فانهار البناء وتثاقلت الهمم عن دراسة الكون واستكناه اسرار المادة كما أمر القرآن الكريم فى دعواته المتعددة إلى البحث والعلم.

وفى الوقت ذاته أستيقظ الغرب من ثباته وأخذ الأسس التى وضعها المسلمون فبنى عليها حضارته المادية البحته، فوصل إلى ماوصل إليه من حضارة وتقدم، وهكذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، وليس العيب فى العقيدة الإسلامية وإنما فى المسلمين الذين اهملوا هذه العقيدة.

وذلك أن علاقة العقيدة ببناء الحضارة علاقة عضوية، وحضارة تقوم بلا عقيدة محكوم عليها بالفناء، وقد بدأت بوادر الانهيار فى الحضارة الاوروبية الحديثة.

٥- الوضوح والصفاء والبعد عن التعقيد :

جاءت العقيدة الإسلامية واضحة كوضوح الشمس فى كبد السماء، لالبس فيها ولاخفاء ولا التواء.

فالعقيدة الإسلامية تقوم على وحدانية الله سبحانه وتعالى، والإيمان برسالات

السماء، والبعث الأخروى، وغيرها من مجالات العقيدة التى لايجهلها عاقل مهما كان جنسه، أو طبقته، أو حظه من التعليم، وذلك خلافاً للعقائد الأخرى كالمسيحية، أو اليهودية والتى أقامت عقيدتها على أساس معضلات عقلية حتى عجز المتخصصون عن فهمها فضلا عن عامة الناس.

إن قضية التثنية إله الخير وإله الشر-التى ظهرت عند البراهمة، والبوذيين والفرس.

وقضية التثليث (الآب والابن والروح القدس)، والتى ظهرت عند النصارى.

وقضية البنوة والتأليه عندهم أيضاً لاتتمتع واحدة منها بالوضوح لدى المؤمنين بها ولهذا اعتمدت على الإيمان بغير برهان.

وهكذا يتضح لنا أن الوضوح المشرق فى العقيدة الإسلامية يقابله غموض وتعقيد مطبق فى العقائد الأخرى، وأبرزها المسيحية التى لم يتضح لأتباعها حتى الآن حقيقة المسيح ماهى؟

حتى إنهم عقدوا المجامع تلو المجامع للبحث فى طبيعة المسيح هل؟ هو إله؟ أم ابن إله؟ أم بشر خالص؟ أم بشر حل فيه إله؟ أم جزء من أقانيم ثلاثة يتكون منها الإله، وهى : الآب، والابن، والروح، والقدس[1]؟ إلى غير ذلك من الاحتمالات التى يعترف رجال الدين المسيحى بغموضها واستحالة قبول العقل لها.

ومن أجل ذلك يطلبون من الناس إلغاء العقل، والتسليم المطلق بكل مايقال.

خلافاً للعقيدة الإسلامية التى تقوم أول ماتقوم على العقل، والفهم، والتفكير.

٦- الواقعية :

جاء الإسلام بعقيدة واقعية؛ لأنها تصف حقائق فى الوجود لا أوهاما متخيلة فى العقول، حقائق يقبلها العقل وتستريح إليها النفس، وتستجيب لها الفطرة السليمة.

فالعقيدة الإسلامية تدعو إلى الإيمان بإله واحد نطقت كل البراهين العقلية بوجوده، وهذه واقعية حيث جاءت هذه العقيدة موافقة لواقع الإنسان وفكره.

والإله فى الإسلام ليس كإله اليهود شغوف بإراقة الدماء يحب شعبه ويحقد على كل الشعوب.

وليس كإله النصارى المثلث الأقانيم الذى نطق الواقع العقلى للإنسان باستحالة تصوره.

١- د. يوسف القرضاوى - الخصائص العامة للإسلام ص ١٨.

وإنما هو واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله رحيم بخلقه عادل لايفرق بين شعب وشعب، منزه عن صفات البشر وتصورات البشر من الجسميه، والحدوث وغير ذلك مما لايليق به.

والعقيدة الإسلامية تدعو إلى الإيمان برسول بعثه الله ليختم به النبوات وهو بشر مثلنا لايتميز عن الناس إلا بالوحى :(قل إنما بشر مثلكم يوحى إلى) فهو ليس إلهاً ولاابن إله ولاملكا، وإنما هو إنسان بعثه الله وأيده بالحق وأنزل عليه كتاباً محفوظا من التغيير والتبديل مازال يتحدى أعداءه، وقد جاء هذا الكتاب المعجز مطابقاً لواقع الإنسان معبراً عن كل ما يجول فى صدره، ملبياً لكل احتياجاته.

كما راعت العقيدة الإسلامية واقعية الإنسان وحبه فى البقاء فدعت إلى الإيمان بحياة أخرى بعد هذه الحياة يجزى فيها كل مكلف بما عمل من خير أو شر. وفى عقيدة البعث الأخروى مايشبع رغبة الإنسان فى طول البقاء، وفى القصاص العادل للظالم الذى أفلت من يد العدالة الدنيوية، وفى المثوبة للأخيار الذين لم يأخذوا حقهم فى الدنيا.

كما أن ماجاءت به العقيدة الإسلامية فى مجال الحساب يوم القيامة، وكيف أن هناك عذاب ونعيم حسى ومعنوى موافق لواقع الإنسان من حيث هو جسم وروح، ولكل منهما مطالبه وحاجاته(١).

وهكذا تبدو لنا واقعية العقيدة الإسلامية ومواءمتها لطبيعة الإنسان وواقعه.

٧- الاعتماد على الإقناع وحرية الفكر :

خلافاً لكل العقائد السابقة التى أجبرت الناس على الدخول فيها حيث كانت الدولة الرومانية تخير الناس بين التنصر والقتل، جاءت العقيدة الإسلامية مبنية على الإقناع والحرية، وقد أرسى القرآن الكريم هذه الخاصية فقال :(لاإكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى).

من هنا وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتفى بتبليغ دعوته، وبيان الحق لليهود والنصارى، ولكنه لم يجبرهم على قبول هذا الحق، بل تركهم أحراراً، إما أن يستمروا على باطلهم، وإما أن يسيروا فى طريق الحق طائعين مختارين.

١- المرجع السابق ص ١٥٤.

ذلك أن الإسلام عقيدة ولايمكن أن يقبله إلا من يقتنع به، فهو ليس مجرد كلمة تقال باللسان، أو طقوس تؤدى بالأبدان، بل أساسه إقرار القلب وإذعانه وتسليمه، وحرية العقل واقتناعه.

والمسلمون مكلفون بتبليغه إلى الخلق فقط، فإن منعوا من تبليغ دعوتهم إلى الناس أمروا بالقتال للدفاع عن تبليغ الدعوة للناس، وهنا لايكون الأمر إكراها للناس على الدخول فى الدين، وإنما دفاع عن اعتداء وقع على أصحاب هذا الدين يتمثل فى منع المسلمين من دعوة الناس، أو منع الناس من الدخول فى العقيدة الإسلامية.

وقد يطرأ اعتراض يقول :

إذا كانت خاصية العقيدة الإسلامية هى الحرية والإقناع، فألا يعتد قتل المرتد إكراهاً على الدين؟

والجواب : أن الإسلام لايجبر أحداً على اعتناقه بداية، ولكن بعد اقتناع الإنسان ودخوله فيه طائعاً مختاراً لايجوز له الخروج منه لما يترتب عليه من :

- اعتداء على العقيدة الإسلامية بالتشكك فيها والفتنة فى الدين ذلك أن هناك قاعدة طبيعية فى البشر، وهى أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه، وقد فقه هرقل صاحب الروم إلى هذا فكان مما سأل عنه أبو سفيان من شئون النبى صلى الله عليه وسلم عندما دعاه إلى الإسلام :«هل يرجع عنه من دخل فيه؟ فقال أبو سفيان:لا».

ومن هنا نلاحظ أن المرتد يريد فتنة المسلمين فى دينهم وصد الناس عن الدخول فى الإسلام؛ لأنهم سيقولون : لولا أن ظهر لهم بطلان العقيدة الإسلامية لما رجعوا عنها بعد أن دخلوا فيها واطلعوا على باطنها وخوافيها، إذ لايعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته.

وقد استغل اليهود فكرة الارتداد عن الإسلام لتشكيك الناس فيه، كما يحكى القرآن الكريم :(وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون)(١).

ومن هنا كان أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتل المرتد لتخويف أولئك الذين

١- سورة آل عمران (٧٢).

كانوا يدبرون المكايد لإرجاع الناس عن الإسلام بالتشكيك فيه؛ لأن مثل هذه المكايد إن لم يكن لها أثر فى نفوس الأقوياء من المسلمين الذين عرفوا الحق ووصلوا فيه إلى عين اليقين، فإنها قد تخدع الضعفاء وتنفر الناس من الدخول فيه[1].

١- راجع تفسير المنار ج ٣ ص ٢٧٤ ومابعدها، وقارن ص ٣٨ من كتاب المصطلحات الأربعة بين الأمامين محمد عبده والمودودى - للأستاذ عبد المتعال الجبرى - القاهرة سنة ١٩٧٥.

المبحث الثالث
تاريخ علم العقيدة الإسلامية

البحث فى أمور العقيدة ظاهرة عامة، وقد وجدت منذ وجدت الأديان على هذه الأرض.

ومنذ ظهرت اليهودية والنصرانية، ظهر معها أحبارها ورهبانها الذين حاولوا شرح عقيدتهم وتوضيحها للناس، وخصوصا بعد أن تفرقت بهم السبل فى فهم عقائدهم، وكان لكل واحد منهم اتجاه خاص فى فهم عقيدته، من هنا ظهرت بذور علم الكلام الذى أطلقوا عليه إسم (علم اللاهوت) وقد عالجوا من خلاله مسائل الإلهيات والقضاء والقدر والتشبيه، وغير ذلك من مسائل العقيدة.

ولكن الأحبار والرهبان كان لهم منهج خاص فى أمور العقيدة وهو منهج التسليم المطلق[١]، وإلغاء العقل ومصادرة الفكر؛ نظراً لأن عقائدهم قد انحرفت عن مناهج السماء، ولم يكن من الممكن أن يتقبلها عقل واع.

وجاء الإسلام فبين زيف العقائد السابقة وناقش كل الاتجاهات المنحرفة وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة ثلاثة عشرة سنة يعلم الناس أصول العقيدة ويرسخ فيهم كلمة التوحيد، وكان الصحابة يتعلمون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولايسألون عن أمور العقيدة من الذات والصفات وغير ذلك؛ لأنهم فهموا معنى ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسكتوا فلم يفرعوا ولم يؤولوا وإنما أخذوا آيات الذات والصفات كما جاءت، فهم كما يقول ابن خلدون : «قضوا بأن الآيات من كتاب الله ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولاتأويل»[٢].

غير أن ذلك لم يكن مانعاً من ظهور بعض التساؤلات العقلية حول القضاء والقدر، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجيب عن هذه التساؤلات بما يشبه الزجر والنهى عن البحث فيها إذا لاحظ أن المسألة قد خرجت من طور التعليم والوصول إلى اليقين إلى طور المجادلة والتنازع والفرقة، خصوصاً والناس حديثو عهد بالإسلام،

١- راجع كتابنا مشكلات العقيدة النصرانية.

٢- مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٧.

فالمفروض أن المسلمين حين تعن لهم مشكلة أو تساؤل لايجلسون هم لحلها ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم – بل عليهم أن يذهبوا إليه ويأخذوا منه الحل.

وقد خرج ذات يوم على أصحابه وهم يتراجعون فى القدر فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لهم :«ياقوم بهذا ضلت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض، إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ولكنه نزل مصدقا بعضه لبعض فما عرفتم منه فاعملوا به وماتشابه فآمنوا به»(١).

ولاينبغى أن يفهم من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحجر على فكر الصحابة، كلا.

إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينهى عن الجدل فى الدين لأنه سبب من أسباب الضلال والانحراف عن طبيعة الدين، وهذا أمر واقع، ولكنه لم يكن يقصد الحجر على فكر الناس بدليل أنه قد أجاب عن كثير من التساؤلات التى أحس من خلالها أن السائل لايريد الجدل ولاالتنطع، وإنما يريد أن يستفسر وأن يفهم، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أجاب بعض السائلين عن مشكلة من أهم المشكلات الفكرية، وهى مشكلة القدم والحدوث حيث سأله بنو تميم عن هذه المشكلة فقال لهم :«كان الله ولم يكن شئ غيره وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شئ وخلق السموات والأرض»(٢).

وورد أن الرسول الله صلى الله عليه وسلم قد أجاب أبا بكر وعمر حين اختلفا فى مشكلة القضاء والقدر بما يفيد أن القدر من الله سبحانه، وهذا يؤكد لنا أن الرسول لم يقصد بالنهى عن الجدل الحجر على العقول، بدليل أنه كان يجيب المختلفين فى أى قضية إذا شعر بأن هناك حاجة حقيقية لهذا السؤال والجواب، وعلى أى حال فقد أثيرت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم معظم المشاكل الكلامية والعقدية وأجاب عنها الرسول صلى الله عليه وسلم فى سهولة وبساطة ويسر يناسب المقام.

ثم لحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى وترك أمته على المحجة البيضاء وعلى العقيدة الصافية ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك أو جاحد أعمى الله بصره وبصيرته.

١- راجع ص ٧ من صون المنطق والكلام للسيوطى.

٢- البخارى – كتاب بدء الخلق..

وجاء عصر الخلفاء الراشدين :

وتولى أبو بكر الصديق الخلافة بعد فتنة وقى الله المسلمين شرها وهى فتنة الإمامه ومن يتولاها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وقد ظهرت ثلاثة اتجاهات فى هذه الفتنة.

الاتجاه الأول :

يرى أن الإمامة من قريش وليس هناك من هو أحق بها منهم سوى أبى بكر الصديق لما له من فضل وخير على الإسلام كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنابه فى إمامة الصلاة مما يشير إلى فضله، ويمكن أن تقاس إمامة الناس على إمامة الصلاة.

الاتجاه الثانى :

يرى أن الإمام ينبغى أن يكون من الأنصار.

الاتجاه الثالث :

يرى أن الإمام ينبغى أن يكون من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس هناك من هو أحق بها سوى على.

وقد انتهت هذه الفتنة بتنصيب أبى بكر الصديق ومن بعده عمر ثم عثمان.

وقد وجد اليهود فى مشكلة الإمامة فرصة للوقيعة والفرقة بين المسلمين فراحوا يعضدون الرأى القائل بأحقية على بالخلافة وينتحلون الأحاديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحركوا دواعى العصبية التى أماتها الإسلام. وتزعم هذه الحركة (عبد الله بن سبأ اليهودى) وكون جمعية سرية راحت تعلن بين الناس أن لكل نبى وصى وعلى هو وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] وراحوا يؤلبون الناس على عثمان رضى الله عنه حتى انتهى الأمر بقتله.

١- ويحكى لنا المقريزى ماحدث للإسلام من خلال (عبد الله بن سبأ) فيقول : «وأحدث ابن سبأ القول بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بالإمامة من بعده (..) وأحدث القول برجعة على بعد موته إلى الدنيا وبرجعه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وزعم أن عليا لم يقتل وأنه حى، وأن فيه الجزء الإلهى، وأنه هو الذى يجئ فى السحاب وأن الرعد صوته وأنه لابد أن ينزل إلى الأرض فيملأها عدلا كما ملئت جوراً.

ومن ابن سبأ هذا تشعبت أصناف الغلاة من الرافضة وصاروا يقولون بالوقف ويفتون : أن الإمامة موقوفة على أناس معينين كقول الإمامية : بأنها فى الأئمة الإثنى عشر، وكقول الإسماعيلية : بأنها =

وتولى الخلافة على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - ولكن خرج عليه طلحة والزبير بن العوام ومعاوية بن أبى سفيان لأنهم رأوا أنه قصر فى نصرة عثمان مما أدى إلى قتله، وقد وقعت بين على والخارجين عليه موقعتا صفين والجمل.

وقد كان هناك جمع من الصحابة شاهدوا هذه الخلافات فاعتزلوا ولم ينحازوا إلى أحد ولم يخطئوا أحدا بل أرجئوا الأمر إلى الله سبحانه، وقد أثمرت هذه الخلافات ثمار الفرقة العقدية والصراعات الدينية حيث ظهرت ثلاث فرق، وهى :

الخوارج : وهم الذين خرجوا على (على) أثناء معركة صفين.

الشيعة : وهم الذين تعصبوا لعلى وبنيه.

المرجئة : وهم الذين فوضوا الأمر فى خلاف الصحابة إلى الله ولم ينحازوا إلى فريق من الفرق المتنازعة[1].

ولم ينته الأمر إلا بقتل على بن أبى طالب وبذلك يكون انتهى عصر الخلفاء الراشدين وبدأ عصر جديد هو عصر بنى أمية.

ومع هذه الخلافات السياسية فى عصر الخلفاء الراشدين، لم يهملوا البحث فى أمور علم الكلام خصوصا.

- وقد تمت الفتوحات الإسلامية واتسعت رقعة الإسلام ودخل فيه أصحاب الديانات الأخرى وأصحاب الثقافات والفلسفات القديمة.

- كما أن البحث فى أمور علم الكلام ظاهرة عقلية طبيعية فالعقل بطبعة يتساءل عن ذات الله وحقيقته وصفاته، ويريد أن يصل إلى حل واضح فى مشكلة القضاء والقدر.

ومن هنا نوقشت بعض مسائل علم الكلام فى عصر الخلفاء الراشدين ومنها :

= فى ولد اسماعيل بن جعفر الصادق، وعن ابن سينا أيضا أخذوا القول بغيبة الإمام، والقول برجعته بعد الموت إلى الدنيا كما تعتقده الإمامية إلى اليوم فى صاحب السرداب، وعنه أخذوا أيضا القول : بأن الجزء الإلهى يحل فى الأئمة بعد على بن أبى طالب وأنهم بذلك استحقوا الإمامة بطريق الوجوب كما استحق آدم عليه السلام السجود من الملائكة» راجع ص ٣٠٣ ج ٣ من خطط المقريزى.

وهكذا يتضح لنا أن معظم الانحرافات العقدية القاتلة أتت من قبل اليهود الذين فشلوا فى القضاء على الإسلام بالقوة فاتجهوا إلى أخبث الأساليب وهى أساليب الغزو الفكرى والتشكيك فى الإسلام وهدم أركانه وأسسه بهذه الأفكار التى كان ظاهرها الحب لعلى وباطنها الحقد على الإسلام ومحاولة تشويهه والقضاء عليه.

١- راجع الملل والنحل للشهر ستانى.

مسالة الصفات المتشابهة :

فقد ظهر رجل يدعى صبيغ بن عسيل – فى عهد عمر بن الخطاب – وكان يسأل عن المتشابه من آيات القرآن الكريم حتى أن عمر بن الخطاب ضربه حتى أدمى رأسه لما لاحظه عليه من محاولة تشكيك المسلمين فى عقيدتهم.

مسالة القضاء والقدر :

فقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى له بسارق فقال له : لم سرقت؟ فقال السارق : قضى الله على (أى علم الله أننى سوف أسرق وقدر هذا الأمر على) وهذا تصريح بمذهب (الجبرية) فأمر عمر بقطع يده وضربه ثلاثين سوطا. وقد سئل عمر عن سبب الجمع بين القطع والجلد؟ فقال عمر : القطع للسرقة والجلد لأنه كذب على الله – ومعنى ذلك : أن عمر يقول : إنه فعل مافعل بمحض اختياره وهذا تصريح بحرية الاختيار ونفى لمذهب الجبر(١).

وجاء رجل إلى عبد الله بن عمر رضى الله عنه يقول له : لقد ظهر فى زماننا رجال يزنون ويسرقون ويشربون الخمر ويقتلون النفس التى حرم الله ثم يحتجون علينا ويقولون : كان ذلك فى علم الله فغضب ابن عمر وقال : سبحان الله، كان ذلك فى علم الله ولم يكن علمه يحملهم على المعاصى(٢).

أى أن العلم الإلهى ليس صفة تأثير حتى يحتج به فى القضاء والقدر، وإنما هو صفة انكشاف. ومن هنا لايحتج به.

مشكلة خلق القرآن :

أثيرت هذه المشكلة الكبرى – التى سببت فتنة فى تاريخ الإسلام فيما بعد – فى عهد عمر بن الخطاب :

فقد روى أن عليا بن أبى طالب – كرم الله وجهه – كان فى مجلس عمر فجاء رجل يسأل عن القرآن أمخلوق هو أم غير مخلوق؟.

فقال على كرم الله وجهه : «هذه كلمة وسيكون لها ثمرة ولو وليت من الأمر ما وليت ضربت عنقه»(٣).

١– راجع ص ٣٣ من إشارات المرام من عبارات الإمام البيضاوى.

٢– مفتاح السعادة ومصباح السيادة – ج ٢ ص ١٦٢ طاش كبرى زاده.

٣– صون المنطق والكلام ص ٥١.

مسألة الذات والصفات :

كذلك أثيرت مسائل البحث فى ذات الله وصفاته، فقد روى أن رجلا سأل عليا بن أبى طالب كرم الله وجهه فى مسألة الذات الألهية وقال له وهو فى مسجد الكوفة : هل تصف لنا ربنا فنزداد له حباً؟ فغضب على رضوان الله عليه ونادى الصلاة جامعة، فحمد الله وأثنى عليه ... إلى أن قال : فكيف يوصف من عجزت الملائكة – مع قربهم من كرسى كرامته – أن يعلموا من علمه إلا ماعلمهم الله، فعليك أيها السائل بمادل عليه القرآن من صفته وماكلفك الشيطان علمه مما ليس عليك فى الكتاب فرضه ولافى سنه النبى صلى الله عليه وسلم أثره فكل علمه إلى الله تعالى فإنه منتهى حق الله عليك(١).

وهذا قليل من كثير مما يروى عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلامهم فى مسائل العقيدة.

ولكن يلاحظ على مباحث العقيدة فى عصر رسول الله صلى الله عليه سلم والصحابة مايأتى :

١- أن البحث لم يكن لذات البحث وإنما لأمور طارئة أولمشكلات فكرية محددة عنت لبعض الصحابة، ولذلك كانت الإجابة على قدر السؤال وتنتهى المسألة عند هذا الحد.

٢- أن معالجة هذه المشكلات كانت تتم بالرفق واللين أحيانا وبالعنف والضرب أحيانا أخرى وخصوصاً إذا لوحظ أن الهدف منها التشكيك والطعن كما حدث مع صبيغ لأن الخوض فى هذه المسائل يفرق وحدة الأمة، ويضعفها.

٣- أن منهج المعالجة والاعتقاد كان هو ظاهر الكتاب والسنة دون السير وراء تشقيقات العقل ووحى الشيطان كما أشار إلى ذلك على بن أبى طالب فلم يكلف الصحابة أنفسهم عناء البحث فيما لم يبينه القرآن الكريم من المسائل المتصلة بالعقيدة وإنما أخذوا الآيات على ماجاءت به دون تكلف فى الفهم، فقد وصفوا الله تعالى بما وصف به نفسه ونزهوه عما لايليق به، وإذا مروا بما يوهم تشبيها آمنوا وفوضوا إلى الله أمر تأويله التزاماً بقول الله تعالى : هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله إلاالله، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر إلا أولوا الألباب»(٢).

١- راجع كتاب التبصير فى الدين.

٢- سورة آل عمران الآية : ٧.

٤- أن الأسباب الأساسية فى نشأة مسائل علم الكلام كانت هى:

(أ) مسألة الإمامة والخلافة وما نتج عنها من فرق وآراء .

(ب) طبيعة العقل البشرى الذى يحاول دائماً البحث فيما وراء المعلوم .

(جـ) اتساع رقعة الإسلام ودخول أصحاب الثقافات الأخرى والذين حاولوا إظهارها من خلال الإسلام أو حاولوا التشكيك فى الإسلام ، ومن هنا كان أمراً طبيعيا أن يجد هؤلاء من يرد عليهم ويجادلهم .

(د) الخلاف حول تأويل بعض النصوص القرآنية مثل الآيات التى وردت فى الجبر والاختيار - وآيات الصفات المتشابهة وغير ذلك .

(هـ) حرية الفكر التى سمح بها الإسلام وأكدتها نصوص القرآن الكريم .

العقيدة فى عصر بنى أمية :

تولى معاوية بن أبى سفيان الحكم بعد مقتل علي بن أبى طالب وبعد أن تصدع بناء الجماعة الإسلامية وانفصمت عرى الوحدة بين المسلمين وتفرقت بهم المذاهب(١) إلى شيعة وخوارج ومرجئة .

وكانت فى بداية أمرها أحزابا سياسية ولكنها تحولت بعد ذلك إلى فرق دينية لكل واحدة منها رأيها الخاص فى مسائل العقيدة والإيمان والكفر والقضاء والقدر.

وكانت فرقة الخوارج تكفر معاوية، كما كانت فرقة الشيعة رافضة لخلافته، ومن هنا حاول معاوية أن يستغل الدين فى تأييد سياسته وحكمه، فتبنى الرأى الذى يقول: بأن الإنسان مجبور فى أفعاله حتى يثبت فى أذهان الناس أن إمرته على المسلمين إنما كانت بقضاء الله وقدره ، ومن هنا ظهر مذهب الجبرية الذى أيدته سياسة معاوية(٢).

---

(١) الشيخ محمد عبده - رسالة التوحيد ص ٩ .

(٢) راجع ص ١٨٧ من التفكير الفلسفى فى الإسلام للمرحوم الدكتور عبدالحليم محمود .

وفى الوقت ذاته ظهر الرأى المخالف وهو رأى القدرية الذين قالوا: إن الإنسان حر فى أفعاله ، وقد أسس هذا المذهب - معبد بن خالد الجهنى، وغيلان الدمشقى .

وفى عهد بنى أمية ظهر (الحسن البصرى) الذى كان يقرر ما يعد رأياً للجماعة وكان من تلامذته واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد واللذان خرجا عليه فى مسألة حكم مرتكب الكبيرة وقالا: إنه ليس مؤمنا مطلقاً وليس كافراً مطلقاً وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين. وهنا قال الحسن البصرى اعتزلنا واصل، وأسس واصل بعد ذلك فرقة جديدة هى: فرقة المعتزلة[1] ويقال : إن واصل قد ألف كتاب التوحيد وكتاب المنزلة بين المنزلتين- وكتاب الفتياء إلا أنه لم يصلنا شىء من هذه الكتب ولكن إن صح نسب هذه الكتب إلى واصل فإننا نستطيع أن نعد عصر بنى أمية هو مبدأ التأليف فى علم الكلام .

(١) الملل والنحل للشهرستانى ص ٣٠ .

العصر العباسى

لقد اتسم العصر الأموى بالمحافظة على الطبيعة الإسلامية دون اهتمام بما عند الأمم الأخرى من علوم ، ولذلك لم ينقلوا غالباً إلا العلوم العملية كالطب والكيمياء.

وأما فى عهد الدولة العباسية (١٣٢ هـ - ٦٥٦هـ) فقد ترجمت معظم كتب الفلسفة والمنطق على يد أبى جعفر المنصور والمأمون الذى نشأ نشأة اعتزالية واعتنق مذهب المعتزلة :

وبعد حركة الترجمة بدأت الفلسفات والمذاهب الوثنية تغزو عقول المسلمين خصوصاً وأن الدولة العباسية قد استخدمت الموالى من الفرس واليهود والنصارى فى مرافق الدولة، وبعضهم اتخذها فرصة لهدم الإسلام وأعلن إسلامه ظاهراً وراح يحطم أسسه فى الخفاء وكونوا فرقا ادعت الانتساب إلى الإسلام.

ومن هنا كان على المسمين أن يردوا على هذه الفرق الضالة بأسلوبهم، وهذا ما دعا المعتزلة إلى دراسة كتب الفلسفة والمنطق حتى يحاربوا المخالفين بسلاحهم.

ومن هذه اللحظة اصطبغ علم الكلام بصبغة لم تكن له من قبل، وهى الصبغة العقلية التى جعلت المعتزلة يقدمون العقل على النقل السماوي المقدس، ويخلطون الأمور العقائدية بالمسائل الفلسفية .

يقول الشيخ محمد عبده: «تفرقت السبل بأتباع واصل وتناولوا من كتب اليونان ما راق بعقولهم وظنوا أنه من التقوى أن نؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعا إلى أوليات العقل وما كان سراباً فى نظر الوهم فخلطوا بمعارف الدين مالا ينطبق حتى على أصل من أصول النظر»(١).

---

(١) رسالة التوحيد ص ١١ .

وهكذا تبنى المعتزلة منهج العقل المنطلق من القيود والنصوص والذى يحاول أن يطوع النصوص لفهمه الخاص .

ونحن وإن كنا نرفض هذا المنهج إلا أننا نلتمس لهم العذر، فقد أرادوا أن يواجهوا أعداء الإسلام بأسلوبهم فدفعهم ذلك الى هذا المنهج المخالف لما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ من الاستمساك بظاهر النصوص وتقديم النقل على العقل.

إلا أن الدولة العباسية قد تبنت مذهب المعتزلة وحاولت أن تفرض آراءهم بقوة السيف مما نفر الناس منهم .

وهنا ظهر أبوالحسن الأشعرى (٢٦٠-٣٢٤هـ) وكان تلميذاً من تلامذة أبى على الجبائى المعتزلى ولكنه خرج عليه ورفض مذهب الاعتزال وتبى مذهبا جديدا هو مذهب (أهل السنة والجماعة) الذى وقف موقفاً وسطا بين مذهب السلف وبين المذهب العقلى المحض الذى تبنته المعتزلة . وقد قام المذهب الأشعرى الجديد على أساس من العقل والنقل معاً.

وقد شاع المذهب الأشعرى وظهر من أساتذته :

أبوبكر الباقلانى ، والإسفراييني، وأبومنصور الماتريدى الذى كان له وجهات نظر مخالفة فى بعض الفرعيات .

وقد اعتبر هؤلاء العلماء أن ما وضعوه من الأدلة والمقدمات العقلية – كنظرية الجوهر والأعراض – جزءاً من الإيمان ظناً منهم أن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول، وهذه هى طريقة المتقدمين من الأشاعرة .

ثم جاء أبوحامد الغزالى وفخر الدين الرازى فكان للمنهج الأشعرى طريقة جديدة .

ذلك أن الغزالى قد توسع فى معرفة المنطق ولم يتحرج منه تحرجه من العلوم الفلسفية الأخرى، فقرر أن بطلان الدليل لا يلزم منه بطلان المدلول لإمكان إثباته بدليل آخر(١).

---

(١) د / على حسب الله – علم التوحيد ص ٩٦ .

وقد ألف الأشاعرة كثيراً من الكتب في علم الكلام، وراج مذهبهم وشاع فى أنحاء العالم الإسلامى نظراً لاعتداله وتوسطه بين الآراء المخالفة .

تاريخ العقيدة الإسلامية من القرن السادس الهجرى حتى الآن:

تمثل المرحلة الأولى من هذه الفترة (القرن السادس والسابع) اختلاط علم الكلام بالفلسفة، ذلك أن الإمام الغزالى قد كفر الفلاسفة لقولهم بقدم العالم وعدم علم الله بالجزئيات، وادعائهم أن البعث بالروح لا بالجسد، ومن هنا فتح الغزالى على الفلسفة والفلاسفة باباً من الحرب جعلهم يهربون من المواجهة، ويفرون من الساحة تحت ضغط عامة الشعب والحكام، ولم يجدوا بيتاً يأويهم إلا علم الكلام، فقد وجدوا فى هذا العلم فرصة للتنفيس عن أفكارهم وبدأوا يؤلفون فى هذا العلم، ومن خلال مسائله نقلوا آراءهم الفلسفية ومسائلهم التى ما كان لهم أن يعلنوها منفصلة(١).

ومن هنا تضخمت الكتب الكلامية، وأصبح التمييز فيها بين ماهو كلام وما هو فلسفة أمراً يحتاج إلى سعة اطلاع وخبرة بهذين العلمين .

ومن أشهر الكتب التى ألفت على هذه الطريقة :

- محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للإمام فخر الدين الرازى .
- أبكار الأفكار للآمدى .
- المواقف لعضد الدين الإيجي .
- المقاصد لسعد الدين التفتازانى .

وفى أول القرن الثامن الهجرى : ظهر إمام أهل السنة والجماعة ابن تيمية السلفى الذى حاول أن يعيد العقيدة الإسلامية إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه وقد رفض طريقة الخلط بين الفلسفة وعلم الكلام، وانتصر لمذهب

---

(١) د/ عبدالمعطى محمد بيومى – الفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب ج ١ ص ٤٥ .

السلف وتصدى للرد على الأشاعرة وغيرهم وألف كثيراً من الكتب التى عرضت العقيدة الإسلامية بأسلوب بعيد كل البعد عن تعقيدات الكتب الكلامية التى اختلطت بالفلسفة، وسار على نهجه من بعده تلميذه ابن قيم الجوزية .

وبعد هذا القرن أجدبت الساحة وخلت من الأبحاث القيمة فى علم الكلام واقتصر الأمر على بعض الشروح على ما سبق، وبعض الحواشى والملخصات:

مثل كتاب :

- الخريدة .

- وأم البراهين .

- والسنوسية الكبرى .

- والجوهرة . وغيرها من الكتب التى اكتفت إما بشرح الكتب السابقة والتعليق عليها وإما بالاختصار والإيجاز .

ويعلق الشيخ محمد عبده على هذه الحالة فيقول: لم يعد بين الناظرين فى كتب السابقين إلا تحاور فى الألفاظ وتناظر فى الأساليب ، علي أن ذلك فى قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور(١) .

وفى القرن الحادى عشر الهجرى ظهر الإمام محمد بن عبدالوهاب الذى أسس - الحركة الوهابية التى حاولت أن ترد الناس إلى عقيدة التوحيد الخالص، ومع أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، لم يكتب كثيراً فى العقيدة اللهم إلا أهم كتبه «التوحيد الذى هو حق الله على العبيد» إلا أن التأثير الفعلى الذى أثرته هذه الحركة في تاريخ العقيدة الإسلامية كان أبعد بكثير من كتابة الكتب والمؤلفات،. فقد وضع بذور حركات البعث الإسلامى من جديد حيث تأثر به كثير من المصلحين فى العالم الإسلامى من بعد كالشيخ جمال الدين القسام بالشام،

---

(١) رسالة التوحيد ص ١٦ .

وجبـرالدين التونسى بتونس، والأستاذ جمال الدين الأفغانى، والأستاذ محمد عبده بمصر .

ففى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وضع الأستاذ جمال الدين الأفغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده منهجا جديداً فى علم الكلام يقوم على أساس:

- الفصل بين المسائل الفلسفية والكلامية وتناول مسائل العقيدة بأسلوب بعيد عن تعقيدات الكتب القديمة.

- محاولة تجريد علم الكلام من المسائل الخلافية بين المتكلمين.

- محاولة تأييد العقيدة بالعلم والتوفيق بين النظريات العلمية وبين حقائق الدين .

ومـن الكتب التى ألفت على هذه الطريقة :

كتاب الرد علي الدهريين جمال الدين الأفغانى .

- رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده .

وفى الأربعينات من هذا القرن : بدأ الاتجاه السلفى يظهر من جديد على يد الإمام الشهيد حسن البنا الذى ألف كثيراً من الكتب فى العقيدة الإسلامية على طريقة السلف متتبعا ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، كما أسس جماعة الإخوان المسلمين التى تحملت عناء الدعوة من بعده .

وقد انتشرت هذه الجماعة فى أنحاء العالم الإسلامى وأصبح لها أنصار فى كل بلد من بلدان العالم الإسلامى بل أصبح لها امتداد فى دول أوربا الغربية .

وكنتيجة لدعوة الشيخ حسن البنا وأتباعه شاع المذهب السلفى وخصوصا بين شباب الجامعات الذين حاولوا تأليف فرق جديدة وهي وإن كانت تستمد أصولها من المذهب السلفى إلا أنها تختلـف فى كثيـر من المسـائل عن جمـاعة

الإخوان المسلمين، وذلك نظراً لأن معظم أعضاء هذه الجماعات كانوا من الشباب المتحمس لدينه فأوقعهم حماسهم فى أخطاء قاتلة[١] نتيجة لنزولهم إلى حلبة السياسة وهم لم يملكوا القوة التى تمكنهم من تنفيذ ما يريدون بعد.

ذلك أن السياسة ليست لعبة من طرف واحد، بل هى لعبة مزدوجة، ولا يفوز فيها إلا أقوى الأطراف، لهذا يجب ألا تنزل جماعة ما إلى الساحة إلا حين تثق أنها أصبحت قادرة على معاملة الأطراف القوية .

أما النزول إلى ساحة السياسة قبل هذه المرحلة فهو مرادف للانتحار.

وهذا ما حدث مع الفرق الإسلامية الحديثة مثل: (فرقة التكفير والهجرة) و(فرقة الجهاد) و (فرقة الفرماوى) و (فرقة السماوى) وغيرها من الأسماء الحديثة .

وقد تبنت هذه الفرق آراء مخالفة لمذهب الأشاعرة فى مسائل الإيمان والكفر، ومنهج الدعوة وغير ذلك من المسائل .

الأزهر وتاريخ العقيدة :

يقوم قسم الفلسفة والعقيدة بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر الآن بحماية العقيدة الإسلامية والرد على المخالفين .

ويقوم أساتذته بالتأليف فى علم الكلام وشرح العقيدة الإسلامية بالأساليب التى تناسب عقول المسلمين المعاصرين وهى أساليب الشرح والتبسيط لمسائل العقيدة – مع المحافظة في الوقت نفسه على كتب التراث القديمة. وهنا يجمع هذا القسم بين الأصالة والمعاصرة، وبين القديم والجديد .

ومما يؤسف له أن هذا القسم هو الوحيد الذى يقوم بحماية العقيدة الإسلامية في مصر .

---

(١) من هذه الأخطاء : تكفير المجمتع والأسلوب الفظ الغليظ فى الدعوة ومحاولتهم نقل المجتمع من النقيض إلى النقيض دون تهيئة فكرية وتربية فردية وإجتماعية، ودخولهم إلى ساحة الافتاء مع فقدان الكثير منهم لشروطه ووسائله .

وكان من المفروض أن تنشأ أقسام مماثلة فى كل جامعات مصر، بل فى كل كلياتها حفاظاً على العقيدة الإسلامية فليس هناك ماهو أهم منها.

وهذا نداء نوجهه إلي جميع المسئولين ، فلو كان فى الجامعات المصرية الأخرى أقسام للعقيدة واهتمام بها كما يهتمون بالمواد الدنيوية لما حدث لشباب مصر ما حدث، ولو أن العقيدة الإسلامية تدرس كمادة ضمن المواد لتحصن الطلاب من الأفكار المنحرفة(١).

وبعد هذا العرض العام لتاريخ علم العقيدة قديما وحديثاً نحاول أن نوضح منهج الاعتقاد فى الإسلام .

---

(١) هناك بعض الجماعات التى انحرفت تماما مثل جماعة الفرماوى التى يردد أتباعها كلاما ينم عن الجهل والتواكل الذى يبغضه الإسلام، ولكن هناك شبابا مسلما يفهم الإسلام حق الفهم ويعمل له دون انحراف عن منهج الرسول فى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ومعظم هؤلاء الشباب من تربية الإخوان المسلمين .

الفصل الأول

منهج الاعتقاد فى الإسلام

تمهيد :

جرت عادة الكاتبين فى علم الكلام أن يبدأوا الحديث عن العقيدة بمباحث النظر والتقليد ، وأول واجب على المكلف، والمنكرين للنظر، والرد على شبه المهندسين والسمنية وبيان فساد آرائهم وغير ذلك من الأبحاث التى أصبحت فى هذا العصر بعيدة تماماً عن المشكلات التى يواجهها المسلمون .

فالعلم الحديث الآن يبدأ أبحاثه المادية بالحديث عن مناهج البحث العلمى، ولم يعد يهتم بهذه الأبحاث التى يدور معظمها فى خواء وفى فراغ لا مجال له الآن.

ومن هنا كان الواجب على علماء العقيدة المعاصرين أن يأخذوا من هذه المباحث ما يفيدهم فقط فى قضاياهم المعاصرة ويهملوا ماعداها من المباحث التى لا تؤدى أى دور فى الحياة الإسلامية الحديثة. والتى أجهدت العقل الإسلامى واستنفدت قواه ثم خرج إلى الحياة فوجد نفسه يحمل سلاحاً غير السلاح الذى يستخدمه عدوه .

لذلك فإننى استبعد معظم هذه المباحث وأبدأ حديثى ببيان مناهج المعرفة البشرية وحدودها حتى يكون حديثنا مواكباً لعصرنا .

فماهى مناهج المعرفة والبحث العلمى؟ وما حدودها؟

وعلى أى منهج منها يعتمد الإسلام فى العقيدة؟

مناهج المعرفة البشرية :

منهج البحث هو الطريق الذى يسلكه صاحب الرأى أوالمذهب فى توضيح مذهبه ، وإقناع غيره به .

ولاشك أن الناس مختلفون فى طبائعهم وأهوائهم ومقدار استعدادهم لتقبل الحق، والطرق التى يسلكونها للوصول إليه .

فمنهم من ألف البحث العلمى النزيه والتمحيص العقلى الخالص الذى يعتمد على التأمل وترتيب المقدمات المنطقية، واستنباط النتائج، وهؤلاء هم الطبقة العاقلة المستنيرة من العلماء والحكماء والفلاسفة، الذين عندهم من قوة الاستعداد وإدراك المعانى واستنباط المجهول من المعلوم ما ليس لغيرهم .

- ومنهم من ألف الحس والمظاهر المحسوسة ولا يؤمنون بما وراء المحسوس تماماً كالأطفال الذين لا يدركون المعانى إلا إذا صورت لهم فى صورة أشياء محسوسة أو تعلقت بشىء ملموس يعرفه الطفل، فالطفل فى صغره حينما تتحدث أمامه عن (الله) لا يدرك معنى اللفظ ولكن حين تربط هذا اللفظ بشىء حسى يدركه الطفل، كأن تقول للطفل: إن الله هو الذين أرسل الينا هذا الطعام مثلا. هنا يتعلق الطفل بهذا المعنى غير المدرك لأنك قربته إليه بشىء يدركه ويحسه .

هذا هو شأن الحسيين الذين لا يؤمنون إلا بما تدركه حواسهم الخمس، ويمثلهم الآن الملحدون المعاصرون الذين يؤيدون إلحادهم بأن المنهج الحسى لم يثبت وجود الله .

- ومنهم صنف آخر تعدى حدود المحسوس والمعقول واعتمد على صفاء الروح وخلاصها من غواشى الماديات وهنا تدرك الروح ما لا يدركه العقل بمقدماته وبراهينه وما لا تدركه الحواس المحدودة.. ومن هؤلاء أصحاب المنهج الإشراقى .

- ومنهم صنف آخر يعتمد على النقل السماوى وحده فيسلمون بظاهره دون الخوض فى باطنه .

وهذه هى مناهج المعرفة البشرية :

- المنهج العقلى المنطقى الاستنباطى .

- المنهج الحسى الواقعى التجريبى.

- المنهج النقلى السماوى .

ونظراً لأن الإسلام دعوة للناس جميعاً على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأزمانهم وحظوظهم من الإدراك، فإنه لم يقر منهجاً واحداً من مناهج المعرفة ويهمل الآخرين، بل أشار الى كل هذه المناهج، لكى يكون دليلا وبرهاناً على أنه دين سماوى مقدس منزل من عند الإله العالم بطبيعة البشر والقادر على التوفيق بين الأهواء المتباينة والمنازع المختلفة «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» نعم فهو خبير بمنازع النفوس وأهوائها عليم بأمراضها وطرق علاجها».

ومن هنا أشار القرآن الكريم إلى كل هذه المناهج وأكد على أنها كلها صالحة للوصول إلى الحقيقة العليا وهى الله سبحانه وتعالى.

وهذا ما سوف نشير إليه فيما يأتى :

أولا : المنهج الحسى التجريبى :

أما عن المنهج الحسى الواقعى فقد أكد عليه القرآن الكريم حينما دعا الناس إلى دراسة جميع المظاهر الكونية من الإنسان والحيوان والنبات والجماد والبحار والأنهار والأفلاك وكل ما يقع تحت الحس البشرى.

(وفى أنفسكم أفلا تبصرون) ، (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) ، (إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون) .

وقد أمر القرآن بملاحظة كل هذه الظواهر ملاحظة حسية تجريبية (فارجع البصر هل ترى من فطور) .

وهكذا أقر القرآن الكريم المنهج الحسى الذى يعتمد على ملاحظة الظواهر والوصول إلى أسبابها وعللها، وهذا هو المنهج التجريبى.

ولكن كيف يدعو الإسلام إلى هذا المنهج مع أنه هو نفسه الذى أدى إلى موجة الإلحاد فى أوروبا واستبعاد كل ما ليس بمحسوس من مجال الوجود؟

والجواب : أن الخطأ لم يكن فى المنهج وإنما فى الذين استخدموه استخداما خاطئا ولم يعرفوا حدوده بل طبقوه فى غير مجاله وموضوعه فانتهوا إلى نتائج خاطئة وهى استبعاد كل ما لا يقع تحت التجربة من مجال الوجود.

لقد اغتر الغربيون بالمنهج العلمى حين أوصلهم إلى نتائج علمية كثيرة وكان سبباً فى تقدمهم وحضارتهم فظنوا أن فى إمكانه أن يتناول كل ما فى الوجود، وأنه يستطيع أن يخضع لسلطانه السماء كما أخضع الأرض، وأنه قادر على أن يحنى أمام التجربة كل المعنويات والغيبيات كما حنى الحسيات. ولذلك وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الإلحاد .

وهنا تظهر واقعية المنهج العلمى فى الإسلام، فمع أنه اعترف به كمنهج صحيح للمعرفة إلا أنه حدد له موضوعه ومجاله وهو الحسيات الظاهرة فى الفلك والأرض والطبيعة وغير ذلك من مجالات الحس، ولكنه حرم عليه ارتياد منطقة اللامحسوسات من (الغيبيات والإلهيات) لأنهافوق متناوله وأرقى من مداركه الحسية وأسمى من طاقاته جمعاء .

والمنهج العلمى لا يمكن تطبيقه فى غير المحسوسات لأنها ليست من مجاله. ومن هنا فإن استبعاد العلماء التجريبيين المحدثين لوجود الله بحجة أن المنهج التجريبى لم يثبته، يكون مصادرة على المطلوب؛ لأنه ليس من مجاله ولا موضوعه فهو إنما وجد لاختبار المحسوسات ولا يصلح فى غيرها وحينما يتعدى مجاله يكون خطؤه محققا .

فالمنهج العلمى الحديث لا يستطيع أن يدعى أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة، بل هناك حقائق أخرى غير محسوسة يمكن الوصول إليها بمنهج آخر غير المنهج الحسى .

وهذا ما قاله المنصفون من العلماء التجريبيين المحدثين.

يقول ماندير :

«إن الحقائق التى نتعرفها مباشرة تسمى الحقائق المحسوسة بيد أن الحقائق

التى توصلنا إلى معرفتها لا تنحصر فى الحقائق المحسوسة، فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة ولكننا عثرنا عليها على كل حال. ووسيلتنا فى هذا السبيل هى الاستنباط ، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه بالحقائق المستنبطة، والأهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين، وإنما الفرق هو في التسمية من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة، وعلى الثانية بالواسطة، والحقيقة دائماً هى الحقيقة سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط ».

ويقول مانديز أيضا :

«إن حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل فكيف يمكن أن نعرف شيئا عن الكثير الآخر؟.. هناك وسيلة وهى الاستنباط أو التعليل وكلاهما طريق فكرى نبتدىء به بواسطة حقائق معلومة حتى ننتهى بنظرية أن الشىء الفلانى يوجد هنا ولم نشاهده مطلقا»(١).

وهكذا يعترف هذا العالم بحدود المنهج التجريبى ومجالاته التى لا تتعدى الأشياء التى تقع تحت الحس، وليس له الحق فى إنكار ما ليس بمحسوس، لأن له منهجاً آخر وهو منهج البصيرة والاستبطان والعقل والنقل.

فالمنهج العلمى قاصر عن الوصول إلى المعرفة القصوى التى يريدها الإنسان ولقد بذل العلم الحديث الجهود والجهود لكى يتوصل إلى سر تكوين المادة وتفرقت به السبل ولم يصل حتى الآن إلا إلى بعض الحقائق عنها مع أنها واقعة فى إطاره ومنهجه، وفى كل يوم يكتشف المنهج العلمى حقائق جديدة تثبت أنه كان جاهلا بها ولا يدرى عنها شيئا. هذا عن الحقائق المادية وحينما تعدى حدود الماديات المحسوسة وحاول أن يبحث عن الروح وجد نفسه عاجزاً عن التصدى لذلك. لأنه لا يخضع للاختبار الحسى. وبدلا من أن يعترف العلماء الماديون بحدود

---

(١) الإسلام يتحدى ص ٤٣ .

المنهج العلمى التجريبى وعجزه، دفعهم الجهل والغرور إلى نفى «الروح والعقل وكل القوى الخفية الموجودة فى هذا العالم وهنا نشأ الخلاف الحاد بين (الدين والعلم)، كنتيجة لقصر نظر بعض العلماء الذين حملوا المنهج العلمى ما لا طاقة له به، فوصلوا إلى نتائج ينقضها المنهج العلمى من أساسها فقد استخدموا المنهج العلمى استخداماً غير صحيح حين حاولوا أن يحكموه فى مجال الغيبيات، فادعوا أنه لا يثبتها . علما بأن هذه الدعوى هى فى رؤوسهم هم، وليست من ثمرات المنهج العلمى، ومن هنا فالعيب ليس فى هذا المنهج وإنما فى هؤلاء الذين استخدموه استخداما غير صحيح.

الاستخدام السليم للمنهج العلمى يثبت وجود الله :

إذا كان المنهج التجريبى لا يثبت وجود الله ، فإن منهج البحث العقلى المنطقى يثبته، فلماذا لا يسلم دعاة المنهج العلمى بمقتضيات المنهج العقلى المنطقى مع أنهم يعتمدون عليه فى علم الفلك مثلا؟

فمن هذا الذى يستطيع إخضاع النجوم والأفلاك والمجرات للتجربة العلمية بمعناها المعروف عند العلماء التجريبيين؟

ومع ذلك يقوم علم الفلك كله على منهج البحث المنطقى الذى أثبتنا به وجود الله .

وهذا ما يعترف به العالم الطبيعى الأمريكى «ميريت ستانلى» حيث يقول عن المنهج المنطقى العقلى: «إن هذا الأسلوب من أساليب الاستدلال هو الأسلوب الوحيد الذى قام عليه علم من أقدم العلوم الطبيعية، ألا وهو الفلك ، فنحن لا نستطيع أن نتخلص من آثار الآشعة الكونية التى تفصل بيننا وبين هذه الأجرام السماوية عند دراستها، بل لا نستطيع أن نعدل ما يطرأ على الموجات الضوئية والصوتية المنبعثة من هذه الأجرام من تغيرات بسبب المسافات الشاسعة التى تفصل بيننا وبينها. ومع ذلك فإن هذه الظروف لم تحل بيننا وبين دراسة هذه الكواكب والنجوم فى سماواتها، والاستفادة من النظريات والقوانين التى وصلنا -

إليها في دراسات أخرى مشابهة في ميادين العلوم، وقد وصلنا بفضل كل ذلك إلى كثير من المعلومات والحقائق عن هذه العوالم التى لا نستطيع أن نراها إلا من بعد ولا نستطيع أن نمحصها إلا تحت ظروف صعبة ومعقدة»(١).

وإذا كان الأمر كذلك فما بال بعض الملحدين ينكرون علينا استخدام المنهج المنطقى فى إثبات وجود الله ، مع أنهم يستخدمون نفس المنهج فى علم الفلك .

ومع ذلك فإننا نقول لهم : إنكم لو استخدمتم المنهج العلمى التجريبى استخداما سليما لأثبتم وجود الله سبحانه وتعالى .

وبيان ذلك :

أن المنهج العلمى يسير فى ضوء خطوات محددة هى: ملاحظة بعض الظواهر، فرض الفروض التى يمكن أن تكون سبباً لهذه الظواهر اختبار صحة الفروض بإجراء تجارب مناسبة لطبيعة موضوع البحث – وبذلك يصل الإنسان إلى النتائج التى يريد الوصول اليها، ويلاحظ أن فى مرحلة اختبار صحة الفروض لابد من التسليم بصحة الفرض المختبر حتى يثبت عكسه .

فهناك ظاهرة ما، وهى وجود هذا الكون وما فيه من عجائب فما هو سبب هذه الظاهرة؟ نحن كمؤمنين نقول (الله) وهم كملحدين يقولون بلا موجد (أى العدم هو الذى أوجده أو هو الذى أوجد ذاته) .

وعليهم أن يحققوا الفرض القائل : بأن سبب وجود العالم هو (الله)، وهنا لابد لهم أن يسلموا ولو مؤقتا بأنه فرض صحيح سواء كانوا يعتقدون فى ذلك أم لا، لأنهم إذا لم يسلموا بصحة هذا الفرض فإنهم يعجزون عن الوصول إلى اختبار حقيقى له (مع اعتبار أن الله ليس مادة يمكن أن تدخل المختبر).

إذاً لابد أن تكون بينهم وبين الله علاقة ما حتى يختبروا فرضهم تماماً كما يصنع الطبيب النفسى، فإنه يضع مجموعة من الفروض لظاهرة مرضية لشخص

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٧ .

معين - ولكنه لا يستطيع أن يتحقق من فروضه إلا بخلق علاقة تواصل مع المريض تجعله يحكى له كل ظروفه وهنا يتحقق الطبيب من فرضه ويصل إلى النتائج المطلوبة لأن الظواهر النفسية لا تخضع للتجارب الحسية مما يستلزم من الطبيب أن يختبر فروضه بطريقة تلائم طبيعة الموضوع الذى يقوم ببحثه .

وهكذا الحال فيما يتعلق بوجود الله، فلابد أن يدرس الإنسان أولا نوع العلاقة التى يمكن أن تكون بينه وبين خالقه وما ينبغى أن تكون عليه هذه العلاقة ، فإذا درسوا الشروط التى يلزم توافرها لقيام هذه العلاقة واتجهوا بقلوبهم نحو تحقيق هذه الشروط . فإنهم سوف يشاهدون الحقيقة كاملة. وعندئذ يغمر الإيمان قلوبهم ويؤثر فى حياتهم .

ويتحققون من وجود الله عن طريق اليقين الذى لا يقبل الشك فليتجهوا إليه وسوف يجدونه فالله لا يشرق إلا فى قلوب الباحثين عنه .

ولكن الملحدين يخرجون على مقتضيات المنهج العلمى : حيث لا يسلمون ولو تسليما جدليا بصحة الفرض القائل: (بأن الخالق هو الله).

ولا يريدون أن يسيروا على مقتضيات المنهج العلمى السليم وهى خلق أى نوع من العلاقة بينهم وبين هذا الفرض حتى يتحققوا من وجوده .

وما أشبه هؤلاء بالحداد الذى سمع العلماء يقولون: بأنه من الممكن أن تصنع السفن من الحديد - وكان الشائع قبل ذلك أنها تصنع من الخشب لقلة كثافته مما يجعله يطفو فوق الماء- فراح على الفور ينكر هذا الفرض وذهب إلى أن السفن المصنوعة من الحديد لا يمكن أن تطفو على الماء، وأيد هذاالحداد وجهة نظره بأن أخذ قطعة من الحديد على صورة حدوة الفرس وألقاها فى الماء فغاصت فيه.

ولم يرد هذا الحداد أن يسلم ولو مؤقتاً بصحة هذا الفرض فأعماه ذلك عن التفكير فى تجربة مناسبة لاختباره، ربما أوصلته إلى نتيجة تختلف عن النتيجة التى وصل إليها .

ولو أنه سلم مؤقتا بصحة هذا الفرض لألقى فى الماء إناءً أو حوضاً من الحديد بدلا من حدوة الفرس، وكان سيتبين له صحة هذا الفرض(١).

وهكذا الملحدون لا يريدون أن يسلموا بوجود الله ولو مؤقتاً حتى يتحققوا منه، ولو فعلوا ذلك لوجدوا آلاف البراهين والتجارب التى تثبت وجوده، ولكنهم على الفور ينكرون هذا الفرض ولا يحاولون التحقق منه وهو خروج عن أصول المنهج التجريبى السليم .

«سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق..» .

بل ويدعون أن هذا الفرض لا يمكن التحقق منه، ونقول لهم: وما شأن فرضكم الذى يقول: إن العالم موجود بالمصادفة، هل تحققتم منه عن طريق المنهج التجريبى ووضعتموه فى المختبر، وإذا كان هذا الأمر مستحيلا، فكيف تسلمون بما يثبته المنهج التجريبى؟

وهكذا يتضح لنا أن الملحدين الذين يدعون المنهج العلمى يقيمون إلحادهم على أساس من التسليم الأعمى لا على أساس المنهج العلمى، أما المؤمنون فيقيمون إيمانهم على أساس العقل والبصيرة . ولقد صدق الله حين قال: (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم . وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم)(٢).

وصدق حين أثبت جهل مدعى العلم من الملحدين فقال: (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)(٣).

ومن هنا رسم الإسلام للوصول إلى الغيبيات والإلهيات مناهج أخرى وهى المنهج العقلى والمنهج النقلى .

وسوف نعرض لهما بعد الحديث عن مفهوم المنهج الذوقى الإشراقى.

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ١٢ وما بعدها .

(٢) سورة الحج الآية : ٥٤ .

(٣) سورة الحج الآية : ٨ .

ثانيا : المنهج الذوقى :

وأما عن المنهج الذوقى الإشراقى: فهو منهج الخواص حيث يصل فيه الإنسان إلى معلومات لا يمكن الوصول إليها بطريق العقل أو النقل، وهو منهج يعتمد على الطاعة المطلقة لأوامر الله، والعبادة الصافية، وتخليص النفس من أدران البدن، وصفاء الروح وخلاصها من ثقل العالم المادى، المحسوس، وانغماسها فى عالم الشهود. وهنا تصل الى معلومات ومعارف يعجز العقل بمنطقه عن الوصول إليها .

يقول الفارابى: «إن لك منك غطاءً فضلا عن لباسك من البدن فاجتهد أن ترفع الحجاب وتتجرد ، فحينئذ تلحق، فلا تسأل عما تباشره، فإن ألمت فويل لك، وإن سلمت فطوبى لك، وأنت فى بدنك تكون كأنك لست فى بدنك، وكأنك فى صقع الملكوت فترى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاتخذ لك عند الحق عهداً إلى أن تأتيه فرداً»(١) .

كذلك يشير ابن سينا إلى المنهج الذوقى الذى يترقى فيه الإنسان عن طريق الإرادة والرياضة الصوفية فيصل إلى ما لا يصل إليه حس ولا عقل .

يقول ابن سينا : «وإذا بلغك أن عارفاً حدث عن غيب فأصاب متقدماً ببشرى أو نذير، فصدق ولا يتعسرن عليك الإيمان به» .

وقد اعترف القرآن الكريم بهذا المنهج، وقدم له الوقائع والأدلة من خلال عرضه لقصة الخضر مع نبى الله موسى عليه السلام، وكيف وصل الخضر بذوقه وإشراقات الله عليه إلى ما عجز عنه موسى بعقله، وكيف أن حجب الغيب والمستقبل قد انكشفت أمام هذا الرجل فتصرف فى ضوئها حيث خرق السفينة وقتل الغلام، وأقام الجدار- مما لم يطقه موسى بعقله .

وقد فصلت كتب السنة هذه الحادثة(٢) مما يدل على أن الإسلام قد اعترف

---

(١) الفارابى - رسالة نصوص الحكم ص ٦١ ضمن كتاب المجموع .

(٢) راجع الأحاديث الكثيرة التى ذكرها ابن كثير عن تفسيره سورة الكهف ص ٩٢ ج ٣ .

بالمنهج الذوقى الإشراقى الذى يصل الفرد من خلاله إلى معلومات فوقية من غير طريق العقل البشرى، أو النقل السماوى، فهو طريق خاص بمن نور الله بصيرتهم فاستضاءت بضيائه، وأشرقت بإشراقاته ففاضت عليهم المعرفة.

ولكننا نريد أن ننبه إلى أمر هام وهو : أن الإسلام لم يكلف أحداً من البشر بهذا الطريق. ولم يلزم أحداً به فهو طريق اختيارى يسير فيه من يريد ولذلك لا يكون ملزماً إلا لصاحبه وليس له أن يكلف أحداً بمقتضياته؛ لأنه خاص بمن (ذاق بنفسه) ، ولذلك قالوا: «من ذاق عرف ومن حرم انحرف» .

وأما المناهج الملزمة للبشر فهى المناهج التى تكون فى إمكانات الجميع، وهى المنهج العقلى، والمنهج النقلى .

فهذان هما المنهجان الملزمان لكل مؤمن .

وسوف نحاول أن نفصل الحديث حول الأدلة العقلية والأدلة النقلية :

ثالثا : المنهج العقلى المنطقى فى القرآن الكريم :

دعا القرآن الكريم إلى التعقل والتفكر والتدبر مسايراً بذلك طبيعة الإنسان، فالأصل فيه أنه عاقل ومفكر، ولذا فإن الله سبحانه وتعالي حينما يخاطبه عن طريق وحيه إنما يخاطبه بما يتسق وطبيعته البشرية. ومن غير المعقول أن يطلب المولى من الناس إلغاء النعمة الكبرى التى أعطاهم إياها، وهى نعمة العقل .

حقاً إن بعض رجال الأديان السابقة قد فصلوا بين الدين والعقل فصلا تاماً، ولكنهم بذلك قد خالفوا طبيعة الأديان من حيث هى أديان وطبيعة الإنسان من حيث هو إنسان .

ولكن القرآن الكريم خاطب الإنسان على مقتضى طبيعته، ومن الجهة التى هو بها إنسان .

يقول العقاد: «ففى كتب الأديان الأخرى إشارات صريحة أو مضمونة إلـى

العقل، أو إلى التميز، ولكنها تأتى عرضاً غير مقصودة، وقد يلمح فيها القارىء بعض الأحايين شيئاً من الزراية بالعقل أو التحذير منه؛ لأنه مزلة العقائد (...) ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتى الإشارة إليه عارضة مقتضبة فى سياق الآية بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها مؤكدة وجازمة»[١].

وهكذا جاء القرآن الكريم فانتهج بالدين منهجاً جديداً لم يعرفه أتباع الرسالات السابقة، وتآخى العقل والدين لأول مرة[٢] فى هذا الكتاب المقدس الذى رفع من قيمة العقل حتى ذكره فى أكثر من أربعين موضعا مقروناً بالتبجيل والتكريم[٣] .

يقول الدكتور أحمد الحوفى : وقد ترددت مادة العقل فى تسع وأربعين آية، والقلب بمعنى العقل في مائة آية وثلاث وثلاثين آية، والنهى بمعنى العقل فى ست عشرة ووردت مادة الفكر فى ثمانى عشرة[٤] .

وإذاكان القرآن الكريم قد جعل العقل هو الأساس فإنه لم يتركه هكذا وإنما وضع له منهاجاً واضحاً يضمن له الوصول إلى النتائج اليقينية. وهذا ما سوف نوضحه فيما يأتى :

أصول المنهج العقلى فى القرآن الكريم :

يمكن للباحث أن يستنبط من خلال فهمه لآيات القرآن الكريم أن القرآن قد وضع للمنهج العقلى جانبين:

---

(١) الأستاذ عباس محمود العقاد – التفكير فريضة إسلامية ص ٧ – بيروت سنة ١٩٧١ .

(٢) الشيخ محمد عبده – رسالة التوحيد ص ٦ المطبعة العامرة بمصر ١٣٢٤هـ .

(٣) الشيخ حسن البنا – الله فى العقيدة الإسلامية ص ١٢ القاهرة ١٩٧٧، ولكن يلاحظ أنه لم يرد لفظ العقل في صيغته الإسمية فى القرآن ، ولكن وردت مشتقاته فى صيغه الفعلية مثل: تعقل، يعقلون، تعقلون.. الخ .

(٤) د / أحمد الحوفى – القرآن والتفكير ص ١٢ القاهرة ١٩٧٥ .

جانب الهدم .

وجانب البناء .

أما جانب الهدم : فيتلخص فى تفريغ العقل من كل المقررات السابقة التى لم تقم على اليقين، أو التى قامت على مجرد التقليد أو الظن.

وأما جانب البناء : فيوضح فيه القرآن الأصول والقواعد التي تضمن للعقل الوصول إلى نتائج سليمة وتمكنه من تمحيص كل ما يرد عليه من فروض أو قضايا.

وسوف نوضح كل جانب من هذه الجوانب على حدة :

ا - جانب الهدم :

يحاول القرآن الكريم فى هذا الجانب أن يفرغ العقل من كل الأخطاء السابقة التى وقع فيهاكنتيجة لظروفه الفردية أو التي تابع فيها جمهرة الناس والأكثرية بدون تحقيق أو تمحيص أو التى أسلم قياده فيها إلى الكبار والمشهورين.

فقد رسخ فى أذهان الناس أن الأكثرية لا تخطىء ، وقد سيطرت هذه الفكرة تماما على العقول قبل الإسلام . فلما جاء القرآن الكريم نبه العقول إلى خطأ هذا الوهم، فالكثرة أو القلة ليست مقياساً لليقين، وليست معياراً للخطأ أو الصواب.

وقد أشار القرآن الكريم إشارة لطيفة إلى هدم هذه الفكرة بقوله: «وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله»وعلى هذا فلا يصح من الإنسان أن يقبل فكرة لمجرد أن الأغلبية تؤمن بها ، بل عليه أن يفكر فيما يعتقد من الأفكار حتى لو طبقت الأقطار وعمت أهل الأرض.

كما يشير القرآن إشارات كثيرة إلى تحطيم هذا الوهم «ولكن أكثر النـاس لا

يعلمون» «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين»(١) «وقليل من عبادى الشكور»(٢) وهكذا فالكثرة أو القلة ليست مقياساً صحيحاً للصواب والخطأ، فالقرآن يجعل الحق مجرداً عن الكثرة والقلة فيما يطلبه من الحق فيقلد الأكثرين وإن كانوا على باطل .

وإذا كان القرآن يحذر من الأخطاء التى تشيع بين الكثرة، فتضل الناس ويأخذونها مأخذ التسليم المطلق دون ما دليل ، إلا أن الكثير من الناس يعتقدون صحتها، فإنه يحذر من مصدر آخر للأخطاء هو: الأهواء الشخصية وينبه الإنسان إلى أنه إذا أراد الوصول إلى الحق، فعليه أن يعتزل هواه ولا يميل معه «فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا»(٣) «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله علي علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون»(٤).

وهكذا يحذر القرآن الناس من أن يتخذوا أوهامهم الخاصة وأهواءهم مصدراً للحقيقة، بل يسفه عقول هؤلاء الذين جعلوها مقياساً للحق .

كذلك يحذر القرآن من تقاليد البيئة وعرفها ، فهى ليست حجة على اليقين، وقد تشيع فى البيئة أخطاء ترسخ فى أذهان الناس حتى يظنوها حقائق.. والقرآن يحذر من الأخطاء الشائعة فى البيئة إذا كانت بيئة غوغائية غير علمية حيث يقول: «ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعملون»(٥).

وفى النهاية يحذرالقرآن من مصدر شائع للأخطاء وهو التأثر بالآباء والأجداد والمشاهير، والذين يأخذ الناس كلامهم وما كانوا عليه كقضايا مسلمة لا تقبل المناقشة، وحجتهم فى ذلك أن الكبار أعقل من الصغار والقدماء أحكم من

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٣ .

(٢) سورة سبأ آية : ١٣ .

(٣) سورة النساء آية : ١٣٥.

(٤) سورة الجاثية آية : ٢٣ .

(٥) سورة الجاثية آية: ١٨ ، وقارن ص ٢٢ وما بعدها من كتاب – أعلام الفلسفة الحديثة للدكتور رفقى زاهر القاهرة ١٩٧٩ .

المحدثين والمشاهير أوثق من الخاملين.

ولكننا نجد القرآن الكريم حافلا بإبطال هذا الزعم ، وتأكيد أن ذيوع الذكر، أو كبر السن ، أو قدم العهد، أو الشهرة، ليس حجة على اليقين، فالآباء قد يخطئون «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون»(١) .

وهكذا صرف العقول عن التعلق بما كان عليه الآباء من خرافات وأوهام، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان بل السابق واللاحق أمام العقل والتمييز سيان .

بل إن للاحق من علم الأحوال الماضية والاستعداد للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه(٢) قال تعالى: «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين»(٣).

وإذا كان الآباء قد يخطئون ، فإن الشهرة وذيوع الذكر والسيادة لا تعني العصمة من الخطأ، وقد ينخدع بعض الناس بآراء الكبار والمشاهير، ولكنهم لا يكتشفون هذا الخداع إلا بعد فوات الأوان .

وما كان أشد الأسف ، وما كان أعظم الحسرة حين يكتشف الذين ألغوا عقولهم وأسلموا قيادهم للسادة والكبار أنهم قد خدعوا وضللوا باتباعهم. ولكنهم لا يكتشفون ذلك إلا في الموقف العصيب بين يدى الله عز وجل .

والقرآن يعبر في صدق ودقة عن هذه المشاعر الفاجعة حين يقول على ألسنة المقلدين بغير تمحيص: «وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيرا»(٤). «وإذ يتحاجون في النار

---

(١) سورة البقرة آية : ١٧٠.

(٢) دكتور على حسب الله محاضرات في علم التوحيد ص ٣٠ القاهرة ١٩٥٢ .

(٣) سورة آل عمران آية : ١٢٧.

(٤) سورة الأحزاب الآيتان : ٦٧ ، ٦٨ .

فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار * قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد»[1].

«ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا»[2].

وهكذا يحذر القران العقول من التبعية لأى سلطان إلا سلطانها فيطلق العقل من أساره ، ويحل عنه قيوده وأغلاله ، ويرده إلى مملكته يقضى فيها بحكمه بلا منازع[3] .

وكأن الله سبحانه وتعالى يهيب فى الناس أن فكروا بعقولكم أنتم لا بعقول الآباء والأجداد، ولا بعقول المجتمع الذى تعيشون فيه[4]، فيزيل القداسة عن هذه الأصنام التى كانت حائلا بين العقل وبين المنطق السليم ، والاستدلال المستقيم.

وهذا هوالجانب السلبى فى منهج النظر العقلى فى القرآن الكريم. ولقد أحدث هذا الجانب دويا غير المفاهيم وأيقظ العقول حتى أننا لنستطيع أن نقول: إن فرنسيس بيكون في نظرية الأوهام الأربعة[5] - التى اعتبرها مؤرخوا الفلسفة سبقاً منقطع النظير - لم تكن جديدة كل الجدة، فقد ورد مضمون هذه النظرية بين ثنايا الكتاب الكريم حيث سبق القرآن الكريم فى تقريرها، ولكن دون ترتيب أو تبويب، وإنما ساقها فى أسلوب محكم يأخذ الألباب ويملك الأسماع والأبصار[6].

ومن يدرى فلعل بيكون قد اطلع على المترجمات الإسلامية والتى تعتبر

---

(١) سورة غافر الآيتان : ٤٧ ، ٤٨.

(٢) سورة الفرقان الآيات : ٢٧ - ٢٩ .

(٣) د . على حسب الله - محاضرات فى علم التوحيد ص ٣٠ .

(٤) د . على عبدالعظيم - فلسفة المعرفة فى القرآن الكريم ص ٣٢ .

(٥) راجع الأورجانون الجديد لفرنسيس بيكون ص ٨٨٦٦ تراث الإنسانية المجلد الثانى، وقارن ص ٦٦٣ من الاستقراء والمنهج العلمى د . محمود فهمى زيدان .

(٦) د . رفقى زاهر - أضواء على الفلسفة الحديثة والمعاصرة ص ٩ .

القرآن الكريم المعين الصافى لكل تفكير ولكل فلسفة، وخصوصاً إذا كانت هناك العلاقة التاريخية، ومن المقبول عقلا أن يأخذ المتأخر عن المتقدم إلا أن المنهج العلمى[1] يحتم علينا عدم القطع بذلك، وما نقصده هو الإشارة إلى عظمة الفكر الإسلامى وأصالته .

وهل يمكن أن يكون ما قاله ديكارت في شكه المنهجى، أو فى مما ذكره القرآن الكريم فى هذا الجانب؟ فقد دعا القرآن إلى تفريغ العقل تفريغاً كاملا من كل المقررات السابقة.، والتى لم تقم على أساس من التعقل الذاتى لكي يتحقق الإنسان بعد ذلك إما من صدقها فيقبلها ، وإما من كذبها فيرفضها .

والخلاصة : أن القرآن الكريم بإشارته إلى هذا الجانب السلبى إنما كان يفسح المجال للاستدلال المنطقى السليم .

٢- جانب البناء :

يمكن أن نضع تصوراً لقواعد المنهج الإيجابى في القرآن الكريم يتمثل فيما يأتى.

القاعدة الأولى : هى طلب البرهان ، فقد وجه عقول البشر إلى البرهنة وخصوصاً وهو يخاطب أصحاب العقائد الفاسدة: (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا)[2] أى علم برهانى، كما قال : (قل هاتوا برهانكم)[3]، (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه)[4].

وهكذا دعا القرآن الكريم إلى التفكير العلمى الجاد، فلم يرض للعاقل أن يعتمد على الأوهام والظن والخيال، ولم يرض له أن يقبل شيئاً دون برهان (ولا تقف

---

(١) راجع ص ٣ من المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت ، د / محمود زقزوق القاهرة سنة ١٩٧٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٤٨ .

(٣) سورة الأنبياء الآية : ٢٤ .

(٤) سورة المؤمنون الآية : ١١٧ .

ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)[١]، (إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا)[٢] ، (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى)[٣] .

وهذا هو الفارق بين العقلية الإسلامية المؤمنة، والعقليات الأخرى الملحدة، فالعقلية الإسلامية عقلية علمية متثبتة، لا تقبل شيئاً دون برهان، ولا تضع فى صف الحقائق العلمية إلا ما قام عليه الدليل القاطع .

وذلك على عكس عقليات أخرى مثل : عقلية داروين وأتباعه وماركس وأذياله الذين أقاموا نظرياتهم على الظن والتخمين، مثل: نظريات التطور وسبق المادة على الوجود .

القاعدة الثانية : وهى الاتساق فى الفكر . فقد حذر صراحة من الوقوع فى التناقض ونزه نفسه عنه، بينما وصف كلام الكافرين بالتناقض .

قال تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) . فقد أشار جمهور المفسرين إلى أن المراد بالاختلاف هنا: هو التناقض[٤]، وهو الذى وصف الله به كلام الكافرين فى قوله تعالى: (إنكم لفى قول مختلف) أى متناقض[٥]، ولذلك وصف الله القرآن بضد التناقض وهو التشابه والاتساق (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى)[٦]. والتشابه هنا المراد

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٣٦
(٢) سورة النجم الآية : ٢٨ .
(٣) سورة النجم الآية : ٢٣ .
(٤) الإمام الرازى – مفاتيح الغيب ج ٦٦ ص ٦١ – المطبعة العامرة بالقاهرة سنة ١٣٠٨هـ وراجع تفسير المنار للشيخ رشيد رضا ج ٥ ص ٢٣٤ – الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٦٣ . وقارن ص ٢٨٤ من الكشاف للزمخشرى – المكتبة التجارية ١٣٥٤هـ .
(٥) الرازى – مفاتيح الغيب ج ٧ ص ٦٣٠ .
(٦) سورة الزمر الآية : ٢٣ .

منه التناسب والتصادق والائتلاف، وضده الاختلاف الذى هو التناقض والتعارض[1] .

ومادام القرآن قد نفى عن نفسه التناقض ووصف نفسه بالتناسب ، والتناسق والتصادق، وفى نفس الوقت وصف كلام الكافرين الباطل بالتناقض، فإنه يوجه الأنظار إلى أصول التفكير المنطقى وقواعده وأساسها قانون عدم التناقض الذى قام عليه المنطق العقلى .

القاعدة الثالثة : كيفية البرهنة والاستدلال: اشتمل القرآن الكريم على كثير من البراهين والأدلة، ولكن فى صورة مبسطة تلائم عقول المخاطبين بصرف النظر عن تدقيقات المناطقة . ويعلل السيوطى لذلك بسببين:

أحدهما : أن الله لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه .

الثانى : أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون، لم ينحط إلى الأغمض الذى لا يعرفه إلا الأقلون، فأخرج تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه فى أجلى صورة ليفهم العامة والخاصة معا[2] .

وهكذا اتسمت براهين القرآن بالبساطة والوضوح ، بحيث يسمعها العامة والذين لا يعرفون قواعد المنطق فيقتنعون بها ويسمعها الخاصة من أصحاب العقول المنطقية فيدركون ما فيها من أصول المنطق العقلى .

وعلى هذا فلا ننتظر من القرآن أن يأتى لنا بمقدمة صغرى، ومقدمة كبرى، ونتيجة لكى نثبت أنه وضع أصول المنطق، فالقرآن ليس بكتاب فى المنطق القديم، وإنما هو خطاب لكل البشر بمختلف مستوياتهم .

وقد سلك القرآن الكريم فى عرض أهم قضاياه مسلك البراهين المنطقية .

---

(١) ابن تيمية - درء تعارض العقل والنقل ج ١ ص ٢٧٤ - مطبعة دار الكتب سنة ١٩٧١ .

(٢) السيوطى - الإتقان فى علوم القرآن - جـ ٢ ص ١٧٢ القاهرة سنة ١٩٨٢ .

- ففى قضية الوجود، يعرض على العقل البشرى ما فى الأنفس من عظمة وإبداع كدليل على وجود مبدع خالق: (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون)(١).

ولو حللنا هذه الآية لاستخرجنا ما فيها من أقيسة عقلية فالمخاطبون مخلوقون لاشك في ذلك، وهذه قضية بديهية أضمرها القرآن الكريم لبداهتها- وكل مخلوق لابد له من خالق.. وهذا الخالق إما أن يكون هو العدم وهو محال بداهة وإما أن يكون هو نفس المخلوق وإما أن يكون غيره فكونهم خلقوا من غير شيء محال، وكونهم خلقوا أنفسهم محال أيضا، فلم يبق إلا أنهم مخلوقون لله .

منطق عقلي يسوقه القرآن فى أسلوب بلاغى بيانى.. ولسنا نريد هنا أن نوازن بين أسلوب القرآن وأسلوب المنطق القديم، فإنه لا محل للموازنة بين أسلوب القرآن وطرقه، وأى اسلوب آخر من أساليب البشر، ولكننا نريد أن نبين أن حجج القرآن وبراهينه قامت على أسس متينة من الجودة والإحكام سواء كان ذلك في نظمها وتركيبها، أم فى صحة مقدماتها ونتائجها أم فى بعد مراميها فى هداية البشر وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

- وفى قضية الوحدانية يسلك بالعقل مسلكا آخر هو مسلك القياس الاستثنائى .

قال تعالى : «ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون» .

وإذا تأملنا فى مدلول هذه الآية وجدناها بدأت بتصدير النتيجة أولا وهى:

«الله واحد لا شريك له ، ثم شفعت هذا الحكم بحيثياته والبرهان عليه . فلو كان هناك إلهان لحدث التنازع والاختلاف - ولما كانت قضية التنازع مستحيلة بداهة لما يترتب عليها من تفكك الكون وفساده-.لم يدلل عليها وإنما ترك للعقول استنباطها، فمادام التنازع لم يحدث فالإله واحد لا شريك له .

---

(١) سورة الطور الآية : ٢٥ .

وهكذا يعرض القرآن المقدمات ويترك للعقول استنتاج النتائج .

- وفى قضية البعث يخاطب العقول بأساليب منطقية راقية ويدعوها إلى المقارنة بين حال البدء من العدم وحال الإعادة من حيث الصعوبة والسهولة ثم بقياس هذه على تلك لكى يصل العقل فى النهاية إلى إمكان البعث في المرة الثانية قياسا على إمكانه فى المرة الأولى «كما بدأ كم تعودون»، «كما بدأنا أول خلق نعيده».

وهكذا قاس الإعادة على الإبتداء ، وأحيانا يقيس الإعادة على خلق السموات والأرض فيما يسمى فى مجال المنطق الإسلامى بقياس الأولى «أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم»(١).

كذلك أشار القرآن إلي منهج آخر من مناهج الاستدلال وهو: منهج التحليل والتركيب الذى اقترن اسمه بديكارت(٢) الفيلسوف الفرنسى.

قال تعالى : «وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموت قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم»(٣).

اقرأ هذه الآية ودقق النظر فيها تجدها تشرح بدقة كل ما قاله ديكارت فى منهج التحليل والتركيب الذى يقوم على أربعة قواعد :

قاعدة اليقين ، وقاعدة التحليل، وقاعدة التركيب، وقاعدة المراجعة والمقارنة.

وفى هذه الآية نجد سبقاً قرآنيا لهذا المنهج .

---

(١) سورة يس الآية : ٨ .

(٢) راجع ص ١٠١ من تأملات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة د . محمد عبدالرحمن بيصار وقارن ص ٧٧ من كتاب المذاهب الفلسفية العظمى فى العصور الحديثة د . محمد غلاب القاهرة ١٩٤٨ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٦٠ .

الخطوة الأولى : هى الشك والقلق من أجل الوصول إلى اليقين ، حيث يريد إبراهيم أن يصل إلى يقين ثابت لكى يطمئن قلبه - فقال: رب أرنى كيف تحيى الموتى، يريد أن يعاين الحق بنفسه ويصل إليه وصولا يقينيا لاشك فيه ولا تردد.. حتى لا يكون اليقين قائما على مجرد التسليم.

الخطوة الثانية : هى التحليل والتجزئة حيث أمره أن يأخذ أربعة من الطير ثم يجزئها على كل جبل منهن جزءاً .

الخطوة الثالثة : وهى التركيب «ثم ادعهن يأتينك سعيا» .

الخطوة الرابعة : هى المراجعة والمقارنة «واعلم أن الله عزيز حكيم» أى تأكد بنفسك وراجع ماسبق لكى تثق مما أردت الاطمئنان إليه. ولا ندعى التطابق الكامل بين منهج ديكارت وبين المنهج القرآنى وإنما يكفينا أن القرآن يشير من بعيد إلى أساليب الاستدلال العقلى .

كما أننا لا ندعى أن ديكارت قد تأثر بالفكر القرآنى مباشرة، ولكننا نقول: ربما اطلع على المترجمات الإسلامية والتى تعتبر القرآن الكريم هو المعين الصافى لكل تفكير ولكل فلسفة .

والغرض هنا هو أن نبين ما فى القرآن من سبق وأصالة لكل هذه الأفكار التى ظنها الناس من اختراع المحدثين .

كما تشير هذه الآيات إلى منهج آخر من مناهج الوصول إلى اليقين وهو التجريب الواقعى .

أفبعد هذا كله يصح أن يقال - كما قال المستشرق الفرنسى تنمان- إن القرآن يعارض النظر العقلى(١) ؟ أو يقال - كما قال رينان- أن موت ابن رشد كان ضمانا لانتصار القرآن على حرية العقل(٢) ؟

---

(١) راجع تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبدالرازق ص ٥ ، ص ١٩ جـ ٢ . ظهر الإسلام د . أحمد أمين .

٢) قارن ص ٢٣ ابن رشد والرشدية لرينان .

ولو أن واحداً منهم قرأ القرآن بإنصاف وفهم. لما وقع فى هذا الخلط الذى لا يستحق مناقشة فإن القرآن الكريم هو الذى أعطى ابن رشد حرية العقل والبحث، وكيف ينتصر القرآن على حرية العقل وهو الكتاب السماوى الوحيد الذى أطلق هذه الحرية من عنانها وأسرها بعد أن كانت حجراً على الكهنة والرؤساء.

ألا فليقرأ تنمان ومعه رينان - وكل من يدعى أن القرآن يعارض العقل - القرآن الكريم وليحصوا بأنفسهم كم مرة أمر القرآن بالتعقل والتفكير والتدبر والنظر، وكم مرة ورد التعقل فى القرآن الكريم مصحوبا بالثناء والتقدير .

هل يستفاد منه أن القرآن يعارض النظر العقلى الحر؟

إن الجواب على ذلك مرهون بمدى ذكائهم ومقدرتهم علي فهم القرآن(١).

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: «والذى ينبغى أن نثوب إليه موة بعد مرة أن التنويه بالعقل على اختلاف خصائصه لم يأت فى القرآن عرضا ولا تردد فيه كثيراً من قبل التكرار المعاد، بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره ويترقبها من هذا الدين كل من عرف كنهه وعرف كنه الإنسان في تقديره(٢).

فهل عرف هؤلاء كنه هذا الدين ، وكنه كتابه الكريم؟ هل قرأوا القرآن الكريم وهل فهموا ما يقرأون؟

حدود المنهج العقلى في القرآن الكريم :

وإذا كان القرآن الكريم قد وضع أصول المنهج العقلى فى العالم الإسلامى ، فإنه يمتاز عن هذا المنهج العقلى في أى حضارة من الحضارات السابقة. ذلك أن القرآن الكريم كان حريصا علي كرامة العقل، وكان حريصا على ألا يضل العقل أو يذل فوضح له موضوعات البحث التى تمكنه من الوصول إلى نتائج يقينية، وحذره

---

(١) د . سليمان دنيا - التفكير الفلسفى الإسلامى ص ٣٢٩ .

(٢) الأستاذ عباس محمود العقاد - التفكير فريضة إسلامية ص ٢٢ .

من موضوعات أخرى، لأنها ليست فى نطاقه، ولن يستطيع الوصول منها إلى شيء يقينى لأنها ليست فى مجاله.

ففى مجال الغيبيات كحقيقة الذات الإلهية، والروح والسمعيات، فإن القرآن الكريم يمنع العقل من اقتحامها لا لشيء إلا لأن العقل يعجز عن أن يصل فيها إلي حقيقة يقينية»، فكان ذلك صوناً للعقل عن التخبط فى بحار الغيوب التى لا يملك العقل فيها وسيلة آمنة[١] «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى» وحينما سأل المشركون عن حقيقة الذات الإلهية كان الجواب: «قل هو الله أحد * الله الصمد» فلم يكن الجواب عن الحقيقة وإنما كان الجواب عن الوجود والصفات .

وهذا ما يمكن تسميته بواقعية المنهج العقلى القرآنى؛ لأن العقل فى هذا المجال - يكون تماما كما قال تيماوس «كمن يعبر عباب المحيط على لوح من خشب»[٢] بل إننا نقول: إنه كمن يعبر المحيط بلا شيء ينجيه من الغرق لأن العقل في غير مجاله يكون لا شيء لأنه لن يأتى بشيء. وقديماً تمنى تيماوس لو أن هناك وحياً يبين له الحقيقة فى هذه الموضوعات.

رابعا المنهج النقلى : هو المنهج الذى يعتمد على وحى السماء الذى يتمثل فى الكتاب الكريم أو على حديث رسول الله ﷺ الذى هو البيان والتفصيل لما أنزل عليه ﷺ .

ودليل هذا المنهج هو قول الله تعالى: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» .

وإذا كان علماء الكلام قد عرفوا الدليل العقلى بأنه ما تركب من مقدمات عقلية وكان اللزوم بينها وبين المطلوب حاصلا بطريق العقل، فإنهم قد عرفوا الدليل النقلى بقولهم: هو ما كانت جميع مقدماته نقلية. بمعنى أنها مأخوذة من الكتاب

---

(١) د. عبدالمعطى محمد بيومى - الفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب جـ ١ ص ٨٨ .

(٢) د . صلاح عبدالعليم - عقيدة البعث فى القرآن الكريم ص ٥٨ - القاهرة ١٩٧٣ .

والسنة أو الإجماع، والربط بينها وبين المطلوب حاصل بطريق النقل. وقد يعرف بتعريف آخر. فيقال: هو دليل صح نقله عمن عرف صدقه عقلا وهم الأنبياء والرسل عليهم السلام(١).

ومثاله أن نقول: تارك المأمور به عاص. لقوله تعالى: «أفعصيت أمرى»(٢) وكل عاص يستحق النار، لقوله تعالى: «ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم»(٣).

ويلاحظ أنه لا يمكن الاستغناء عن المنهج العقلى أو النقلى فى العقيدة الإسلامية .

فهناك مسائل لا يمكن إثباتها إلا بطريق العقل مثل: النبوة ودلالة المعجزة على صدق الرسول ، فهى لا تثبت إلا بالعقل وإلا للزم الدور .

وهناك مسائل لا دخل للعقل فى إثباتها إلا من حيث تعقله لامكانها فقط - وهى مسائل السمعيات وأحوال المعاد وتفاصيل ما بعد الموت - والمسائل التشريعية وجملة أحكام التكاليف وقضاياها من التحسين والتقبيح والإيجاب والحظر والندب والإباحة(٤)، فكل هذه المسائل لا تثبت إلا عن طريق السمع والنقل ولا مدخل للعقل فيها إلا من حيث الإمكان فقط حيث يحكم بأن هذه الأمور ممكنة عقلا وليست مستحيلة الوقوع.

ومن هنا ، فالعقل والنقل هما جناحا العقيدة الإسلامية والاستغناء بأحدهما عن الآخر يكون سبباً للسقوط فى غياهب الضلال .

وهذا ما سوف نوضحه فيما يأتى :

---

(١) د . على محمد جبر - محاضرات فى علم الكلام ص ٣٧ .
(٢) سورة طه الآية : ٩٣ .
(٣) سورة الجن الآية : ٢٣ .
(٤) إمام الحرمين - الإرشاد ص ٣٥٨ .

العلاقة بين الأدلة العقلية والأدلة النقلية

اختلف المتكلمون فى بيان العلاقة بين الأدلة العقلية والأدلة النقلية، هل يقدم العقل على النقل؟ أو يقدم النقل على العقل؟ أو يجمع بينهما؟

ومن هنا ظهرت ثلاثة اتجاهات فى هذا الصدد :

الاتجاه الأول : هو اتجاه المعتزلة الذين تأثروا بمناهج الفلاسفة، والذين قدموا العقل على النقل وطوعوا النصوص النقلية لفهم العقل البشري وراحوا يؤولون آيات القرآن الكريم كما يريد العقل لا كما تريد النصوص نفسها، وهذا ما دعا ديبور إلى القول: بأن كثيراً من المعتزلة كانوا يعولون على العقل أكثر مما يعولون على القرآن»[1].

فما قبله عقلهم من نصوص القرآن أقروه وإلا حاولوا تأويله بما يتفق وعقلهم الخاص .

ومن منطلق الثقة المطلقة فى عقولهم زجوا بها فى مباحث وضحها القرآن الكريم إلا أنهم انحرفوا بها عن منهج القرآن تحت شعار العقل فخرجوا على قوانين العقل من حيث لا يشعرون، ولم يلتزموا بالعقل الذى شاع أنهم أصحابه، وخصوصا فى المسائل العقدية التى بينها القرآن الكريم مثل: مسألة الذات والصفات، والتى ادعوا فيها أن صفات الله عين ذاته، غير ملتزمين بقانون من قوانين الفكر البشرى وهو قانون الذاتية، ومثل مسألة المعدوم وهل هو شىء أم لا؟ هذه المسألة التي خرجوا فيها على قانون التناقض[2] حين ادعوا أن المعدوم شىء.

وهذا يؤكد لنا أن منهج القرآن هو منهج العقل ، وأن الانحراف عن منهج القرآن يلزمه ضرورة الخروج على قوانين الفكر.

وقد سبق عند حديثنا عن تاريخ علم العقيدة أن بينا الظروف التى اضطرت المعتزلة إلى تبنى المنهج العقلى المنطلق من الحدود والقيود وهى مواجهة أعداء الإسلام الذين تسلحوا بالمنطق والجدل العقلى .

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ١٥ - القاهرة سنة ١٩٥٧.

(٢) راجع قوانين "الفكر بين الاعتقاد والانكار" للمؤلف.

فنحن نعترف أن المعتزلة كانوا أول من تسلح بالعقل والمنطق فى مواجهة أعداء الإسلام(١).

إلا أن هذا المنهج العقلى المطلق كان يحمد لهم لو أنهم اكتفوا به فى مناقشة أعداء الإسلام الذين لا يقرون بالقرآن، ولكنهم تعدوا هذه الحدود وراحوا يقومون على أساسه كل العقائد الإسلامية. وهنا وقعوا فى الخطأ، ففيما يتعلق بموضوعات نص عليها القرآن الكريم، من غير المعقول أن يكون عقلهم وحده هو محط النقاش، بل كان من المفروض أن يسايروا منهج القرآن الكريم؛ لأنه منهج العقل الصحيح .

يقول ابن خلدون : «الأدلة العقلية إنما احتاجوا اليها حيث دافعوا ونصروا، وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزه البارى عن كثير إيهاماته وإطلاقه»(٢).

الاتجاه الثانى :

وهو للحشوية والظاهرية والمجسمة والمشبهة، الذين أخذوا بظاهر الآيات فقط دون أدنى تدخل من العقل، بل آمنوا بظاهرها الذى لا يليق بالله سبحانه وتعالى(٣)، ونفوا أن يكون للعقل مدخلا في التشريع والاجتهاد ورفضوا القياس وقالوا إنه ليس أصلا من الأصول .

ولاشك أن أصحاب هذا الاتجاه يمثلون اتجاها لا عقليا يبتعد عن روح الإسلام ابتعادا واضحا(٤) بل يذكرنا هؤلاء بالمناهج الكنسية (ألغ عقلك وسلم وخذ وأنت أعمى) .

فالإسلام يجعل للدين جانبين: جانب صدور وهو الوحى السماوى، وجانب

---

(١) د . أحمد أمين - مجد الإسلام ص ٢٩٩ القاهرة سنة ١٩٧٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣١ طبع دار الشعب .

(٣) يلاحظ أن منهج صحابة الرسول ﷺ كان الأخذ بالآيات كما جاءت ولكنهم كانوا يفوضون الكيف إلى الله سبحانه - مع اعتقادهم أنه لا يوصف بصفات البشر ومع تنزيهم له عن النقائص - خلافا للحشوية الذين حددوا الكيف» .

(٤) د . أبوالوفا الغنيمى التفتازانى - علم الكلام وبعض مشكلاته ص ١٥٨ .

قبول وهو العقل، ومن هنا يكون من الخطأ إهمال العقل لأنه الوسيلة لتلقي وحى السماء .

ومن هنا جاء الاتجاه المعتدل .

الاتجاه الثالث :

وهو اتجاه أهل السنة والجماعة ، وهم الذين جمعوا بين العقل والنقل معاً. ومع أنهم قدموا الشرع على العقل إلا أنهم جعلوا للعقل مدخلا فى فهم الشرع كما أشارت إلي ذلك آيات الكتاب الكريم.

وهكذا يتوسط أهل السنة والجماعة بين طرفين هما : الحشوية والمعتزلة، فهم لا يعزلون العقل عن الشرع كالحشوية ولا يقدمون العقل على الشرع كالمعتزلة وإنما يجمعون بينهما بحيث لا يصادرون منهجاً لحساب منهج آخر .

فالعقل نعمة من الله سبحانه وتعالى، والشرع من عند الله سبحانه وتعالى ومن هنا فلا تناقض بينهما لأن المصدر واحد وهو الله العليم الخبير بطبائع الناس وعقولهم .

وهكذا فأهل السنة والجماعة – ومنهم الأشاعرة – قد جمعوا بين مقتضيات الشرائع، وموجبات العقول، وتحققوا من أنه لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول .

ومن هنا فمنهجهم هو منهج الإسلام وهو طريق الرشاد والنجاة . يقول الإمام الغزالى :

وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر، أو يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر ﷺ ، وبرهان العقل هو الذى عرف به صدقه فيما أخبر. وكيف يهتدى للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر، فليت شعرى كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العى والحصر أو لا يعلم أن خطأ العقل قاصر وأن مجاله –

ضيق منحصر، هيهات.. قد خاب على القطع والبتات وتعثر بأذيال الضلالات ، من لم يجمع بتأليف العقل والشرع هذا الشتات، فمثال العقل البصر السليم عن الآفات والآداء، ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء. فأخلق أن يكون طالب الاهتداء المستغنى إذا استغنى بأحدهما عن الآخر فى غمار الأغبياء، فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور، والملاحظ بالعين العور لأحدهما على الخصوص متدل: بحبل غرور»(١).

وهكذا يبين لنا الإمام الغزالى المنهج الصحيح للاعتقاد وهو منهج الجمع بين العقل والنقل معاً وعدم الاكتفاء بأحدهما عن الآخر وإلا وقع الإنسان فى التفريط والإفراط وكلاهما خطأ يؤدى إلى الخروج عن الإسلام .

وبهذا المنهج سوف نعالج العقائد الإسلامية إن شاء الله .

ونبدأ الآن بقضية الألوهية :

---

(١) مقدمة الاقتصاد فى الاعتقاد للإمام الغزالى .

الفصل الثاني

الإيمان بالله

مفهوم الإيمان بالله :

هناك قضيتان ينبغى على العاقل أن يفرق بينهما؛ لأن الخلط فيهما أثار مشكلات كثيرة في عقول الملحدين وبعض المتدينين .

- القضية الأولى : هى قضية وجود الله سبحانه وتعالى .

- القضية الثانية : هى قضية ذات الله وحقيقته .

فالوجود هو صفة من صفات الذات الإلهية معناه التحقيق والثبوت وهو غير الذات؛ لأن الوجود غير الموجود والصفة تغاير الموصوف ضرورة[١].

لكن الوجود ملازم للذات بحيث لا يمكن عقلا تحقيق الذات بدونه . ومن هنا قال المتكلمون: إن الوجود من الصفات النفسية .

فما هو المطلوب من المؤمنين معرفته بالنسبة لله سبحانه؟

وما هو المقصود بالإيمان بالله بالتحديد ؟

والجواب : أن المقصود من الإيمان بالله هو الإقرار بوجوده سبحانه ووصفه بصفات الكمال والجلال التى تليق به وتنزيهه عن صفات النقص والمعايب، ولا يتوقف هذا الإيمان على إدراك ذات الإله وحقيقته،ذلك أن إدراك ذاته أمر فوق طاقة العقل البشرى ولا يستطيع هذا العقل القاصر المحدود أن يصل إلى كنه الإله

---

(١) راجع الموقف الثانى من كتاب المواقف فى الأمور العامة، حيث دار حول هذه المسألة خلاف طويل انتهى فيه الإمام الأشعرى– دون الأشاعرة– إلى أن الوجود عين الذات، وهو رأى منقوص ومخالف لرأى جمهور الأشاعرة، ذلك أن إدراك ذات الله من قبيل المحالات بينما صميم الإيمان هو إدراك وجوده، فلو كان الوجود عين الذات لأدركناهما معاً – ولكننا عاجزون عن إدراك ذات الله وحقيقته.

وحقيقته لأن الله هو الموجود الذى لا حدود له ولا نهاية، ومن كان هذا شأنه فكيف يحيط به العقل المحدود؟(١).

وإذا كان الواقع قد أثبت أن حواس الإنسان محدودة ومتناهية وأنها لا تستطيع أن تعمل إلا في حدودها، فإن العقل يكون كذلك.

فالسمع له حدوده وإمكانياته فهو لا يسمع إلا ما يقع فى نطاقه ولكن لو دق المسموع أو زاد عن حده لما سمع الإنسان .

وكذلك البصر لا يرى إلا فى حدود معينة بحيث لو بعد المرئى عن هذه الحدود أو قرب إلى أقصى درجة لما رآه الإنسان . كما أنه لو زاد الضوء عن حده أو قل عن الحد المقرر لإمكانيات العين لتعذرت الرؤية. فلو أن العين استمرت تنظر إلى نور قوى مثلا فترة معينة لأصابتها حالة كدرة تمنعها من مواصلة الرؤية(٢).

---

(١) وإذا كنا نجهل الكثير من الحقائق الموجودة بيننا الآن مثل: الكهرباء والمغناطيسية والذرة والإلكترون وغيرها من الحقائق التى لا نعلم عن حقيقتها وذاتها شيئاً ونكتفى بمجرد الانتفاع بآثارها ومعرفتها عن طريق هذه الآثار وما ينتج عنها .

أقول: إذاكان هذا شأننا فى الأمور التى نلمسها ونحسها فما بالك بذات الله تبارك وتعالى وحقيقته التى تعجز العقول البشرية عن الإحاطة بها مهما بلغت من العلو والإدراك ، فما بالك إذا كانت العقول محدودة القوة محصورة القدرة.

(٢) وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لا لخفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره، فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره .

وكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية فى نهاية الإشراق والاستنارة، حتى لم يشذ عند ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره سبب خفائه .

ولذلك قيل :

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد   إلا على أكمه لا يعرف القمـــرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا   فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

والعرف هو ضد النكر – والمعنى: أن قوة أدلة وجوده تعالى ووضوحها أدهشت الناظرين حتى كادت تستره عنهم .

فإن الأشياء تستبان بأضدادها وما عم وجوده حتى أنه لا ضد له عسر إدراكه – ولو لم يكن هناك دليل لما أدركنا نور الشمس رغم وضوحها. والله تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأمور كلها فلو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدمت السموات والأرض ولأدركنا بذلك التفرقة بين الحالين– ولكن وجوده دائم ومن هنا كان وضوحه سبب خفائه. راجع ص ١٤ من نحو عقيدة قرآنية : د . سليمان خميس.

وكذلك قل عن العقل فهو محدود مثلها ولا يستطيع أن يعرف عن الله أكثر من إنه إله موجود كامل متصف بكل صفات الكمال والجلال منزه عن كل صفات النقص، ولكنه يعجز تماما عن إدراك كنه الله وذاته لأنه أكبر من طاقته .

وإذا كانت العين تعتريها كدرة تمنعها من مواصلة الرؤية حين يكون المرئى فوق طاقة العين مثل النور القوى- مثلا- فإن العقول تعتريها حيرة تمنعها من مواصلة التفكير فى ذات الله وحقيقته وقد تصل هذه الحيرة بالإنسان إلى الضلال والانحراف، ولذلك يغلق رسول الله ﷺ هذا الباب فيقول: «تفكروا فى مخلوقات الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا» ونقل عن أبى بكر الصديق أنه قال: العجز عن الإدراك إدراك، وقد نقل البيرونى فى كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة) حكمة هندية بمثل هذا المعنى تقول «يكفينا معرفة الموضع الذى يبلغه الشعاع، ولا نحتاج الى ما لا يبلغه، وأن عظم فى ذاته، فما لا يبلغه الشعاع لا يدركه الاحساس، وما لا يحس به فليس بمعلوم ».

وفى العصر الحديث نقل عن جون لوك قوله : «لو بحث الناس - عن قواهم العقلية بحثا جيدا، وكشفوا عن الأفق الذى يفصل بين الأجزاء المضيئة والأجزاء المظلمة وميزوا بين ما يمكن فهمه ومالا يمكن، لاطمئنوا إلى جهلهم فى الجانب المظلم، ورضوا به ، واستخدموا أفكارهم وأبحاثهم فى الجانب الآخر استخداما أنفع وأبعث على الاطمئنان[1] وهكذا يتفق العقلاء قديما وحديثا على أن للعقل حدوداً فيما يتعلق بالله. ولكن ينبغى أن ننبه على أن ما يستطيع العقل أن يعرفه عن الله كاف تماما فى الإيمان به، ذلك أن بعض الملحدين استغلوا هذه النقطة للتشكيك في وجود الله، لأنهم يريدونه إلهاً (مكيفاً) أى له كيف محدود ملموس .

وهؤلاء نقول لهم: عليكم أن تسلموا بقضية وجوده أولا- وبعد إقراركم بالوجود الإلهى نناقش معاً قضية الكيفية .

كما أننا ننبه تنبيها آخر وهو أن النصارى استغلوا هذه النقطة - (نقطة

(١) راجع قصة الإيمان لنديم الجسر ص ١٤٦ .

قصور العقل البشرى عن إدراك ذات الله) - فى وصف الإله بما لا يليق به من الصفات، من الجسمية والتحيز وغير ذلك بحجة أن العقل لا يستطيع أن يحدد كمالاته ولا كيفيته .

يقول القس إلياس مقار : «أوليس من الغريب- كما قال أحدهم - أن يجمع الناس على حقيقة أن الانسان عاجز عن إدراك شخصية الله وأغراضه وفى الوقت نفسه يمكن أن يقال: أن التجسيد يتنافى مع عظمة الله وقدرته، فإذا كنا لا نقدر أن نعرف الله فكيف نعرف أنه لا يمكن أن يعلن عن نفسه بالصورة التى يشاء؟ لقد أعلن الله ذاته فى الضمير وفى الطبيعة وفى الكتاب، ثم أعلن نفسه آخر الأمر فى التجسد الذى هو مجد الإعلانات الإلهية»(١).

وهكذا يخلط هؤلاء بين قضية (كمالات الله) وبين قضية (كيفيته) فالعقل قاصر بالاتفاق عن إدراك كيفيته لأنها فوق طاقته، ولكنه قادر تماما على فهم كمالاته وما يليق به وما لا يليق، ويعلم تماما أن التجسيد لا يليق بكمالات الله التى لا حدود لها، ويعلم أن الإله منزه عن صفات البشر وتكييف البشر .

والخلاصة : أن مفهوم الإيمان بالله ينحصر في التسليم بوجوده سبحانه وتعالى وبوصفه بسائر الصفات التى تليق به وتنزيهه عن النقائص والمعايب، ولا يتوقف الإيمان بالله على إدراك ذات الله سبحانه وتعالى، وليس ذلك حجراً على حرية الفكر والعقل، ولكنه عصمة العقل من التردى فى مهاوى الضلالة وإبعاد له عن معالجة أبحاث لم تتوفر له وسائل بحثها ولا تحتمل قوته علاجها- كما قدمنا عند حديثنا عن حدود المنهج العقلى فى الإسلام(٢) .

---

(١) قضايا المسيحية الكبرى ص ١٣١، وقارن ص ٨١ من كتابنا (مشكلات العقيدة النصرانية) الطبعة الأولى سنة ١٩٨١ .

(٢) يقول ابن خلدون: «العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ماوراء طوره فإن ذلك طمع فطمع أن يزن به الجبال، وهذا لا يدرك على أن الميزان فى أحكامه غير صادق، ولكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وصفاته فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه » .

راجع ص ٣٢٣ من مقدمة ابن خلدون .

وهذه هى طريقة الصالحين من عباد الله العارفين بعظمة ذاته وجلال قدره. فقد سئل الشبلى عن الله تبارك وتعالى فقال: هو الله الواحد الأحد المعروف قبل كل الحدود وقبل كل الحروف .

وقيل ليحيى بن معاذ: أخبرنى عن الله عز وجل، فقال: إله واحد. فقيل له: كيف هو؟ فقال: ملك قادر. فقيل له: أين هو؟ فقال: هو بالمرصاد .

فقال السائل: لم أسألك عن هذا. فقال: ما كان غير هذا هو صفة المخلوق، فأما صفة الخالق فما أخبرتك عنه[1]، أى أن الذى يسأل عن كيفيته وعن مكانه هو المخلوق، وأما الخالق فلا أين له ولا كيفية، وكل ما خطر ببالك، فالله بخلاف ذلك (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير). ويقول الله تعالى: (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما). ولذلك حينما سأل المشركون رسول الله ﷺ عن حقيقة الإله كان جوابه بالصفات (قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) .

وقديماً قال الحكماء: «محال على من يفنى أن يكشف النقاب عمن لا يفنى» .

وهكذا ، فكل ما هو مطلوب منا أن نعلمه عن الله تعالى: «أنه كمال مطلق لا حدود له» ومادام العقل المحدود لا يحيط بالكمال المطلق الذى ليس له حدود، فليس لهذا العقل أن يقول له كيف أنت ولا أين أنت !!

الوجود الإلهى فطرى فى النفس:

خلق الله عباده على معرفته والإقرار بربوبيته وخلقه واستحقاقه وحده للعبادة، وهذا ما تؤكده الآية الكريمة: (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)[2].

كذلك أشار الرسول ﷺ إلي هذه الحقيقة فقال: «إن الله خلق العباد على

---

(١) راجع ص ١٥ من كتاب العقائد للشيخ حسن البنا .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٧٢ .

معرفته حتى جاءت الشياطين فاختالتهم عنها». ومن هنا كان وجود الله فطرى فى النفس البشرية حتي ولو انحرفت عن حقيقة الربوبية والألوهية(١).

بمعنى أنه لا يوجد إنسان على وجه الأرض يجهل أن هناك وراء الكون قوة محركة وخالقة، حتى الملحدين والماديين الذين ينكرون وجود الله بألسنتهم تنطق فطرتهم بإثبات وجود الله .

واسأل ملحداً: من الذى خلق الكون؟ يقول لك: الطاقة والمادة أو الطبيعة .

ثم اسأله مرة ثانية عن صفات المادة والطاقة والطبيعة تجده يخلع عليها صفات الإله من الأزلية، والأبدية، واللاتناهى، والقدرة. وتلك هى فى النهاية صفات الله سبحانه وتعالى مما يؤكد أن النفس البشرية مفطورة على معرفة الله سبحانه وتعالى .

وحينما صعد جاجارين رائد الفضاء الروسى الملحد إلى الفضاء وجاء من رحلته، قابله أعضاء الحزب الشيوعى السوفييتى يقولون له: (لا تقل إنك شاهدت الله) .

وهذا يدل على أن الوجود الإلهى مركوز في فطرهم، فهم رغم الإنكار يعترفون به، لكنهم يظنونه شيئاً محسوساً يمكن أن يدرك بالحس. وراح أعضاء الحزب

---

(١) وقد أشارت كثير من آيات القرآن الكريم إلى فطرية الوجود الإلهى فى النفس البشرية التى تلجأ دائماً إلى الله فى حالات الشدة والمرض والاضطرار ومن هذه الآيات قول الله تعالى: (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) سورة يونس الآية : ١٢

وقوله تعالى : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم، وكان الإنسان كفوراً) سورة الإسراء آية : ٦٧ .

وقوله : (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) سورة الأنعام آية : ٦٣ .

وقوله : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) سورة النمل آية : ٦٢ والواقع يؤيد هذه الآيات ، فالإنسان دائماً سواء كان مؤمناً أو كافراً يلجأ إلى الله فى حالات الشدة ويقول: (يارب) وقد جرت سنة الله أن يجيب المضطر إذا شاء كائناً من كان .

وهذا اللجوء إلى الله يثبت فطرية الوجود الإلهى .

الشيوعي يقولون: إن جاجارين بعد أن دار حول الأرض وعاد، لم يعثر على الله .

وهكذا تؤكد لنا هذه الحادثة فطرية الوجود الإلهى في النفس البشرية، وإلا ما كان هناك داع منهم للتأكد وإعلان الإنكار مرة بعد مرة، فالإنكار دليل الإثبات .

- ومن هنا وجدنا عباد الأصنام يعترفون بهذه الحقيقة بالرغم من عبادتهم لأصنامهم (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله)(١).

وحينما سئلوا عن سر عبادتهم للأصنام لم يجيبوا بأنها آلهة تعبد لذاتها وإنما . قالوا: (ما نعبدها إلا لتقربنا إلي الله زلفى) .

- والملحدون المحدثون وبعض أنصار نظرية التطور لما بحثوا فى أصل الموجودات وارتقوا إلى معرفة البسائط التى تركبت منها الكائنات قالوا: إنه لابد أن يكون لها منشىء أوجدها مجهول الذات. ذو قوة وحياة(٢).

- وفى وسط البيئة الوثنية التى اتخذت الأصنام آلهة لها، وجدنا السيدة خديجة تقول لرسول الله ﷺ قبل أن يكاشفها بحقيقة رسالته- «والله لا يخزيك الله أبدا. إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر».

ففى هذه العبارة التاريخية تظهر لنا بطريقة لا تحتمل الجدل فكرة (فطرية الوجد الإلهى) فمن الذى أدرى خديجة بالإله الذى تتحدث عنه؟ إنها الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

ولقد سئل الفيلسوف الملحد (برتراندرسل) «هل وجدت أن هواية الاشتغال بالرياضيات والفلسفة يمكن أن تحل محل المشاعر الدينية عند الإنسان؟» فأجاب (رسل) قائلا: «نعم لقد وصلت فى سن الأربعين إلى الطمأنينة التى قال عنها

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٦١.

(٢) المصطلحات الأربعة لعبد المتعال الجبرى ص ١٤٥ .

أفلاطون: إنه يمكن الحصول عليها من طريق الرياضيات إنها علم أبدى، حر، لا يقاس بزمان، ولقد حظيت فى هذا العالم بسكينة تشبه تلك التى يحصلون عليها فى الدين[١] .

وهكذا نلاحظ أن هذا الملحد الذى أنكر حقيقة المعبود السماوى لم يستطع الاستغناء عن ضرورة العبادة والخضوع لشىء ما فجاء بالرياضيات والفلسفة وأجلسها فى المقعد المخصص له وحده، بل اضطر أيضا أن يخلع عليها نفس صفات الله من الأبدية والتحررية من أبعاد الزمن .

وهذا ما يؤكد فطرية الوجود الإلهى. ففكرة (الله خالقى وأنا عبده) منقوشة في النفس البشرية وهى ميثاق سرى أخذه الله علي الانسان منذ يومه الأول، وعندما يفتقد إنسان ما هذا الشعور يحس بفراغ عظيم وتعاسة لا حدود لها، وقلق لا يعرف الطمأنينة. ويعبر القرآن عن هذه المعانى بأوجز عبارة فيقول: «كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم».

وتصور إنساناً يعيش دون أن يجد نفسه كيف يكون حاله؟ وهكذا فالفطرة حقيقة أجمع عليها الباحثون والعقلاء، فقد وجدوا الإنسان منذ أقدم العصور يتدين ويتعبد ويؤمن بالله، حتي قال أحد المؤرخين: «لقد وجدت في التاريخ مدن بلا قصور ولا مصانع ولا حصون، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد»[٢].

ومن هنا كانت مهمة الرسل هى المحافظة علي الفطرة من الانحراف وذلك ببيان حقيقة الإله الذى يستحق العبادة.

ولهذا لم يشغل رسل الله بالهم باثبات وجود الله وإقامة الأدلة عليه بل بإثبات وحدانيته في ربوبيته وألوهيته واستحقاق أن يفرد بالعبادة دون غيره. فالوجود الإلهى ظاهر ولا يحتاج إلى دليل، ومن هنا يقول ابن عطاء الله السكندرى: «إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ماليس

(١) الإسلام يتحدى ص ١٥٥ .

(٢) الخصائص العامة ص ١٤ د . يوسف القرضاوى .

لك حتى يكون هو الدليل عليك».

وهكذا فوجود الله تعالى أمر بدهى والاستدلال بالأشياء على وجود الله لا يرمى الى إثبات وجود الله ، لأنه ثابت من قبلها . فالله تعالى هو الذى يشهد على الأشياء وليست الأشياء هى التى تشهد عليه ، فهو الذى يعطى هذا الوجود وما حوى مغزى ومعنى " أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد "(١) .

فوجود الله لا يحتاج إلى اعتبار من خلقه وفعله - وإن كان ذلك دليلا عليه - وإنما يحتاج فقط إلى العودة للفطرة النقية التى فطر الله الإنسان عليها .

لماذا نستدل على وجود الله ؟

إذا كان وجود الله فطرى فى النفس ولا يحتاج إلى دليل، فلماذا أورد الفلاسفة والمتكلمون والعلماء الطبيعيون عشرات الأدلة على وجود الله؟

كما أنه إذا كان وجود الله فطرى، فماهو سبب وجود الملحدين وما هو سبب موجة الإلحاد الحديث فى أوروبا؟.

أما الجواب عن السؤال الأول : فلأن الفطرة قد تنحرف وذلك لأسباب منها:

- اتباع الظن والهوى والشيطان . «ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين» .

- التقليد الجاهل للأجداد والآباء .

- الطاعة العمياء للسادة والكبراء .

- الغفلة واتباع الشهوات والسير وراء الملذات العاجلة(٢) فالغفلة والشهوة هما

---

(١) سورة فصلت آية : ٥٣ .

(٢) راجع جانب الهدم فى القرآن الكريم فى الفصل الخاص بمنهج الاعتقاد فى الإسلام .

أصل الشر لقوله تعالى : «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه، وكان أمره فرطا»(١).

- الغرور والعناد واللجاج .

- حب الدنيا والخوف من عذاب الآخرة.

كل هذه أسباب تدعو إلي انحراف الفطرة وإنكار وجود الله ذلك أن أمل كل مسرف على نفسه وكل عاص ، وكل متبع لهواه وشيطانه أن يحاول جاهداً التشكيك فى وجود الله سبحانه وتعالى لعل نفسه تنخدع ولو كذباً بأنه لا حساب ولا عقاب .

ومن هنا يلجأ المفكرون إلى إثبات وجود الله سبحانه وتعالى بالأدلة والبراهين.

ولا تعارض بين إثبات فطرية وجود الله وبين إثبات الأدلة على وجوده.

فوجود الله يكون فطرى حين تكون النفوس سليمة والأذهان صافية خالية من مبررات الانحراف، وحين تنحرف الفطرة نلجأ إلى الاستدلال لعل النفوس المريضة الغافلة تتذكر ما أقرت به سابقاً.

وأما الجواب عن السؤال الثانى:

وهو السبب في موجة الإلحاد الحديثة فى أوروبا ، فهو راجع الى ظروف خاصة بالديانة النصرانية حيث انحرفت من التوحيد الى الشرك وتأليه البشر، وفرضت الكنيسة على الناس منذ طفولتهم الإيمان بإله هو فى الوقت ذاته إنسان وبشر وهو عيسى عليه السلام .

وهذه فكرة قد يسلم بها الطفل فى صغره، أو يسلم بها الذين يلغون عقولهم عن التفكير، ولكن ما إن يكبر الطفل ويبدأ فى تعقل هذه العقيدة حتى يوقن تماما أنها مستحيلة التحقيق والتعقل، فكيف يكون الإله الذى خلق السموات والأرض هو

---

(١) الكهف آية : ٢٨ .

عيسى البشر الذى كان يسير بين الناس فى بيت لحم وناصرة وأورشليم .

الرجل الذى كان يأكل ويشرب وينام؟

ومن هنا تخلص معظم الفلاسفة والمفكرين والعقلاء فى أوروبا من فكرة الإيمان بإله الكتاب المقدس ووصل بهم الأمر إلى نبذ فكرة وجود الله كلية .

وهاهو إنجلز - مؤسس الفلسفة الشيوعية مع ماركس - الذى كان شغوفاً بالدين وكان يقضى وقتاً طويلا فى الكنيسة ولكنه بعد أن كبر واتسعت مداركه لم يعد عقله يطيق الإيمان بإله النصرانية، وقد كتب أحوال هذه الفترة فى خطاب إلى أحد أصدقائه فقال :

إننى أدعو كل يوم ، وأقضى اليوم كله داعياً أن تنكشف لى الحقيقة، لقد أصبح الدعاء هوايتى، منذ وجدت الشكوك طريقها إلى قلبى، إننى لا أستطيع أن أقبل عقائدكم، إن قلبى يفيض بالدموع الغزيرة وأنا أكتب هذه السطور، قلبى يبكى، عينى تبكى ولكننى أشعر أننى لست بطريد من رحمة الله. بل آمل أن أصل إلى الله الذى أتمنى رؤيته بكل قلبى وروحى، وأقسم بحياتى أن عشقى وبحثى هو لمحة من روح القدس، ولن أقلع عن تفكيرى هذا ولو كذبه الإنجيل المقدس عشرة آلاف مرة[1].

وهكذا نلاحظ من خلال كلام إنجلز أن الذى دفعه إلى الشك فى وجود إله الكتاب المقدس هو عدم القدرة على تعقله كما نلاحظ لمحة فطرية لا تخفى فى كلام إنجلز فمع أنه أنكر وجود إله النصارى إلا أنه يحاول البحث عن الإله الحقيقى الذى فطرت نفسه عليه .

ويعبر العالم الطبيعى (چورچ إيرل داميز) عن حالات الصراع التى انتابته بين الإيمان بإله المسيحية الذى لا يتصوره عقل، وبين مقتضيات العقل الصحيح فيقول: «وينبغى أن نفرق فى هذا المقام بين معارضة الدين أو الخروج عليه وبين الإلحاد. وأن نعترف بأن من يخرج على بعض الأفكار التقليدية التى ينطوى عليها

---

(١) الإسلام يتحدى ص ١٥٤ .

دين من الأديان لكى يؤمن بوجود إله قوى كبير لا يجوز أن نعده بسبب ذلك ملحداً، فمثل هذا الشخص قد يكون غير معتنق لدين من الأديان ولكنه يؤمن بالله وقد يكون إيمانه هذا بالله تعالى قائماً على أساس متين»(١).

وهكذا يؤكد لنا هذا العالم أن فكرة المسيحية عن الله هى التى جعلت العقلاء يرفضون وجود الله، ومنهم من راح يبحث عن إله قوى كبير- حسب تعبير جورج إيرل- بدلا من هذا الإله البشرى الذى تدعيه النصرانية المحرفة .

ولذلك نجد أن معظم الملحدين الذين عادوا إلى إيمانهم أكدوا على أن الإله الجديد ليس هو إله الكتاب المقدس .

يقول : «دونالا روبرت كار» : عندما طلب إلينا أن نبين الأسباب التى تدعونا إلى الإيمان بالله.. نستطيع أن نجد فى بحوثنا العلمية ما يدعونا بقوة إلى الإيمان به ولو أنه ليس من الضرورى أن يكون هو نفس إله الكتاب المقدس(١) .

كذلك كانت تصرفات القساوسة ورجال الدين و مفاسد هم الأخلاقية وجشعهم وحبهم للمال من العوامل الهامة التى جعلت بعض المفكرين يفقدون الثقة فيهم و فى عقائدهم، و من هنا ظهرت موجات الإلحاد في أوروبا و قد و صل الأمر إلى أن بعض المنظمات و الدول قد اتخذت من الإلحاد أيديولوجية لها و قامت بإشاعته وحمايته كما صنعت روسيا والدول الاشتراكية التى تدور في فلكها، حيث حاولت إلغاء فكرة وجود الله كلية.

و من هنا نلاحظ أن الإلحاد نشأ (في أوروبا) لأسباب بعيدة عن طبيعة الدين كدين. فلو أن النصرانية استمرت كما هي ديانة توحيد و تنزيه كمانزلت على عيسى، لما حدث هذا الانفصام بين العقل والإيمان ، و لكن حين التوت هذه العقيدة وانحرفت عن منهج السماء حدث ما حدث.

ولو أن المفكرين الغربيين قد بحثوا عن عقيدة سماوية أخرى مثل الإسلام

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٣٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٤ وقارن ص ٧٨ أيضا .

لوصـــلوا إلى الاله الحقيقى .. ولكن دفعهم الحقد والغضب إلى إنكار وجود الله كلية.

وسوف نحاول فيما يأتى أن نزيد الأمر وضوحاً حيث نبين التفسير النفسى لظاهرة الإلحاد.

النفسير النفسى لظاهرة الإلحاد

قلنا : إن الإيمان بالله طبيعة للنفس البشرية فهو غذاء الروح وهى تجوع كما يجوع الجسد تماماً. والانسان لا يستطيع أن يستقر فى هذا العالم بغير إيمان، فهو لازم لوجوده، ومن هنا كان الإلحاد مرضاً نفسيا وشذوذاً لأنه مناقض لطبيعة تكوين الإنسان مما يؤدى إلى الخلل فى كيانه .

فالإيمان ظاهرة طبيعية فى هذه الحياة . ومن هنا كان الإنسان الملحد إنساناً غير طبيعي بما نلاحظه على فكره من الحيرة واليأس والانعزال، فالملحد بفكره يمثل شذوذاً فكريا وخروجا على إجماع العقلاء .

فهل يعقل أن يتفق الفلاسفة قديماً وحديثاً. والعلماء التجريبيون بمختلف تخصصاتهم: الأطباء وعلماء الطبيعة، وعلماء الفلك ، والنفس فضلا عن رجال الدين- هل يجمع كل هؤلاء على خيال أو ضلال؟ كلا. فهذا الإجماع من العقلاء لا يمكن أن يكون إلا على حق ولا يمكن أن يكون إجماعهم مصادفة أو اتفاقاً.

وهذا ما يؤكد لنا الشذوذ الفكري لهؤلاء الملحدين الذين ضللوا ضعاف العقل والعقيدة فساروا (وراءهم) من باب المخالفة للإجماع وحب الظهور ولفت الأنظار، وبذلك يكونون مرضى نفسانيين يحتاجون إلى المعالجة أولا- قبل المناقشة، ولو أنك راجعت تاريخ هؤلاء الملحدين الكبار مثل:

ماركس ونيتشه وداروين وفرويد - لوجدت أنه وراء كل واحد منهم قصة عجيبة هى التى أوصلته إلى ما وصل إليه(١).

(١) معظم الملحدين تعرضوا لبعض مظاهر الابتلاء والاختبار الإلهى. والذى تصوروه على أنه ظلم من الأقدار، وقسوة من الدنيا عليهم، فعاشوا فى دوامات من القلق والشك والحيرة، وشعروا بالضياع حين لم يستسلموا لقدر الله ففاضت قلوبهم بالحقد والحسد على خالق هذا الكون حتي أنكروه وادعوا أن الكون مخلوق بالمصادفة .

ذلك أن الشك والحيرة والقلق هى المقدمة الحتمية للإلحاد إن لم يكن هناك صمام للأمان هو الإيمان بقضاء الله وقدره «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» .

فالأمن هو صمام الأمان النفسى إزاء كل محاولات التمزق والشك والصراع والقلق والضياع التى سقط فى هوتها الملحدون مع أنهم كانوا مؤمنين فى بداية حياتهم وبعضهم كان من أسر القساوسة

ومن هنا مثل فكرهم شذوذاً فكريا بالنسبة إلى إجماع المفكرين المعتدلين .

ولا أدرى ماذا نسمى هؤلاء ؟

هل نسميهم علماء ؟ كلا . لا يمكن أن نطلق عليهم هذا الاسم ، فالعلم يدعو إلى الإيمان ويثبت وجود الله سبحانه وتعالى والعلماء الحقيقيون أثبتوا ذلك .

هل هم فلاسفة ؟

كلا ، إن الفلاسفة الحقيقيين أثبتوا وجود الله سبحانه وتعالى بعشرات البراهين قديما وحديثا .

من هؤلاء ؟

رجال لا ينطبق عليهم اسم العلماء ولا اسم الفلاسفة ولا اسم رجال الدين بالطبع ؟

فبماذا نسميهم ؟

لا مفر من التسمية الحقيقية، إنهم مجانين يحتاجون إلى العلاج النفسى حتى تزول عنهم أعراض المرض؟ وهنا سوف يعودون هم ومن ضللوهم إلى طريق العلم والدين والفلسفة (الإيمان بوجود الله تعالى) .

فكل ما عند هؤلاء وساوس وأمراض نفسية وشياطين تصدهم دائماً عن سبيل الحق وتهيىء لهم أنهم على الحق ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحالة أصدق تعبير حين قال: « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهوله قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون»(١) .

وفى آية أخرى يعبر القرآن عن الحالة النفسية التى يعيشها الملحدون حالة الضيق والخوف والقلق فيقول: «فمن يرد الله أن يهد يه يشرح صدره للإسلام ومن

---

(١) سورة الزخرف : آية ٣٦ ، ٣٧ .

يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون)[١].

وهكذ تعبر هذه الآيات الكريمة فى صدق عن الحالة التى يعيشها الملحد وهى حالة القلق الرهيب الذى يؤرقه دائماً ويخيفه رغم نجاحه المادى ووصوله إلى أرقى أساليب التكنولوجيا الحديثة، وهذا ما أيده الواقع العملى، فقد ثبت أن أعلى نسبة للانتحار والجنون هى فى أكثر دول العالم تقدما من الناحية المادية، وذلك أن الماديين رغم هذا النجاح والتقدم المادى يعيشون فى قلق رهيب لأنهم لم يحققوا الانسجام بين أنفسهم وبين الكون وذلك لا يكون إلا بالإيمان بالله واتباع منهجه، وهذا ما أكده أطباء الأمراض النفسية والعصبية، فقد أكد معظمهم عل أن العلاج بالعقاقير والتحليل النفسى لا يفيد إلا إذا قام الطبيب بالمعالجة بطريق آخر أساسى وهو: بث الإيمان بالله فى نفوس المرضى .

ذلك أن الأمراض النفسية هى :

- الشعور بالإثم والخطيئة والحقد والخوف، والقلق والكبت، والتردد والشك، والأثرةوالسأم.

وكل هذه الأسباب إنما جاء الدين ، أساسا لتحرير الإنسان منها .

ففى فتح باب المغفرة والتوبة للعباد قضاء على مرض الشعور بالإثم والخطيئة (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم)[٢] .

- وفى دعوة الأديان إلى المحبة سبب فى القضاء على أمراض الحقد والحسد والغيرةوالأثرة .

---

(١) سورة الأنعام - الآية : ١٢٥ . وقد أثبت العلم الحديث بعد أن طار الإنسان فى الفضاء - أن الصعود فى الجو يصحبه ضيق فى الصدر يصل به إلى حالة الاختناق، ولذلك يأخذ رواد الفضاء معهم أجهزة الأوكسجين التى تمكنهم من التنفس، وهذا إعجاز قرآنى حيث أخبر القرآن عن هذا الاكتشاف منذ أربعة عشر قرناً من الزمان .

(٢) سورة الزمر : الآية ٥٢ .

وفى الإيمان بقضاء الله وقدره قضاء على أمراض القلق والتردد .

- وفى الإيمان بالبعث والحياة الآخرة فتح لباب الأمل أمام الإنسان حيث يحصل فى الآخرة مالم يحصله فى الدنيا .

وجدير بالذكر أن نسجل هنا أن الأمراض البدنية الخطيرة مثل: قرحة للمعدة، والذبحة الصدرية. قد يكون من أسبابها الأمراض النفسية والعصبية مما يؤكد لنا أن الإنسان إنما يكون على أفضل ما يمكن بدنياً ونفسياً عندما تقوى صلته بالله .

ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله : «فى القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال علي الله».

وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله .

وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته .

وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه ، والفرار إليه .

وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه .

وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره وصدق الإخلاص له .، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تُسد تلك الفاقة أبدا».

وسوف نحاول الآن أن نبين أن العلم والدين لا يتعارضان فى قضية وجود الله حتى نبين الشذوذ الفكري لبعض مدعى العلم الذين حاولوا إثبات التعارض بين الدين والعلم .

---

(١) راجع كتاب مدارج السالكين لابن القيم .

العلم الحقيقى لا يتصادم مع الإيمان بالله

لا خلاف بين الدين والعلم الحقيقى فى قضية وجود الله سبحانه وتعالى، وإذا سمعت يوما عن خلاف بين الدين والعلم، فاعلم أن الخلاف لم يأت من الدين كدين ولا من العلم كعلم ولكنه أتى من رجال العلم لا من العلم[١] . وأن أساس هذا الخلاف ليس من العلم فى شيء، ولكنه من بعض مدعى العلم الذين لم يسايروا المنهج العلمي الصحيح حتى النهاية، أو بعض هؤلاء الذين أرادوا الشهرة والعظمة بنظريات لا علمية يدعون أنها علمية وهم أول من يعلم أنها لا أساس لها من العلم الحقيقى وهذا ما أكده العلماء الحقيقيون فكلهم أكدوا أن كل كشف جديد في العلم يقربهم من وجود الله سبحانه ويزيد من إيمانهم به .

وما أتى الإلحاد إلا من أنصاف العلماء الذين لم يتعمقوا فى العلم حتى النهاية بل اعتمدوا على الظواهر والأسباب المبعثرة دون محاولة منهم للتعمق والتتبع والاستقصاء لهذه الأسباب والمسببات. حتى يصلوا إلى مسببها الأول .

وهكذا صنعوا كما تصنع النعامة التي تدفن رأسها فى التراب متجاهلة الصياد رغم وجوده .

فالإله حقيقة واقعة وكل الشواهد العلمية والعقلية تثبت وجوده ولكن هؤلاء

---

(١) راجع كتاب الإيمان والمعرفة والفلسفة ص ١١ وما بعدها ، ويلاحظ أن معظم أسباب الخلاف بين الدين والعلم فى أوروبا أتت من رجال العلم ومحاولات التسابق بينهما إلى السلطة والحكم – وقد كانت السلطة بين الكنيسة ورجال الدين وكانوا هم الحكام فى العصور الوسطى وبدايات عصر النهضة، وحينما بدأ العلم التجريبى فى الظهور بدأت المعركة بينهما وقد انتهت بانتقال السلطة من رجال الدين إلى العلماء الذين راحوا يهدمون أساس الدين بفكرة إنكار وجود الله حتى تنتهى إلى الأبد سلطة رجال الكنيسة .

وراح العلماء يفضحون رجال الكنيسة ويبينون مساوئهم ومخازيهم ويقولون: إن أولئك الذين يتظاهرون بالورع والتقوى وبالزهد فى الدنيا وغرور متاعها ، أكثر الناس رذائل وخطايا وأحرصهم على اكتناز الأموال، وراحوا يشيرون إلي هذه الأموال الكثيرة المرصودة على الكنائس والتى يتخذها رجال الدين وسيلة إلى ملذاتهم واشباع شهواتهم ، وكانت هذه الفضائح كافية لرواج الفكر الالحادى دون أن يميز العامة وبعض العلماء بين الدين كدين وبين رجال الدين وهم فى الواقع ليسوا حجة على الدين .

وعلى أى حال فقدكان الصراع بين الدين والعلم فى أوروبا صراعاً على السلطات والحكم .

الملحدين الذين يدعون العلم، ليسوا بعلماء في واقع الأمر؛ لأنهم لم يسيروا في طريق العلم حتى النهاية وإنما وقفوا في منتصف الطريق .

وإذا كان فرنسيس بيكون يقول «إن القليل من الفلسفة يميل بعقل الإنسان إلي الإلحاد ولكن التعمق فيها ينتهي بالعقول إلى الإيمان[١]، فإننا نكرر العبارة بصورة أخرى فنقول: «إن القليل من العلم يؤدي بالإنسان إلى الإلحاد ولكن التعمق فيه والسير معه حتى نهاية الشوط يصل بالإنسان إلى الإيمان الذي لا يقبل الشك».

يقول (إدوارد لوثر كيسيل) وكان رئيساً لقسم الأحياء بجامعة سان فرانسيسكو، وإخصائي في علم الحيوان والحشرات، وحاصل علي درجة الدكتوراه في علوم الأحياء .

يقول هذا العالم : «كلما استرسلت في دراستي للطبيعة والكون ازداد اقتناعي وقوي إيماني (...) فالعمليات والظواهر التي تهتم العلوم بدراستها ليست إلا مظاهر وآيات بينات على وجود الخالق المبدع لهذا الكون»[٢] .

ويقول (وولتر أوسكار) عالم الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية: «للعالم المشتغل بالبحوث العلمية ميزة على غيره، إذا استطاع أن يستخدم هذه الميزة في إدراك الحقيقة حول وجود الله، فالمبادئ الأساسية التي تستند اليها الطريقة العلمية التي يجري بحوثه على مقتضاها هي ذاتها دليل على وجود الله»[٣].

كذلك يقول العالم الطبيعي أوليفروندل: «كلما تقدمت العلوم ضاقت بينها وبين الدين شقة الخلاف، فالفهم الحقيقي للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله»[٤] .

وهكذا يؤكد لنا العلماء الحقيقيون أن المنهج العلمي يثبت وجود الله، وأن

---

(١) قصة الفلسفة الحديثة ص ٥٩ ..
(٢) الله يتجلى في عصر العلم .
(٣) السابق ص ٣١ .
(٤) السابق ص ٥٢ .

تفاصيل وأبحاث العلوم الطبيعية والفسيولوجية وغيرها تثبت وجود الله.

وهذا ما قرره (البرت ماكومب) عميد أكاديمية العلوم بفلوريدا- وهو يحكى قصته مع الدين والعلم فيقول :

عندما قررت أن أدرس العلوم أخذتنى إحدى عماتى جانباً وتوسلت إلى أن أعدل عن هذاالقرار؛ لأن العلوم- كما كانت تعتقد- سوف تقضى على إيمانى بالله، لقد كانت تعتقد كما يعتقد الكثيرون أن العلوم والدين قوتان متعارضتان، وأنهما لا يمكن أن يجتمعا فى قلب رجل واحد، وإننى لأشعر بالغبطة تملأ قلبى اليوم بعد أن درست العلوم المختلفة، واشتغلت بها سنوات عديدة، ولم يكن فى ذلك ما يزعزع إيمانى بالله، بل إن اشتغالى بالعلوم قد دعم إيمانى بالله حتي صار أشد قوة وأمتن أساساً مما كان عليه من قبل، ذلك أن العلوم تزيد الإنسان تبصراً بقدرة الله وجلاله، وكلما اكتشف الإنسان جديداً فى دائرة بحثه زاد إيمانه بالله[1].

وعلى هذا فإذا ما جاءنا من يدعى أن العلم لا يدعو إلى الإيمان فإننا نقول له بكل ثقة (أنت غير عالم وإنما مدعى علم أو أخذت من العلم القشور والظواهر وتركت الجواهر والأسس الحقيقية التى لا يكون العالم عالما إلا بها فالعلم براء من هذا التعطيل الذى يشل العقول ويفقدها شجاعة الاعتقاد، فإذا جاز للعالم أن ينكر فإنما يجوز له ذلك بحجة واحدة وهى: أنه يجهل وليس أنه يعلم، ومن الجهل لا من العلم أن نجعل الجهل مرجعاً للوجود من أعلاه إلى أدناه فليقل (العالم) أنه يجهل لأن الأمر أكبر من أن يعرفه ويحيط بحدوده، ولكن هذا الأمر موجود لاشك فيه[2]، وسواء اعترف به أم لم يعترف) .

والواقع أن الموضوعيين من الماديين يعترفون صراحة بجهلهم، يقول أحدهم: «فى الواقع علينا أن نعترف بكل تواضع بجهلنا حول كل ما يتعلق بمشكلة المصدر الأول للكون، عندما تسألنى ما علة وجود المادة الأولى؟ فأن أقصى ما أستطيع

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٥.
(٢) العقاد - الله ص ٢٩٠ .

الإجابة به : لا أعرف إلا أنها غير معلولة الوجود.. ليس من العيب أن نعترف بجهلنا[١].

فإذا كانت المسألة كلها اعتراف بالجهل فكيف جعلوها فلسفة وعلماً ومنهجاً؟ ولماذا لا ينزعون عن جهلهم ويأخذون العلم من العلماء الحقيقيين .

وسوف نحاول الآن أن نفصل أدلة العلم على وجود الله سبحانه وتعالى.

---

(١) د / صادق العظمة – نقد الفكر الدينى ص ٢٩ .

أدلة وجود الله

لقد ذكر المتكلمون والفلاسفة عشرات الأدلة على وجود الله سبحانه .

ومنها : دليل الحدوث ودليل الإمكان ، ودليل الغائية، والأدلة الطبيعية والأدلة القرآنية. وغير ذلك من أنواع الأدلة التى تصلح لإقناع أى إنسان موضوعى يريد أن يصل إلى الحق فى قضية الألوهية .

غير أن العلم الحديث قد أضاف خلال القرن العشرين أدلة جديدة على وجود الله زيادة على الأدلة الفلسفية والكلامية، أو قل: حاول العلم الحديث أن يعبر عن الأدلة القديمة بأساليب العلم الحديث، فدليل الحدوث(١) هو هو، ودليل العناية والغائية هو هو ، من حيث الاسم والمعنى ولكن الجديد هوالاستدلال على مقدمات هذه الأدلة حيث حاول العلم الحديث أن يثبتها إثباتا علميا تجريبيا مناسبا لأساليب الإلحاد العلمى المعاصر. وسوف أتجاوز الصياغات القديمة لهذه الأدلة وأركز على الصياغات العلمية الحديثة لسببين:

الأول : أن الصياغات القديمة لم تعد تواكب أفكار الملحدين المعاصرين الذين لا يريدون أن يقتنعوا بها، ومن هنا كان علينا أن نخاطبهم بأسلوبهم حتى نزيل الغشاوة من على قلوبهم .

الثانى – أن هذه الأدلة الجديدة سوف تضاعف يقين المؤمنين بالله، وسوف يزدادون إيمانا على إيمانهم .

وسوف أبدأ أولا بالحديث عن :

– دليل الحدوث .

– ثم دليل العناية الغائية والنظام .

ومن خلالهما سوف أناقش النظريات الإلحادية مثل نظرية التطور ونظرية المصادفة. وبعض المشاكل المنهجية والأخطاء التى وقع فيها دعاة المنهج العلمى .

ونبدأ الآن ببيان دليل الحدوث .

---

(١) دليل الحدوث : هو الطريقة القديمة فى الاستدلال على وجود الله لكن العلوم الحديثة جعلته أشد بيانا وأقوى حجة منه فى أى وقت مضى . .

دليل الحدوث

من أعقد المشاكل الدينية والفلسفية والعلمية مشكلة القدم والحدوث بالنسبة للعالم، ولقد ظل المتكلمون والفلاسفة فى حوار وجدل امتد عشرات القرون، وكل واحد منهم معتصم بأدلته ويحاول أن يلزم خصمه ما يلزم فكرته من صفات لا تليق بالله، حتى توقف بعض الفلاسفة فى هذه المشكلة وقالوا: إن الأدلة متكافئة بالنسبة للفلاسفة والمتكلمين .

وهكذا تقرأ فى كتب علم الكلام «القديمة» مناقشات ومناقشات حول قضية القدم والحدوث، وقد لا تصل إلى رأى قاطع لو راعيت ما يلزم على الرأيين من إلزامات .

وجاء العلم الحديث لكى يحسم القضية بالبراهين التى أثبتها المنهج العلمى مما يجعلنا نتجاوز كل هذه المناقشات القديمة التى وردت في كتب علم الكلام لكى نركز جهودنا على البراهين العلمية والتجريبية على حدوث العالم. وذلك نظراً لأن الإلحاد العلمى يتبنى قضية القدم والأزلية ويحاول أن يجعلها سنده فى إنكار وجود الله. ومن هنا لا يكون منطقياً أن نواجه الملحدين المعاصرين بالبراهين القديمة التى دارت حول الجواهر والأعراض والكمون والظهور وغير ذلك .

إذاً فلابد أن نواجههم بأساليبهم وبمنطق العلم الذى يدعون الانتساب إليه، فما هو برهان الحدوث؟ وماهى البراهين العلمية عليه؟

ومضمون برهان الحدوث هو:

أن العالم - وهو ما سوى الله - حادث- أى موجود بعد العدم- وكل حادث لابد له من محدث وهذا المحدث لا يمكن أن يكون شيئا آخر سوى الله سبحانه .

وما نريد أن نثبته هنا : هوالاستدلال على هذه المقدمات استدلالا علميا تجريبيا :

المقدمة الأولى « العالم الحادث »

مع بداية القرن العشرين اكتشف العلماء « القانون الثانى للحرارة الديناميكية» وهو قانون «الطاقة المتاحة» الذى أثبت بما لا يدع مجالا للشك - أن العالم حادث- فقد أثبت هذا القانون : أن الحرارة تنتقل دائماً من (وجود حرارى) إلى (عدم حرارى) والعكس غير ممكن وهو أن تنتقل هذه الحرارة من (وجود حرارى قليل) أو (وجود حرارى عدم) إلى (وجود حرارى أكثر) .

وبناء على هذا الكشف العلمى الهام فإن (عدم كفاءة عمل الكون) تزداد يوما بعد يوم ولابد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات وحينذاك لا تبق هناك طاقة مفيدة (للحياة والعمل) وسوف تنتهى الحياة.

وبما أن الحياة قائمة والطاقة موجودة فإن العالم حادث لأنه لو كان أزلياً لكانت الطاقة قد انتهت منذ أزمان طويلة .

يقول السير جيمس: «تؤمن العلوم الحديثة بأن عملية تغير الحرارة سوف تستمر حتى تنتهى طاقاتها كلية ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها: لأنه لو حدث شيء مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض حتى نفكر فيها . إن هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن، ومن ثم لابد لها من بداية، ولابد أنه قد حدثت عملية فى الكون يمكن أن نسميها (خلقا فى وقت ما) «الحدوث» حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزليا(١).

كذلك يشير فرانك ألن - عالم الطبيعة البيولوجية(٢) إلى أن : قوانين الديناميكا الحرارية تدل علي أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هى الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى

---

(١) راجع ص ٥٠ من كتاب الإسلام يتحدى - وحيد الدين خان .

(٢) حاصل على الدكتوراه فى الطبيعة البيولوجية، وكان أستاذاً للطبيعة بجامعة مانيتيا بكندا حتى سنة ١٩٤٤ .

الصفر المطلق بمضى الوقت ، أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة فهو إذاً حدث من الأحداث»(١).

وهكذا تؤكد لنا قوانين العلم الحديث خطأ رأى القائلين بقدم العالم وأزليته، حيث أكدت قوانين (الديناميكا الحرارية) أن الانتقال الحرارى مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، وأنه لا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية، بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة، ومعنى ذلك: أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة، ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية، ومعنى ذلك انتهاء الحياة .

ولكن بما أن الحياة لاتزال قائمة، ولاتزال العمليات الكيماوية والطبيعية تسير فى طريقها ، فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط فى الوجود .

وهكذا يثبت العلم أن لهذا الكون بداية .

بل لقد أثبت العلم الحديث قضية الحدوث بما هو أكثر من ذلك، حيث حدد الزمان الذى وجد فيه الكون وأثبت أن الكون بدأ دفعة واحدة منذ خمسة بلايين سنة.

يقول رونالد روبرت - أستاذ الكيمياء الجيولوجية : لقد تمكنا من تحديد عمر التكوينات الجيولوجية باستخدام العلاقات الإشعاعية. وهناك طرق كثيرة نستخدمها لتقدير عمر الأرض، ولكن نتائج هذه الطرق تشير كلها إلى أن الكون قد نشأ من نحو خمسة بلايين سنة، وعلى ذلك فإن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا، ولو كان كذلك لما بقيت فيه أى عناصر إشعاعية(٢) .

وهنا نلاحظ أن العلم التجريبى جاء متوافقا مع آيات القرآن الكريم التى أكدت الخلق: (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٦.
(٢) السابق ص ٨٥ .

ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم)(١)

وكذلك جاءت نظريات العلم الحديث متوافقة مع أحاديث الرسول ﷺ التى أكدت الحدوث(٢) «كان الله ولا عالم ثم كان ومعه العالم» .

ولكن إذا كان العلم الحديث قد أثبت حدوث العالم، فما حقيقة المبدأ الذى يردده البعض - بلا وعى - وهو مبدأ: «أن المادة لا توجد من عدم ولا تصير إلى عدم» هذا ما سنحاول توضيحه فيما يأتى :

مبدأ المادة لا تفنى ولا تستحدث :

ويعرف هذا المبدأ بمبدأ بقاء المادة ، وكان (لافوازيه) عالم الكيمياء- هو أول من حدد صيغته وجعله أساساً لعلم الكيمياء، والمراد به أن مقدار المادة فى الكون ثابت لا يقبل التجدد أو الفناء(٣) .

غير أن هذا المبدأ قد فقد أهميته فى تفسير - أزلية الكون - بعد أن أثبت العلم الحديث فناء كثير من المواد وخصوصاً المواد ذات الطاقة الإشعاعية، كالراديوم ، والاورانيوم ، حيث ثبت أن ذرات هاتين المادتين تتحطم بطريقة طبيعية وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة ، وعلى ذلك فإن المادة لايمكن أن تكون أبدية وبالتالى يستحيل أن تكون أزلية قديمة ، وتدل الشواهد من الكيمياء أيضا وغيرها من علوم الجيولوجيا أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل

(١) سورة فصلت الآيات من ٩-١٢.
(٢) راجع ماسبق «تاريخ علم العقيدة فى عصر الرسول ﷺ » .
(٣) د . محمود قاسم - المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٣٥٩ .

وجدت بصورة فجائية [١] ، وقد قام العلم بتحديد الزمان الذى نشأت فيه المادة ووجدت من العدم مما يبطل مبدأ لافوازيه .

كذلك ظهر مبدأ علمى آخر يحطم مبدأ لافوازيه ، وهو مبدأ تدهور الطاقة، الذى حدده «كارنون» ومعناه : أن الطاقة تتدهور فى أثناء تحولاتها العديدة ، وتتم هذه التحولات فى اتجاه معين ولا يمكن أن تتحق فى الاتجاه العكسى، فمثلا : يمكن أن تنتقل كمية حرارية بأكملها من جسم حار إلى جسم بارد، وليس العكس ممكناً .

كذلك لا يمكن تحويل طاقة حرارية بأكملها إلى طاقة حركية، إذ يفقد جزء من الحرارة إما عن طريق الإشعاع ، وإما بتسربه إلى بعض المواد الموصلة للحرارة كالمعادن، ويترتب على هذا أن الطاقة آخذة فى النقصان التدريجى غير الملموس[٢] .

وهكذا يتبين لنا أن الطاقة والمادة فى فناء مستمر، وأنها ذاهبة إلى النفاد فقد قال الماديون: إن المادة فى التحليل الأخير إنما تؤول إلى نوع من الطاقة[٣] مما يؤكد أن فناء الطاقة وتدهورها يؤكد فناء المادة وعدمها . فلو كانت أزلية لنفدت حتما، إذاً فهى حادثة ومبدأ قدمها متهافت بقوانين العلم فضلا عن قوانين الله التى أخبرنا بها عن طريق وحيه، فقد أكدت كل الأديان السماوية أن العالم حادث .

ففى سفر التكوين نجد هذه العبارة التى تثبت حدوث العالم : «وقال الله ليكن نور فكان نور»[٤] .

---

(١) الله يتجلى ص ٢٥، وراجع «حول إيدلوجيات استشراقية ومادية» لصديقنا الدكتور محمود عبدالمعطى بركات – حيث لاحظ التعارض بين هذا المبدأ ومبدأ القصور الذاتى ص ٨٨ .

(٢) د . محمود قاسم – المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٣٦٠ ، وقارن ص ٣٦ وما بعدها من مقدمة ميزان العمل د . سليمان دنيا .

(٣) مالك بن نبى – الظاهرة القرآنية ص ٢٣٥ .

(٤) سفر التكوين الإصحاح الأول فقرة ٤ .

وفى الإنجيل : «لقد خلق الله فى البداية السموات والأرض » .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تثبت الخلق والوجود بعد العدم مما يؤكد لنا أنه لا تصادم بين الدين وبين العلم الصحيح ولا يقع التصادم إلا حينما ينحرف العلم عن طريق الصواب !

إلى هنا نكون قد انتهينا من إثبات المقدمة الأولى فى برهان الحدوث .

وهانحن الآن ننتقل إلى إثبات المقدمة الثانية .

المقدمة الثانية

(كل حادث لابد له من محدث)

وأما هذه المقدمة فهى بدهية فطرية فى النفس البشرية حتى أننا لو ضربنا طفلا من الخلف ثم سأل من الذى ضربنى؟ فقلنا له : إن الضربة حدثت بدون ضارب لما صدق ، لأن العقل الإنسانى مفطور على قانون التعليل والسببية، ومن هنا لا يستطيع أى عاقل أن يشكك فيه ، كما لا يستطيع عالم تجريبى أن يخرج عليه - إذا أراد أن يكون عالماً وعاقلاً - وهذا ما يعترف به عالم الفسيولوجيا الشهير الدكتور (إيفى) : «إن رجل العلوم يجرى بحوثه على أساس مبدأ السببية، مبدأ السبب والنتيجة ، على أساس وحدة الكون وما يسوده من القانون والنظام وهو كأى إنسان آخر يتخذ كل قرار ويفكر فى كل أمر على أساس الإيمان بمبدأ السببية» .

ثم يقول بعد ذلك : «إن أحداً لا يستطيع أن يثبت خطأ قانون السببية فبدونه تنعدم جميع الأشياء الحية، والعقل البشرى لا يستطيع أن يعمل إلا على أساس السببية»(١) .

ويقول العلماء الماديون : « إن العلاقات السببية تتسم بطابع الشمول والعموم، فكل ظواهر العالم وكل المقبولات تنشأ فى أعقاب تأثير السبب ولا وجود لظواهر من دون أسباب، وقد لا نعلم حتى الآن أسباب بعض الظواهر إلا أن هذه الأسباب موجودة موضوعياً، فالطب مثلا لم يتمكن بعد من معرفة سبب الأمراض السرطانية إلا أن هذا السبب قائم»(٢) .

وهكذا يعترف الماديون بقانون السببية والتعليل فهو أساس العلوم جميعا .

فما هو السبب الذى أحدث العالم وأوجده من العدم ؟ هناك مجموعة من

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) ستالين - المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ١٩٠ - دمشق .

الاحتمالات والفروض :

الفـرض الأول : أن يكون العالم قد أوجد نفسه بنفسه .

الفرض الثانى : أن يكون العدم هو الذى أوجده .

الفرض الثالث : أن يكون قد أوجده موجد آخر غيرمخلوق ولا حادث وهو الله سبحانه وتعالى .

وعندما نحقق الفرض الأول : نلاحظ أنه مستحيل الوقوع بداهة بحكم قانون التعليل، لأنه مادام العلم الحديث قد أثبت حدوث العالم إذاً لابد أن يكون له من محدث غيره؛ لأن السبب لابد أن يكون غير المسبب، ومن غير المعقول أن يكون العالم هو سبب نفسه وإلا كان سبباً ومسبباً فى آن واحد وهو مرفوض بالبداهة .

وأما الفرض الثانى : فهو لا يستحق التحقيق، لأن العدم فاقد للوجود فكيف يهب الوجود لغيره .

إذاً لم يبق إلا الفرض الثالث وهو : أن يكون موجد العالم سبباً آخر غير مخلوق ولا حادث حتى لا يحتاج إلى غيره، وغيره يحتاج إلى غيره، وغيره يحتاج إلى غيره، ولا تنتهى السلسلة وبالتالى لا يتحقق قانون التعليل، حيث يظل المعلول الذى نطلب علته معلقاً بلا علة .

إذاً فلابد أن يكون خالق العالم قديماً أزلياً وجوده لذاته ، بمعنى آخر لابد أن يكون موجوداً لا تنطبق عليه قوانين الكون وإلا كان غير خالق(١) ذلك أن المبدأ

---

(١) هذا الكلام يرد على شبهة يثيرها بعض الملحدين علة - ومضمونها إذا كان لكل مخلوق خالق فمن خلق الخالق؟

والواقع أن هذا السؤال يحمل فى طياته الإجابة لمن يريد الحق - ففرق بين الخالق والمخلوق : المخلوق يحتاج إلى خالق : ومجرد تصور الخالق ومعرفة صفاته لا يجعل العاقل يسأل هذا السؤال؛ لأنه مادام خالقاً فلابد أن يكون وجوده من ذاته لا من خالق آخر وإلا خرجنا على قوانين الفكر البشرى ، وأهمها قانون التعليل .

والواقع أن الرسول ﷺ قد أشار إلى هذه الشبهة فقال : «لايزال الناس يتساءلون حتى يقال

ليس معناه أن لكل موجود علة - كما ظن البعض - بل معناه لكل معلول علة (أى

= خلق الله الخلق فمن خلق الله فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله» رواه مسلم وفى رواية لمسلم أيضا عن أبى هريرة أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ سألوه إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم . قال: ذلك صريح الايمان .

وفى رواية أخرى له عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لا يزالون يسألونك يا أبا هريرة حتى يقولوا: هذا الله فمن خلق الله ؟ قال: فبينما أنا فى المسجد إذ جاءنى ناس من الأعراب فقالوا: يا أباهريرة ، هذا الله فمن خلق الله؟ فأخذ حصى بكفه فرماهم ثم قال : قوموا صدق خليلى .

قال الإمام النووى : قول الرسول ﷺ ذلك صريح الإيمان ومحض الإيمان معناه استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان فإن استعظام هذا ، وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلا عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان حقاً وانتفت عنه الريبة والشكوك .

وهنا يتبين لنا أن هذا السؤال مصدره الأساسى هو إبليس الذى أخذ على نفسه العهد أن يضل الناس كلهم أجمعين إلا عباد الله المخلصين، فمن وجد فى نفسه شيئاً من ذلك فعليه أن يلجأ إلى الله تعالى فى دفع شره، وليعرض عن الفكر فى ذلك ، وليعلم أن الشيطان إنما يريد بذلك الإفساد والإغواء فلا يصغ إلى وسوسته، فالله واجب الوجود بمعنى أن ذاته مقتضية لوجوده وما بالذات لا يتخلف .

وليس معنى هذا أننا نقول : إن الواجد أوجد ذاته فإن هذه عبارة خاطئة؛ لأن الإيجاد لا يكون إلا لمعدوم، وإنما نقول: إن ذاته الواجبة تستلزم الوجود الأزلى الذى لا أول له - خلافاً للعالم فهو (ممكن) بمعنى أن طرفى الوجود والعدم بالنسبة إليه سواء، فذاته لا تقتضى وجوداً ولا عدماً، فإذا وجد فلابد أن يكون لوجوده سبب خارج عن ذاته يرجح وجوده .

وهكذا يتبين لنا أن مجرد تصور صفات الله يهدم السؤال من أساسه، فلفظ (الله) علم على الذات الواجب الوجود الذى لم يستمد الوجود من أحد ، فوجوده مقتضى ذاته لا ينفك عنها أزلا وأبداً .

ويقول الشيخ حسن النبا رحمه الله فى الجواب عن هذه الشبهة : «إذا وضعت كتاباً على مكتبك ثم خرجت من الحجرة وعدت إليها بعد قليل فرأيت الكتاب الذى تركته على المكتب موضوعا فى الدرج، فإنك تعتقد تماما أن أحداً لابد أن يكون وضعه فى الدرج لأنك تعلم من صفات هذا الكتاب أنه لا ينتقل بنفسه - احفظ هذه النقطة وانتقل معى إلى نقطة أخرى : (لو كان معك فى حجرة مكتبك شخص جالس على الكرسى ثم خرجت وعدت إلى الحجرة فرأيته جالساً على البساط مثلا فإنك لا تسأل عن سبب انتقاله، ولا تعتقد أن أحداً نقله من موضعه؛ لأنك تعلم من صفات هذا الشخص أنه ينتقل بنفسه ولا يحتاج إلى من ينقله- احفظ هذه النقطة الثانية- ثم اسمع ما أقول لك: لما كانت هذه المخلوقات محدثة ونحن نعلم من طبائعها وصفاتها أنها لا توجد بذاتها بل لابد لها من موجد، عرفنا أن موجدها هوالله تبارك وتعالى؛ ولما كان كمال الألوهية يقتضى عدم احتياج الإله إلى غيره، بل إن من صفاته قيامه بنفسه، عرفنا أن الله تبارك وتعالى موجود بذاته وغير محتاج إلي من يوجده، وإذا وضعت النقطتين السابقتين إلى جانب هذا الكلام اتضح لك المقام. والعقل البشرى أقصر من أن يتورط فى أكثر من ذلك . راجع ص ٥٢ من كتاب العقائد للإمام الشهيد حسن البنا - دار الشهاب .

لكل ما يظهر للوجود ويدل بهذا الظهور على افتقاره، والله ظاهر أزلاًوأبداً ولم يظهر فى لحظة معينة حتى نسأل عن علة ظهوره) .

مناقشات حول الفرض الأول :

ومع أن الفرض الأول مستحيل بداهة - كما بينا - إلا أن بعض الملحدين قد قالوا به وهم أصحاب المادية الديالكتيكية «الجدلية» الذين يقولون: «إن المادة تحتوى على أسباب وجودها عن طريق المتناقضات الموجودة فيها من الحركة والسكون، وكلام هؤلاء الماركسيين لا يستحق المناقشة، لأنهم لم يبينوا لنا السبب فى وجود المادة نفسها المنطوية على المتناقضات فضلا عن بيان السبب الذى أودع فى المادة هذه المتناقضات التى ساعدت على وجود العالم .

كذلك قال بهذا الفرض دعاة نظرية التطور والتوالد الذاتى، وقد أخذت نظريتهم شهرة كبيرة لدرجة أنها تدرس لطلاب القسم الثانوى فى مدارسنا على أنها نظرية علمية وماهى إلا خرافة إلحادية مما يدعونا إلى العرض لها ومناقشتها مناقشة علمية. فماهى نظرية التطور؟ ومامدى صحتها؟ وما سبب شهرتها ؟

نظرية التطور والتوالد الذاتى :

ظهرت هذه الخرافة للمرة الأولى فى تاريخ الفكر البشرى عند الفيلسوف اليونانى «انكسمندر» الذى ادعى أن الحياة قد توالدت أول الأمر من الرطوبة فى طين البحر بعد أن بخرته الشمس، وعن طريق التقاء الحار بالبارد تولدت الخلايا الحية وتطورت من الأحياء المائية إلى الزواحف التى تعيش فى اليابس، ثم تطورت الزواحف إلى أنواع أعلى حتى وصل التطور إلى آخر مراحله فى الإنسان ، وأن الكون سوف ينحل مرة ثانية طبقاً لفكرة العود الأبدى[1] .

ثم ظهر فيلسوف يونانى آخر هو (أبيقور) الذى زعم أن الإنسان فى بعض أطواره كان مثل الخنزير مستور البشرة بالشعر الكثيف ولم يزل ينتقل من طور

---

(١) راجع ص ٨٧ من قوانين الفكر بين الاعتقاد والإنكار للمؤلف .

إلى طور حتى وصل بالتدريج إلى مانراه من الصور الحسنة والخلق الكريم .

ولم يقدم هؤلاء الفلاسفة على نظريتهم أى دليل يثبتها، اللهم إلا مجرد الادعاء بأن مرور الزمان علة لتبدل الصور وترقى الأنواع(١) .

وجاء العصر الحديث فى أوروبا حيث موجة الإلحاد على أشدها وحيث اليهود يحاولون بكل ما استطاعوا هدم الأديان من أساسها، وقد راقت هذه الأفكار القديمة في عقول بعض الملحدين المحدثين فهى في نظرهم تعطى نظرية فى الخلق لا تحتاج إلى الإله كخالق كما هى فكرة الدين الذى يرد الخلق كله إلى الله « ألاله الخلق والأمر» .

وهنا ظهر ثلاثة من مدعى العلم هم (لامارك) و (داروين) و (هكسلى) وهم الذين تبنوا هذه النظرية ودعوا لها .

١- أما لامارك (١٧٤٨-١٨٢٩) فلم يجرؤ على إنكار وجود الله بل صرح بأن الحياة فى الأصل من خلق الله، حيث أوجد أصولا طبيعية، إلا أن هذه الأصول والمواد تساعد على تطور الحياة، فقد سلم بالتوالد الذاتى ولكن ليس بمعنى أن المادة تتجه بذاتها إلى الحياة، بل بمعنى أنها غازات لطيفة كالحرارة والكهرباء قد تنقل غير الحى إلى الحى بكيفية متقطعة وفى نطاق ضيق(٢) كما أشار لامارك إلى تأثير البيئة على الكائنات الحية، وأن أعضاء هذه الكائنات قد يحدث لها تغير وتحوير تبعا لاستخدام الكائن الحى لها، وقال بأن العضو إذا ترك دون استخدام فإنه يتقلص، وقد ينتهى به الأمر إلى الاختفاء تماما، ويدلل على ذلك ببعض الظاهرات مثل: أقدام الطيور التى تعيش فى الماء حيث تغطى ما بين اصابعها الأغشية نتيجة لما تقوم به من السباحة، وكذلك نجد أن لسان آكل النمل يزداد طولا نتيجة للطريقة التى يمده بها ليمسك بضحاياه، والعكس صحيح حيث لوحظ أن أسنان الحيوانات التى لا تمضغ طعامها مثل الحوت تتجه إلى الضمور بل إلى

---

(١) جمال الدين الأفغانى - الرد على الدهريين ص ١٨ - القاهرة سنة ١٩٥٥ .

(٢) د . يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٠٠ .

عدم الظهور على الإطلاق(١).

وهكذا نلاحظ أن لامارك قد سلم بأن الحياة فى البداية من خلق الله، إلا أن العناصر الحية التى خلقها صالحة للتطور بذاتها عن طريق تنازع البقاء والانتخاب الطبيعى .

٢- وجاء من بعده (هكسلى) : (١٨٢٥-١٨٩٥) وكان عالماً مضللا حاول أن يؤيد نظرية التطور بأى ثمن - وقد كانت العقبة الأساسية أمام هذه النظرية (الحلقة المفقودة) وهى «حلقة الانتقال من عالم الجماد إلي عالم الخياة وراح هكسلى يعلن بين الناس أنه اكتشف هذه الحلقة حيث عثر فى قاع البحر علي مادة هلامية هى حلقة الانتقال من عالم الجماد إلى عالم الحياة، وسماها (بروتو بلازما» ثم اتضح بعد ذلك أنها (طين) لا أكثر ولا أقل . وقد اعترف هو بذلك فى مؤتمر علمى عقد فى شيفلد سنة ١٨٧٩، وأعلن أسفه لأنه كان السبب في تضليل كثيرين اعتمدوا على شهرته واستشهدوا به فى تأييد التوالد الذاتى(٢) .

٣- وتصل النظرية إلى صورتها النهائية على يد داروين (١٨٠٩-١٨٨٢) الذى حاول تأييدها بالتشابه الجسمى والتشريحى لمعظم أنواع الحيوان فأجزاء الهيكل العظمى للإنسان تتشابه مع مثيلاتها فى الحيوانات الأخرى، وهنا قال داروين: لا يمكن أن نفسر هذا التشابه إلا بالتطور فالأنواع الحالية على اختلافها يمكن أن تفسر بأصل واحد أو ببضعة أصول تمت وتكاثرت وتنوعت فى زمن مديد بمقتضى قانون الانتخاب الطبيعى أو بقاء الأصلح وقوانين أخرى، هى :

- قانون الملاءمة بين الحى وبين البيئة الخارجية ، فهناك توفيق دائم بين مطالب البيئة الحية وبين ظروفها الطبيعية، ولهذا يحدث التغيير للكائن الحى .

- قانون استعمال الأعضاء أو عدم استعمالها تحت تأثير البيئة بحيث تنمو الأعضاء أو تضمر أو تظهر أعضاء جديدة تبعا للحاجة. ويؤيدون هذا الكلام بوجود

---

(١) قارن ص ٤٢ من كتاب (ما أصل الإنسان) موريس بوكاى .

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة د. يوسف كرم ص ٣٦٥ .

الشعر فى جسم الإنسان ووجود الزائدة الدودية فيه، كما أن الخيل فى سيبيريا وبلاد روسيا أطول وأغزر شعراً من الخيل المتولدة فى البلاد العربية، وذلك تبعاً للحاجة وظروف البيئة (بين البرودة والحرارة) كذلك يؤيد داروين قانون الانتخاب الطبيعى بخرافة مضمونها: أن جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم فلما واظبوا على عملهم هذا قرونا صارت الكلاب تولد بلا أذناب، كأنه يقول: حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته!![1].

إلا أن داروين فى بداية أمره لم يصرح بخضوع الإنسان للتطور، ولكنه عاد في كتابه، «أصل الأنواع» إلى القول بأنه لاداعى لاستثناء الإنسان من قانون التطور. وقال : إن الفرق بين الإنسان والحيوان فرق بالكم أو الدرجة فقط حتى فى الناحية الفكرية والعقلية حيث وجد بعض الحيوانات تملك المقدرة على التفكير[2] .

ولكن ما موقف داروين من الإيمان بالله ؟

لقد كان داروين مؤمناً بالله إلى وقت ظهور كتابه «أصل الأنواع» حيث كان يقول- كما قال لامارك من قبل- إن الصورة الحية الأولى مخلوقة، ولكنه بعد ذلك أعلن إلحاده وأعلن أسفه لاستعماله لفظ الخلق مجاراة للرأى العام، وصرح بأن الحياة لغز من الألغاز، وأن ما فى العالم من ألم يعدل بنا عن القول بعناية إلهية، وأنه هو (لا أدرى) لا يقول بالعناية ولا بالصدفة وأن الكلمة الأخيرة عنده هى أن المسألة خارجة عن نطاق العقل[3] .

---

(١) الرد على الدهريين ص ٢١ .

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٥٣ .

(٣) السابق ص ٣٥٥، وقارن ما قررناه سابقا من أن القضاء والقدر كان سبباً فى إلحاد بعض المفكرين الذين لم يفهموا الحكمة من خلقهم .

مناقشة النظرية

هذا هو تاريخ نظرية التطور أو قل : تاريخ التضليل العلمى واللعب بعقول السذج من الراغبين فى التحلل من الأديان .

ونحن نتحدث عن التضليل العلمى فى خرافة التطور لا ينبغى أن ننسى المضلل التطورى الكبير (أرنست هيكل)[١] ذلك الذى أراد أن يثبت أن الأطوار الأولى للجنين تتشابه فى كل من الإنسان والحيوان، فراح يعرض صوراً لجنين القرد وجنين الإنسان كى يثبت تطابقها- ولكن العلماء اكتشفوا أن (هيكل) كان مزوراً فى الصور التى عرضها، ولذلك عندما احتفلت أكاديمية برلين بعيدها المئوى دعت العلماء من شتى بقاع الأرض وأغفلت دعوة مواطنها (هيكل) استخفافا به كعالم بعد أن اكتشفوا استخفافه بعقول الناس .

والواقع أن هذه النظرية لا تستحق المناقشة لسبب أساسى وهو: أن العلم لا يقوم إلا على الدليل والبرهان اليقينى، ولكن هؤلاء أقاموا نظريتهم على مجرد الظن والوهم والخيال، ولما لم يثبت الدليل نظريتهم راحوا يثبتونها بالكذب والتضليل، ومع ذلك فسوف نوجه إليهم عددا من وجوه النقد كرد على الشبه التى أوردوها. مثل: شبهة التشابه بين الإنسان والحيوان فى الصفات التشريحية، وادعاء الانتخاب الطبيعى الذى تمليه ظروف البيئة والحاجة .

وسوف نلخص ردنا على هذه النظرية فيما يأتى :

أولا : إن هذه النظرية من أساسها معارضة لقوانين الفكر البشرى .

ومنها قانون الذاتية الذى يحدد لكل موجود ذاتيته وحقيقته الخاصة التى لا تنفك عنه، فالجماد هو الجماد- والنبات هو النبات والحيوان هوالحيوان والإنسان هو الإنسان، ومن هنا استحال أن تتغير حقائق الأشياء فمن غير المقبول عقليا أن يتحول الجماد الذى لا حياة فيه إلى أشياء حية، ومن غير المعقول أن يكون هذا

(١) د. أبوريان - الفلسفة ومباحثها ص ١٦٦، وقارن ص ٤٤ من كتاب «ما أصل الانسان» .

الإنسان فى وقت ما لا إنسان، ذلك أن قانون الذاتية يؤكد أن لكل موجود عنصـراً ثابتاً لا يتغير مهما تغيرت عوارضه مما يجعل نظرية التطور فكرة خرافية لا تقف أمام أبسط مبادىء الفكر البشرى(١).

ثانيا : لقد استدل دعاة التطور بفكرة التشابه بين الإنسان والقرد فى الصفات التشريحية والجسمية مما يدل على أن الإنسان متطور عن القرد .

والواقع أن مجرد التشابه بين الانسان والقرد أو النسناس ليس دليلا على أن الإنسان منسلخ من القرد، لأننا من الممكن أن نصل إلى نفس التشابه التشريحى بين الإنسان وبين الكلب والخنزير والفأر، فالتشابه بين الأنواع لا محيد عنه سواء من الناحية التشريحية أو من الناحية البيولوجية، وسبب ذلك أن هذه الكائنات الحية تشترك فى نفس التركيب العام. فيلزم على سبيل المثال فى الحيوانات التى تتنفس وجود الحويصلات الرئوية، كما تتطلب التغذية وجود قناة هضمية وما يلحق بها من غدد، ويلزم بالضرورة أن تكون متشابهة فى تركيبها، كما أن التخلص من النواتج المضرة يتطلب وجود الكلى، وهكذا إذا عددنا أوجه التشابه فهى كثيرة سواء بين الإنسان والقرد أو بينه وبين سائر الحيوانات .

ولكن المنهج العلمى يستلزم ألا نقف عند حدود الظواهر التى نظن أنها تؤيد دعوانا أو تفسر المشكلة التى نبحث فيها. وإنما علينا أيضا أن ننظر إلى الظواهر المعارضة فلعلها تهدم دعوانا من أساسها، وهذه هى أصول المنهج العلمى التى غفل عنها داروين وأتباعه، حيث ذهبوا يتصيدون سقط الأدلة وواهيها، تأييداً لأفكارهم .

ذلك أننا إذا بحثنا فى مواصفات الانسان التشريحية نجد أنه يتميز بخصائص لا توجد فى القرد أو غيره وقد أشار علماء التشريح إلى كثير من الفروق التشريحية بين الانسان والقرد ومنها .

---

(١) راجع ص ٥٨ من قوانين الفكر بين الاعتقاد والإنكار للمؤلف .

١- أن حجم الفراغ فى جمجمة القرد من ٤٠٠ إلى ٥٠٠سم أما الانسان فيصل الفراغ فى المتوسط إلى ١٣٥٠سم .

٢- الفتحة التى تقع فى أسفل الرأس ويتصل عن طريقها المخ بالحبل الشوكى هى فى الانسان مختلفة تماما عنها فى القرد فهى فى الانسان أفقية بينما هى عند القرد رأسية هذا بالإضافة إلى اختلاف مكانها بين الإنسان والقرد(١).

٣- كبر حجم المخ عند الانسان عنه عند القرود .

٤- جبهة الانسان عريضة بينما جبهة القرد ضيقة .

٥- فك القرود يختلف عن فك الانسان حيث إن فك القرد متوازى الجانبين على شكل حرف (u) .

٦- شكل عظمة الحوض عند الإنسان واسعة ومعتدلة مما ساعده على انتصاب قامته بينما هى عند القرد مائلة .

٧- وهناك فرق رهيب بين سلسلة تطور القرد المولود وسلسلة تطور الطفل المولود من الإنسان ، فالطفل البشرى يولد عاجزا من الناحيتين البدنية والعقلية، ويترقى فيهما ببطء شديد وتستمر حالة العجز فيه زمناً طويلاً ولكنه عندما يكبر يصل إلى درجة عظيمة من القوة والذكاء، بخلاف القرد فإنه بمجرد ولادته يساعد أمه فى رعايته ويستطيع أن يعتمد على نفسه اعتمادا كاملا وهو مايزال مولودا صغيرا .

ولو كانت هناك أدنى صلة بين الإنسان والقرد لا نمحى بينهما هذا البون الرهيب(٢) .

٨- باطن القدم البشرى مقوس ويتكيف بشكل تام من أجل المشى على نقاط التقاء بالأرض هى العقب والمفصل، بينما تقف القرود على الحواف الخارجية لأقدامها، وليس لها ذلك التقعر الذى يشكل تقوس باطن القدم(٣).

---

(١) راجع ص ١٢٢ من (ما أصل الإنسان) لموريس بوكاى .

(٢) د . محمود عتمان الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه ص ٢٥ . نقلا عن – الانسان فى الكون بين القرآن والعلم ص ١٢٠ د . عبدالعليم خضر .

(٣) موريس بوكاى – ص ١٢٣ .

وهكذا يثبت علم التشريح بعد الشبه بين الإنسان والقرد .. هذا فى الخصائص الجسمية البحتة، ناهيك عن الخصائص العقلية والروحية والأخلاقية وغيرها من الميزات التى تضع حدا فاصلا بين الإنسان وبين غيره من أنواع الحيوان .

وأما ادعاؤهم بأن الحيوانات عندها نوع من التفكير، فإنه يمكن الرد عليه بأنه تفكير غريزى لا يتعدى المحافظة على النوع وليس تفكيراً منطقياً عقلياً كما هو الشأن عند الإنسان، ولو افترضنا جدلا أن الإنسان الأول قد تطور عن القردة العليا فلماذا تبقى هذه القردة فى بيئة واحدة جنبا إلى جنب مع الإنسان ولا تتطور فتصبح من بنى البشر ، مع أن دعاة التطور يقولون: إن التطور يخضع لعاملى البيئة والوظيفة؟[١] .

بمعنى أوضح : إن الإنسان منذ وجد على الأرض هو الإنسان- والقرد هو القرد لم يشاهد الإنسان قرداً وصل فى التطور إلى درجة الإنسان .

وبمعنى آخر : لماذا يقف التطور عند حد الإنسان ولماذا لم يتطور الإنسان إلى نوع آخر مادامت هناك حتمية التطور كما يدعون ؟

هذا هو دليل التشابه لا أساس له من الصحة فى إثبات هذه النظرية، بل على العكس هو برهان على أن الخالق واحد وهو الله سبحانه وتعالى الذى خلق فى الوجود أنواعا مختلفة ومتباينة، ومع ذلك هناك ضرب من الوحدة والتشابه بينها وهذا ما أشار إليه رب العزة حين قال: «وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم»[٢] .

ثالثا : وأما عن الشبهة الثانية وهى أن التطور يخضع لظروف البيئة ولقانون الانتخاب الطبيعى واستدلالهم على ذلك بالزائدة الدودية فى الإنسان وبالشعر فيه أيضا، فإنه استدلال غير صحيح، فمن الذى أدراهم بأن هذه الأشياء زائدة فى

(١) راجع ص ١٦٧ من الفلسفة ومباحثها د . أبو ريان .
(٢) سورة الأنعام آية : ٣٨ .

الإنسان، وهل أحاطوا بالإنسان علما؟ وهل العلم يعرف الكلمة الأخيرة حتى يحكموا على الشعر فى الإنسان بأنه لا فائدة منه؟ فليتأمل هؤلاء قصور العقل البشرى وعجزه عن إدراك كثير من الأمور المادية المشاهدة لنا، وليقارنوا بين هذا العجز وبين قدرة الله العظمى وحكمته السامية وهنا لن يستغربوا اختفاء حكمة بعض الأشياء.

لقد صدق الله حين قال «وفوق كل ذى علم عليم» وفى كل يوم يعرف الإنسان عن نفسه الكثير مما كان يجهله بالأمس مما يجعل كلام داروين وأشياعه مجرد ادعاءات خالية من الدليل، وإذا كان داروين يستشهد على الانتخاب الطبيعى بقصر ذنب الكلاب، لأن جماعة واظبوا على قطع ذنبها قرونا طويلة مما جعل الطبيعة تكف عن هبته، فإننا نسأله هو وأتباعه :

ما رأيك فى ظاهرة الختان التى تشيع بين العبرانيين والعرب والمسلمين منذ عشرات القرون، لماذا لم تكف الطبيعة عن منح الإنسان هذه القطعة التى تختتن[(١)]؟

وما رأيك فى قص الشعر والأظافر فهو عادة للإنسان منذ آلاف السنين، لماذا لم تكف الطبيعة عن منحهما للإنسان؟ وهكذا يتضح لنا أن كلام داروين لا يعدو الخيال الواهم الذى يحاول أن يحلق على أرض الحقيقة وما استطاع .

رابعا : لقد أقام داروين نظريته على أساس فرضين أساسيين هما :

١- أن العضويات الصغيرة فى كل جيل من الأجيال تنزع دائما إلى أن تختلف اختلافات طفيفة عن آبائها فى جميع الاتجاهات، بمعنى أن الأفراد فى النوع الواحد تختلف فيما بينها بعض الاختلافات وليس هنا اتفاق تام بينها .

٢- أن التغيرات المفيدة تورث فى الأجيال التالية وتتراكم نتائجها حتى ينتج عنها تغيرات جسمية، أى أن الأفراد التى تتمتع باختلافات فى صالح النوع هى التى يكتب لها البقاء فى أثناء عملية الصراع من أجل الحياة[(٢)] .

---

(١) الرد على الدهريين ص ٢١ .

(٢) د . عبدالعليم خضر - الإنسان فى الكون ص ٦٩ عالم المعرفة - جدة سنة ١٩٨٣ .

وجاء علم الوراثة لكى يهدم هذين الفرضين من أساسهما ؟

فقد أثبت العلم أن التلقيح الذاتى فى النباتات أو زواج الأقارب فى الحيوانات يؤدى إلى إنتاج أفراد ضعيفة إلى حد كبير، والسلالات الناتجة فى هذه الحالة لا تتفرع ولا تتغير فى جميع الاتجاهات كما ادعى داروين .

كذلك أثبت علم الحيوان أن التطور أحيانا بالنسبة لبعض الحيوانات يكون من النوع المميت، فقد قام العلماء بدراسة ذبابة الفاكهة المسماة (دروسوفيلا ميلانوا جستر) فلاحظوا أن الغالبية العظمى لمراحل تطورها تكون من النوع المميت، أما الحالات التى لا تموت فإن التغييرات المصاحبة لها تكون من النوع الذى يؤدى إلى التشويه أو على الأقل من النوع المتعادل الذى يحدث تأثيرات فسيولوجية تضعف من قوة الفرد، فمن الصعب إذن أن يؤدى تجمع هذه الطفرات الوراثية إلى التغييرات اللازمة لنشأة أنواع جديدة تعتبر أكثر تقدما ورقيا من أسلافها(١) ، كذلك اثبت العلماء حديثا أن هناك أنواعا كثيرة من الحيوانات منذ بلايين السنين وهى على ماهى عليه لم تتعرض لتغيير ولا تبديل ومنها: الطحالب الزرقاء وهي كائنات حية تعيش منذ بليون سنة ومع ذلك فهى اليوم كما كانت منذ وجدت، وهناك بكتيريا الحديد، والاسفنجيات والرخويات وأسماك (سيلاكنت) الشهير التى يبلغ عمر وجودها مئات الملايين من السنين، ولم يطرأ عليها أى تغير البتة . وقد اتضح من دراسة هذه السمكة بعد أن اكتشفت سنة ١٩٣٨ أنها صورة طبق الأصل لحفرياتها التى ترجع إلى ٣٠ مليون سنة، فلماذا لم تخضع كل هذه الكائنات لقانون الانتخاب الطبيعى؟ ولماذا احتفظت ببدايتها رغم مرور مئات الملايين من السنين ورغم تعرضها لمتغيرات بيئية كثيرة وهذا ما يعترف به داروين حين يقول فى إحدى خطاباته «أن أهم ما سقط فى كتابى أو أغفل لم يشرح كيف يتأتى – ما اعتقده، من أن الأشكال كلها لا تتقدم بالضرورة، وكذلك كيف أن الكائنات البسيطة مازالت موجودة(٢) وهكذا أخطأ داروين حين ادعى أن الكائنات

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٧١ .

(٢) موريس بوكاى – « ما أصل الإنسان» ص ٤٩ وما بعدها .

الحية كلها تخضع لقانون التطور الذاتى، وإلا كان على داروين أن يعترف بأن البرغوث بعد عدة قرون قد يصير فيلا كبيراً وهذا ما لا يتصوره عقل، فمرور الزمن لا يؤثر فى حقائق الأشياء .

وهكذا يأتى الواقع مكذباً لكل فروض داروين وأتباعه فالجماد هامد لا حياة فيه، والنبات لا ينتج إلا نباتاً، والحيوان لا ينتج إلا حيواناً، والإنسان لا يلد إلا إنسانا، وهكذا فالواقع المشاهد للإنسان يهدم نظرية التطور .

يقول دكتور «جوستاف جوليه» يكفى لإبطال النظريات الداروينية أن يتأمل الإنسان (الحشرة) فإنها ظهرت فى أقدم عصور الحياة الأرضية وثبتت أنواعها فى جميع الأحوال ، فهى تناقض ما ذهبوا إليه من التحولات المستمرة البطيئة، وتناقض التطور بفعل العوامل الخارجية، فإنها تنقلب داخل الشرنقة من دودة إلى حشرة طائرة - ولا تأثير عليها من الخارج كما ادعى داروين (ظروف البيئة) كماأن الهوة عميقة بين الحالة الأولى وهى حالة (الدودية) والحالة الثانية وهى حالة (الحشرة) وهى هوة تضيع فيها جميع النظريات الداروينية التي تعلل التطور بظروف البيئة(١) .

وإلا فكيف يستطيع أن يفسر لنا كيف استطاع الحيوان الزاحف - وهو جد العصفور - أن يناسب البيئة التى ليست له ولا يمكن أن تكون له إلا بعد أن يتحول من صورة حيوان زاحف إلى صورة عصفور وكيف يستطيع أن تكون له حياة هوائية قبل أن تكون له أجنحة نافعة؟ بمعنى أوضح: إن ظروف البيئة للأسماك والزواحف المائية تحتم عليهم أن يظلوا كذلك منذ خلقوا .

وظروف البيئة للطائر تستلزم أن يظل طائراً ولا يتحول إلى نوع آخر. وهكذا فالأدلة التى قدمها داروين تصبح براهين لنا نهدم بها نظريته .

خامساً : إن هذه النظرية مبتورة من أساسها لأنها لم تكشف لنا كيف خرجت الحياة من الجمادات؟ ولذلك نجدهم يهربون من هذه الحلقة الأساسية إلى

---

(١) حسن حسين - العدل الإلهى ص ١٣٠ .

الحلقة الثانية، فيدعون أن الحياة نشأت لأول مرة من خلال كائنات أولية بسيطة ذات خلية واحدة سميت بالأميبا، ولكنهم لم يبينوا لنا كيف نشأت أبسط الكائنات الحية من المادة البحتة غير العضوية؟

ولكى نزيد الأمر وضوحاً نبين معنى الحياة .

الحياة المشتركة بين جميع الأحياء سواء كانت نباتية أو حيوانية أو إنسانية لها خصائص ثلاث: الاغتذاء ، والنمو، والتوالد .

والاغتذاء مرتب بذاته لتحويل المادة الغذائية إلى جوهر الحى، فيحفظ كيانه ويحفظ له الكمية اللائقة بنوعه وبحالته الشخصية والنمو مرتب بذاته لتحويل كمية الغذاء إلى كمية الحى .

والتوليد مرتب بذاته لإيجاد جوهر جديد شبيه بالمولد(١) .

فهذه وظائف ثلاث تتحقق من خلال أى كائن حى وهذا ما لا يتسنى للجماد بحال .

فكيف خرجت الأميبا الحية من الجماد الذى لا حياة فيه؟ هذا هو السؤال الذى يعجز عن الإجابة عليه أى ملحد يؤمن بنظرية التطور وخصوصا إذا علمنا أن الأميبا شىء فى غاية التعقيد بحيث يستحيل على العقل البشرى أن يسلم بوجودها بدون خالق ؟

فما هى الأميبا ؟ وكيف تستطيع المادة المسحوقة أن تصنعها ؟ الأميبا هى أقل خلية حية فى الكون ولا تشاهد إلامن خلال الميكرسكوب، فعندما نفحص قطرة من ماء المستنقع تحت المجهر نرى الأميبا تتحرك فى بطء وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها. فإذا به داخلها وإذا به يتم هضمه وتمثيله داخل جسمها، حتى أننا لنشاهد فضلاته تخرج من جسم الأميبا، ثم تنشطر الأميبا شطرين حيث يخرج منها كائناً حياً جديداً .

(١) د . يوسف كرم – الطبيعة وما بعد الطبيعة ص ٣٧ .

وإذا دققنا فى الأميبا نلاحظ داخلها الجبلة (البروتوبلازم) مركز الحركة والحياة فى جميع الكائنات الحية(١) .

وتعال معى إلى تحليل الخلية الحية مم تتكون :

يقول العلماء : إن الخلية الحية تتكون من :

أوكسجين بنسبة ٧٠٪ من الوزن الإجمالى (للبروتوبلازم)

كاربون بنسبة ١٨٪ .

هيدروجين بنسبة ٥ر١٠٪ أى أن الماء (أوكسجين - هيدروجين) .

والكاربون يشكلان ٩٨٪ من الوزن الإجمالى للخلية الحية .

ويأتى بعد هذا الكالسيوم - الأزوت - البوتاسيوم - والسيليسيوم التى تمثل بضعة أعشار بالمائة .

ثم الفوسفور - الماغنسيوم - الكبريت - الكلور - الصوديوم - الألمنيوم- الحديد، وهى تشترك فى الخلية بأجزاء مئوية من المائة .

وهذه هى العناصر الكبرى فى الخلية الحية وهى تمثل ٩٩ر٩٩٪ من المادة الحية فأين الواحد الباقى ؟

قال العلماء : إن الباقى يتكون من : المانجنيز - البور - التوتيا - النحاس - الفيلور - الليتوم - الباريوم- النيكل- اليود - وتمثل كل واحدة منها (١/١٠٠٠٪).

ثم تأتى مجموعة أخرى هى: الزئبق والذهب والراديوم بنسبة (١/مليون٪)(٢).

هذا هو تكوين الخلية الحية التى تقبع داخل الأميبا والتى يتكون جسم .

(١) سعيد حوى - الله ص ٤٥ .

(٢) راجع كتاب النظرية المادية فى المعرفة ص ١٣٣ - روجيه نمارودى .

الإنسان من ملايين الملايين منها ، ولنا بعد ذلك أن نسأل: كيف وجدت هذه العناصر كل عنصر منها على حدة؟

وكيف اجتمعت هذه العناصر بالذات دون غيرها من المواد الموجودة فى الكون والتى أوصلها العلماء إلى (١٠٤) عنصراً ؟ أقول: كيف اجتمعت هذ المواد بالذات لتكوين الخلية الحية ؟

وكيف أمكن أن يكون اجتماعها خاضعاً لنسب معينة من كل عنصر بحيث يكون بعضها قرابة ٧٠٪ وبعضها (١) على مليون ٪ .

من الذى وزن موازينها وقدر مقاديرها على هذا الشكل من الدقة؟ هل يستطيع دعاة التطور أن يجيبونا ؟

كيف خرجت هذه المادة الحية من الجمادات ؟

مع أن العلم أثبت أن الحياة لا تخرج إلا من الحى ويستحيل أن تخرج من الجمادات الميتة(١) .

يقول موريس بوكاى .. والخلايا جميعا إنما هى نوع من الحاسب الآلى «الكمبيوتر» مكون من أنظمة تبادلية تجل عن الحصر وبناء على نتائج هذه البحوث، يقفز إلى الذهن مباشرة سؤال واحد له أهمية كبرى، كيف تسنى لمثل هذا النظام المعقد أن يتكون»(٢) .

ونضيف إلى ما سبق أنه إذا كان بعض فلاسفة اليونان بجهلهم عن حقيقة الخلية الحية قد قالوا ما قالوا عن التطور، فإنه لا يليق اليوم بعالم يعرف تماما تركيب الخلية المعقد من خلال تجاربه ومعمله أن يقول فى القرن العشرين بما قاله ديمقريطس فى عصور ما قبل الميلاد، فالخلية بهذا التعقيد والتنظيم لا يمكن أن توجد مصادفة، ولا يمكن إلا أن تكون من صنع الخلاق العليم وهو الله سبحانه

---

(١) د . يوسف كرم – الطبيعة وما بعد الطبيعة ص ٤٨ .

(٢) راجع ص ٣١ من كتاب « ما أصل الإنسان » لموريس بوكاى طبع الرياض ترجمة مكتب التربية العربى لدول الخليج .

وتعالى الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

يقول أوبارين وهو (بيولوجى روسى من الماديين المشهورين: «ان شبكة تفاعلات الخلية ليست منسقة تنسيقا صار ما فحسب، وإنما هى موجهة أيضا نحو الحفظ والتكاثر فى إطار الظروف العامة التى تفرضها البيئة الخارجية ، ولا يمكن أن يكون التكيف البالغ التعقيد الذى يميز الحياة وليد الصدفة»(١) .

وهنا يمكن الرد على هؤلاء الذين يقولون : إن الإنسان خلق الإنسان حيث استطاع العلماء أن يصنعوا أطفال الأنابيب !!

ذلك أنهم لم يصنعوا الخلية الحية من البداية، بل أخذوا هذه الخلية المخلوقة لله ووضعوها فى ظروف مصطنعة قلدوا فيها الخالق، بل إن إنسان الأنابيب ينبغى أن يزيد الإنسان إيمانا بوجود الخالق، لأن هذا الإنسان قد وجد بعد أبحاث وبعد تجارب وبعد تفكير استغرق عشرات السنين، ولم يوجد مصادفةمما يؤكد أن الإنسان فى الحقيقة هو صنع صانع حكيم مدبر ولم يوجد هكذا اتفاقا كما زعم دعاة التطور .

ولو فرض أن العلماء قد قاموا بصنع الخلية من مجموعة المواد التى تتركب منها(٢) ، فإن ذلك لا يبطل عقيدة الخلق لله، لأنهم لم يصنعوا المواد التى تتكون منها هذه الخلية. وقديما قال (أرنست هيكل) إيتونى بالهواء وبالماء وبالأجزاء الكيماوية وبالوقت وسأخلق الخلية الحية ، ونسى هذا المخبول أن الوقت اللازم لتكوين خلية حية هو بلايين السنين وقد قدرها العالم الرياضى السويسرى، «تشارلز يوجين» بأنها (١٠) مضروبة فى نفسها (٢٤٣) مرة من السنين، أى أكثر من عمر الأرض بأضعاف أضعاف المرات(٣) .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٢ .

(٢) حاولت روسيا أن تبرهن على إمكانية نشأة الحياة كيماويا وكلفت بهذا الموضوع (أوبارين) رئيس المعهد الكيميائى فى الاتحاد السوفيتى وبعد عمل متواصل (عشرين عاما) أعلن سنة ١٩٦٢ النتيجة التى توصل اليها في تقرير رسمى أذاعته وكالات الأنباء فى العالم وهى: أن العلم الكيميائى عاجز عن إيجاد الحياة .

(٣) المادة بين الأزلية والحدوث ص ٧٤ .

فى الكون والتى وصلها العلماء إلى (١٠٤) عنصراً؟ أقول : كيف اجتمعت هذه المواد بالذات لتكوين الخلية الحية؟

وكيف يمكن أن يكون اجتماعها خاضعاً لنسب معينة من كل عنصر بحيث يكون بعضها قرابة ٧٠٪ وبعضها [١] على مليون ٪.

من الذى وزن موازينها وقدر مقاديرها على هذا الشكل من الدقة؟ هل يستطيع دعاة التطور أن يجيبونا؟

كيف خرجت هذه المادة الحية من الجمادات؟

مع أن العلم أثبت أن الحياة لاتخرج إلا من الحى ويتسحيل أن تخرج من الجمادات الميتة(١).

يقول موريس بوكاى والخلايا جميعا إنما هى نوع من الحاسب الآلى «الكمبيوتر» مكون من أنظمة تبادلية تجل عن الحصر وبناء على نتائج هذه البحوث، يقفز إلى الذهن مباشرة سؤال واحد له أهمية كبرى، : كيف تسنى لمثل هذا النظام المعقد أن يتكون»(٢).

ونضيف إلى ماسبق أنه إذا كان بعض فلاسفة اليونان بجهلهم عن حقيقة الخلية الحية قد قالوا ماقالوا عن التطور، فإنه لايليق اليوم بعالم يعرف تماما تركيب الخلية المعقد من خلال تجاربه ومعمله أن يقول فى القرن العشرين بما قاله ديمقرطس فى عصور ماقبل الميلاد، فالخلية بهذا التعقيدوالتنظيم لايمكن أن توجد مصادفة، ولايمكن إلا أن تكون من صنع الخلاق العليم وهو الله سبحانه وتعالى الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى.

يقول أوبارين وهو (بيولوجى روسى من الماديين المشهورين) : «إن شبكة تفاعلات الخلية ليست متسقة تنسيقا صارما فحسب، وإنما هى موجهة أيضا نحو الحفظ والتكاثر فى إطار الظروف العامة التى تفرضها البيئة الخارجية، ولايمكن أن يكون التكيف البالغ التعقيد الذى يميز الحياة وليد الصدفة»(٣).

وهنا يمكن الرد على هؤلاء الذين يقولون : إن الإنسان خلق الإنسان حيث استطاع العلماء أن يصنعوا أطفال الأنابيب !!

١- د/ يوسف كرم – الطبيعة ومابعد الطبيعة ص ٤٨.

٢- راجع ص ٣١ من كتاب «أصل الإنسان» لموريس بوكاى.

٣- المرجع السابق ص ٦٢.

ذلك أنهم لم يصنعوا الخلية الحية من البداية، بل أخذوا هذه الخلية المخلوقة لله ووضعوها في ظروف مصطنعة قلدوا فيها الخالق، بل إن إنسان الأنابيب ينبغى أن يزيد إيماننا بوجود الخالق؛ لأن هذا الإنسان قد وجد بعد أبحاث وبعد تجارب وبعد تفكير استغرق عشرات السنين، ولم يوجد مصادفة مما يؤكد أن الإنسان فى الحقيقة هو صنع صانع حكيم مدبر ولم يوجد هكذا اتفاقا كما زعم دعاة التطور.

ولو فرض أن العلماء قد قاموا بصنع الخلية من مجموعة المواد التى تتركب منها[١]، فإن ذلك لايبطل عقيدة الخلق لله، لأنهم لم يصنعوا المواد التى تتكون منها هذه الخلية. وقديما قال (أرنست هيكل) إيتونى بالهواء وبالماء وبالأجزاء الكيماوية وبالوقت وسأخلق الخلية الحية، ونسى هذا المخبول أن الوقت اللازم لتكوين خلية حيه هو بلايين السنين وقد قدرها العالم الرياضى السويسرى «تشارلز يوجين» بأنها (١٠) مضروبه فى نفسها (٣٤٣) مرة من السنين، أى أكثر من عمر الأرض بأضعاف أضعاف المرات[٢].

ولو فرضنا جدلا وأن هيكل نجح فى تكوين الخلية الحية[٣] هل من الممكن أن يسميها صدفة أم أنه سيعدها نتيجة لعبقريته وبالتالى عليه أن يعترف أن الحياة لاتكون إلا من مدبر حكيم وهو الله.

سادسا : إن نظرية التطور التى يعتمد عليها الملحدون ويجعلونها سندهم والبديل الوحيد عن فكرة الخلق الإلهى - لاأساس لها من التجربة الحية العلمية - وهم الذين يدعون أنهم لايؤمنون إلا بما يقع تحت المختبر والتجربة والملاحظة.

ولكن هل لاحظها أو جربها فى معمله؟

والجواب بالنفى قطعاً، فذلك ضرب من المستحيل[٤]، هنا يقولون إننا نعتمد على شواهد من علم الحفريات وتساندنا علوم أخرى مثل علم الوراثة وعلم الأحياء والتشريح.

١- حاولت روسيا أن تبرهن على إمكانية نشأة الحياة كيماويا وكلفت بهذا الموضوع (أوبارين) رئيس المعهد الكيميائى فى الاتحاد السوفيتى وبعد عمل متواصل (عشرين عاما) أعلن سنة ١٩٦٢ النتيجة التى توصل إليها فى تقرير رسمى أذاعته جميع وكالات الأنباء فى العالم وهى : أن العلم الكميائى عاجز عن إيجاد الحياة.

٢- المادة بين الأزلية والحدوث ص ٧٤.

٣- الإسلام يتحدى ص ٧١.

٤- المرجع السابق ص ٤٤.

ونقول لهم إن الأدلة التى تهدم نظريتكم يمكن أن نأخذها أيضا من علم الحفريات، وقد تحدثنا فيما سبق عن أنواع حيوانية كثيرة لاتختلف حفرياتها من ملايين السنين عن أحفادها الموجودة حتى الآن.

ونضيف إلى ماسبق أن علم الحفريات لم يكشف حتى الآن عن الحلقات التى تربط بين الإنسان والحيوانات الأقل منه رقيا.

كما لم يعثر علم الحفريات على الحلقات التى تربط بين الحيوانات الثديية وبين الزواحف وهى العائلة السابقة فى الوجود[١].

وبالتالى تصبح النظرية مجرد دعوى بدون إثبات وبدون دليل لامن التجربة الحسية ولامن المنطق العقلى، وبالتالى فإن لنا أن نتساءل : أين المنهج العلمى السليم؟

وكيف تؤمنون بنظرية لم يثبتها المنهج العلمى؟

والجواب أنهم لايؤمنون بهذه النظرية إلا لأنه لايوجد أى بديل لها سوى الإيمان بالله وهم لايريدون أن يؤمنوا به وهذا مايشير إليه أحدهم حيث يقول :«إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا، ولاسبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لانؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق المباشر، وهذا مالا يمكن حتى التفكير فيه»[٢] إذاً فالمسألة كلها عناد وقصد لإشاعة الإلحاد لإشباع أغراض خاصة، وهذا ماسوف أوضحه فيما يأتى :

سبب شيوع نظرية التطور :

ولكن إذا كانت نظرية التطور مجرد فرض باطل لادليل عليه، بل كل الأدلة تهدمه من أساسه، فما هو سر انتشارها فى العالم؟ وماهو السبب فى إدخالها إلى مناهج التعليم فى معظم دول العالم؟

والجواب : أن اليهود قد وضعوا خطة للسيطرة على العالم كله، ولكنهم أدركوا أن الخطر الأكبر على مخططاتهم هو الدين بما يمثله من عقائد وأخلاق وآداب، ومن هنا جعلوا هدفهم الأول نزع (الدين) من نفوس الناس، وشحن هذه النفوس بسيل من النظريات المادية حتى تصبح هى دين الإنسان وعقيدته[٣].

١- كمال بنيامين – العلم والمنطق والايمان ص ٣٤.

٢- الإسلام يتحدى ص ٢٩.

٣- د/ عبد الستار فتح الله – معركة الوجود بين القرآن والتلمود ص ٥٥.

ومن هنا قام اليهود بإشاعة النظريات الإلحادية مثل نظرية ماركس الشيوعية ونظرية داروين[١] ونظرية (فرويد) الجنسية اللاأخلاقية.

وهذا مااعترف به اليهود فى (بروتوكولات حكماء صهيون) حين قالوا : «لقد خدعنا الجيل الناشئ من الأمميين وجعلناه فاسداً بما علمناه من مبادئ ونظريات معروف لدينا زيفها ولكن نحن أنفسنا الملقنون لها[٢]».

ويقول اليهود : إن نجاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل والأثر غير الأخلاقى لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى سيكون واضحاً لنا على التأكيد»[٣].

وهكذا يتضح لنا القصد من الترويج لهذه النظرية رغم بطلانها، وهو أن يتحول الناس إلى حيوانات بلاعقيدة ولادين يتمسكون به ويدافعون عنه، وبذلك يتمكن اليهود من السيطرة عليهم وفرض الديانة اليهودية عليهم بالقوة، وهذه مرحلة متأخرة جداً ولايهم اليهود ماينتج عن هذه النظريات من إلحاد فى الوقت الحالى.

لماذا تصر وزارة التربية والتعليم فى مصر على تدريس نظرية التطور؟؟

لقد تبين لنا أن خرافة التطور هى مجرد فرض لم يثبت صحته بعد، ولن يثبت؛ لأن كل البراهين العلمية تؤكد بطلانه، لأنه متعارض مع مقررات علم الأجنة والتشريح ومع نتائج علم الجيولوجيا والحفريات[٤].

وقد فطنت الدول المتقدمة علميا إلى ذلك فألغت دراستها ومنها أمريكا التى توقفت عن تدريس هذه النظرية بعد أن أثبت العلم فشلها.

وصدر قرار فى إسرائيل بتحريم دراستها لأنها تتعارض مع عقيدة الخلق كما وردت فى التوراة[٥].

ولاندرى بعد ذلك لماذا يصر المسئولون هنا فى مصر على تدريسها للشباب فى سن

١- يقول بوكاى «وكان داروين دائما وثنامن أوثان الترسانة الإلحادية، وكان دائم الاستعداد لدعم أية أفكار تدعم ما يذهبون إليه» قارن ص ٤٥ من كتاب "ماأصل الإنسان".

٢- البروتوكولات ص ١٥٩.

٣- المرجع السابق ص ١٣٢.

٤- راجع ص ١٧ من كتاب (مذهب النشوء والارتقاء فى مواجهة الدين) السيدة / منيرة على الغاياتى.

٥- د/ محمد ربيع - دراسات فى العقيدة الإسلامية ص ٣٧ بالاشتراك مع آخرين.

المراهقة الذى يتسم بالقلق والحيرة والشك؟ هل القصد هو أن يتشبعوا بالنظريات الإلحادية منذ صغرهم؟؟ لاندرى!! مع أن المصدر الأساسى للتشريع فى مصر هو الإسلام؟ فكيف تتفق نظرية التطور مع الإسلام؟؟!

أسئلة تحتاج إلى إجابة محددة من القائمين على التعليم فى مصر التى مازالت تسير على نفس المناهج العلمية التى وضعها (دانلوب) المستشار الإنجليزى فى فترة الاحتلال البريطانى لمصر، من الاهتمام بالتفاهات التى لافائدة منها، وهذا فى الوقت الذى تعد فيه مادة الدين مادة (ثانوية) ليس لها من الأهمية مالنظرية التطور الإلحادية.

التطور الإيمانى :

لقد أشار القرآن الكريم إلى أن الإنسان يمر بمراحل مختلفة ويتطور من مرحلة إلى مرحلة، فهو فى البداية يكون قطعة من الطعام يأكلها الإنسان ثم تتحول إلى عصارات هضمية، إلى دم يوزع على الأعضاء بما يناسب كل عضو ثم تنقلب حصة من هذا الدم إلى مادة للتلقيح هى النطفة التى توضع فى الرحم بعد التقائها ببويضة المرأة، ثم تتحول هذه النطفة إلى علقة، ثم إلى مضغة، ثم إلى عظام، ثم يكسى هذا العظام باللحم، ثم ينزل جنيناً كامل الخلقة ويتحول من طفل إلى شاب إلى شيخ.

هذه هى مراحل التطور التى أشار إليها القرآن الكريم فى آيات كثيرة، منها قوله تعالى :

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين»(١).

وقوله تعالى :«هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا»(٢).

هذا هو التطور الإيمانى الذى أشار إليه القرآن الكريم وجعله برهاناً على وجود الخالق المبدع الذى يقوم بتغيير الإنسان من مرحلة إلى مرحلة، فهو ليس تطورا ذاتيا كما يزعم دعاة التطور. كما أنه تطور داخل النوع الواحد فالإنسان هو الإنسان مهما كانت مراحل تطوره، فهو لايتطور إلى نوع آخر – مثلا – كما أنه ليس متطوراً عن نوع أسفل كما أدعى داروين.

١– سورة المؤمنون الآية : ١٤.

٢– سورة غافر الآية : ٦٧.

فالتطور داخل النوع الواحد أمر واقع بقدرة الله سبحانه وتعالى، فالنبات يمر بنفس المراحل والحيوان كذلك، ولكن لايمكن أن يخرج نوع منها عن جنسه أو خصائصه الذاتية.

وهكذا يتضح لنا الفرق بين التطور فى القرآن وبين تطور الملحدين.

١- فالتطور القرآنى تطور إبداعى يدل على مبدعه ومطوره، بينما هو عند الملحدين تطور مادى ميكانيكى.

٢- والتطور القرآنى داخل النوع الواحد ولايغير حقائق الأشياء، بينما التطور الإلحادى يدعى تغيير الحقائق وتحويلها إلى حقائق أخرى لاصلة لها بالحقائق السابقة بما يتعارض مع أبسط مبادئ الفكر البشرى.

بين تكريم الله للإنسان وإهانة الإنسان لنفسه :

عجيب أمر هؤلاء الذين يريدون أن يرجعوا بأصولهم ونسبهم إلى القرود، الذين يمتهنون إنسانيتهم ولايريدون لها أن تكون كريمة عزيزة كما أراد الله :« ولقد كرمنا بنى ادم»، «لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم» نعم لقد كرم الله الإنسان بشتى أنواع التكريم.

- كرمه فى أصله حيث جعله نسلا لنبى من أنبياء الله هو آدم عليه السلام أبو الإنسانية، الذى خلقه الله بيده الكريمة، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وعلمه أسماء الأشياء.

- وكرمه فى خلقه فصوره أحسن تصوير وأبدعه :«يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم * الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك». ولكن دعاة التطور يأبون تكريم الله لهم، لقد هانت عليهم أنفسهم وهانت عليهم إنسانيتهم فأهانوها بمثل هذه الأفكار اللاإنسانية، فأهانهم الله سبحانه وتعالى :«ومن يهن الله فماله من مكرم».

فيا أبناء القرود، وياسلالة الحيوانات، إن كنتم تريدون لأنفسكم أن تكونوا كذلك، فإننا نأبى أن نكون كما تريدون، ولسنا أبناء قرود، ومرحباً بتكريم الله لنا وحمداً لله وشكراً على أنعمه التى لاتحصى ولاتعد، وسجوداً خالصاً لله مع كل مظاهر الوجود التى أتت الله طائعة وسجدت له شكراً على خلقها :«ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس

وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل مايشاء»(١).

وإنه لأمر عجيب أن يسجد لله كل خلقه من الجمادات، والنجوم كل النجوم والشجر كل الشجر، والدواب كل الدواب، ولايسجد لله كل الناس بل كثير منهم فقط، وهناك كثير آخرون حق عليهم العذاب وهم الذين أهانوا أنفسهم فهانوا على الله سبحانه. إلا أننا نحن المؤمنين بالله لنشكر الله شكراً فوق شكر، نشكره على نعمة الخلق كما شكرته الجمادات.

ونشكره على إبداع الخلق وإحسان الصورة والتكريم.

وماعلينا من أبناء الشمبانزى .. فليكونوا كما يتصورون.

ولكننا لن نكون إلا كما أراد الله سبحانه وتعالى، وكما صورنا :«وهو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء».

وإلى هنا تكون قد انتهينا من الاستدلال على المقدمة الثانية من مقدمات دليل الحدوث، وبذلك تكون قد أثبتنا أن هناك محدثا وخالقا هو الله سبحانه وتعالى حيث إن الكون لايمكن أن يكون مخلوقا بذاته كما أدعى دعاة التطور.

إلاأن بعض الملحدين مازالوا يشككون فى المقدمة الثانية بحجة أنهم اكتشفوا بعض القوانين الكونية وبعض الأسباب والمسببات الظاهرية مما جعلهم يتوهمون الاستغناء عن الخالق، وهذا مايدعونا لعرض وجهة نظرهم ومناقشتهم بنفس منهجهم.

١- سورة الحج الآية : ١٨.

مناقشة الإلحاد المعاصر حول قانون التعليل

وإذا كنا نستدل على وجود الله ببرهان التعليل وأن كل معلول لابد له من علة، وعلة مايحدث فى الكون هو الله، فإن الإلحاد الحديث والمعاصر يحاول أن يهدم هذا الأساس بفكرة (نيوتن) التى ادعت أن الكون مرتبط بقوانين ثابتة تتحرك فى نطاقها الأجرام السماوية، ثم جاء من بعده آخرون فأعطوا هذه الفكرة مجالا علميا أوسع حتى قيل : إن كل مايحدث فى الكون من الأرض إلى السماء خاضع لقانون معلوم أسموه «قانون الطبيعة» فشروق الشمس وغروبها لايخضع لقوة إلهية، وإنما يحدث لسبب آخر وهو حركة دوران الأرض حول نفسها، والمطر لاينزل بقوة إلهية، بل بعملية التبخر للبحار وقوانين الجو.

ولذلك يقول هكسلى :«إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغى أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة»(١).

بمعنى آخر : لاداعى لنسبتها إلى (الله) فالطبيعة هى التى أوجدت العالم.

المناقشة :

ويمكن مناقشة الملحدين فى هذه النقطة بأن علومهم من الطبيعة والبيولوجيا إنما تبحث فيما هو واقع بالفعل وتقوم بوصف هذا الواقع ولكنها لاتفسره ولاتبين لنا سببه الأول، إنها تتحدث عن أسباب ومسببات ظاهرة للعيان ولكنها لاتحاول أن تسير سيراً منطقيا حتى تصل إلى السبب الأول من وراء الأسباب كلها.

ذلك أن العلوم التجريبية هى علوم وصفية تجيب عن السؤال (ماهذا) ولكنها لاتجيب عن السؤال (لماذا) إلا فى نطاق الواقع المشاهد لها وتعجز بعد ذلك عن بيان السبب الأول.

يقول العالم الطبيعى (بول كلارنس أيرسولد) :

لقد أدرك رجال العلوم أن وسائلهم وإن كانت تستطيع أن تبين لنا بشئ من الدقة والتفصيل كيف تحدث الأشياء، فإنها لاتزال عاجزة كل العجز عن أن تبين لنا لماذا تحدث الأشياء، إن العلم والعقل الإنسانى وحدهما لن يستطيعا أن يفسرا لنا لماذا

١- راجع ص ٢٥ من كتاب الإسلام يتحدى.

وجدت الذرات والنجوم والكواكب والحياة والإنسان بما أوتى من قدرة رائعة، وبرغم أن العلوم تستطيع أن تقدم لنا نظريات قيمة عن السديم ومولد المجرات والنجوم والذرات غيرها من العلوم الأخرى، فإنها لاتستطيع أن تبين لنا مصدر المادة والطاقة التى استخدمت فى بناء هذا الكون، أو لماذا اتخذ الكون صورته الحالية ونظامة الحالى»[١].

نعم قد يستطيع الإنسان إن يفسر ماكان غامضاً عليه باكتشاف القوانين التى تحكم الظواهر الطبيعية، ولكنه يعجز كل العجز عن سن هذه القوانين فهى من صنع الله وحده. ولايفعل الإنسان أكثر من أنه يكتشفها ثم يستخدمها فى محاولة إدراك أسرار الكون .. ويقف عند هذا الحد دون أن يسأل عن مقنن هذه القوانين وواضعها فى الكون.

فهل يعقل أن تكون المادة الصماء هى التى أوجدت هذا النظام وهذه القوانين ثم فرضتها على نفسها؟

إذاً كان على الملحدين لو أنصفوا ألا يقفوا عند حد اكتشاف القوانين بل كان عليهم أن يتساءلوا لماذا وجدت هذه القوانين؟ ولماذا قامت بين الأشياء المختلفة هذه العلاقات العديدة التى تتسم بهذا التوافق العجيب بين القوانين والأشياء بما يؤدى إلى تحقيق النفع والفائدة دائماً؟ لماذا يتبخر الماء عند تعرضه للحرارة؟ ولماذا يتجمد عند تعرضه للبرودة؟

لماذا تنزل الأمطار عندما تتعرض السحب لمنخفضات جوية؟

ولماذا تشرق الشمس فى كل صباح عندما تتم الأرض دورتها حول نفسها؟ ونشرح هذا الكلام بمثال بسيط :

إن الملحدين العلميين يقولون : إن الكتكوت يعيش أيامه الأولى داخل قشرة البيضة القوية ويخرج منها بعد أن تنكسر وكان الإنسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه، ولكننا شاهدنا اليوم بالمنظار أنه فى اليوم الحادى والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت يستعمله فى تكسير البيضة لينطلق خارجا منها ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة.

هذه المشاهدة كما يزعم الملحدون أبطلت الفكرة القديمة القائلة : بأن الإله يخرج الكتكوت من البيضة.

١- الله يتجلى فى عصر العلم ص ٣٧.

والحقيقة أن المشاهدة الجديدة لاتدلنا إلا على حلقات جديدة فى سلسلة العلل والمعلولات، ولكنها لاتكشف لنا عن السبب الحقيقى، فقد تغير الوضع الآن فأصبح السؤال لا عن تكسير البيضة بل عن (القرن).

إن السبب الحقيقى سوف يتجلى لأعيننا حين نبحث عن العلة التى جاءت بهذا القرن، العلة التى كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت قد استكمل أيامه وأصبح محتاجا إلى هذا القرن ليخرج من البيضة(١).

ومن هنا يتضح لنا أن الطبيعة وحدها عاجزة عن تفسير الكون لأنها فى ذاتها محتاجة إلى تفسير.

ولكن هناك نقطة هامة يجب التنبه لها وهى أننا كمؤمنين بالله لانرفض القوانين العلمية التى اكتشفها العلماء وفسروا بها بعض ظواهر الكون، بل الذى نرفضه هو أن تكون هذه النواميس والقوانين هى الأسباب النهائية، وإنما نقول هى أسباب ظاهرية ولها مسبب أول وهو الله تعالى، حتى لايفهم البعض أن هناك تعارضاً بين العلم وبين الدين، فالمفهوم الإلهى للعالم لايعنى الاستغناء عن الأسباب الطبيعية أو التمرد على شئ من حقائق العلم الصحيح، وإنما هو المفهوم الذى يعتبر الله سببا أعمق ويحتم على تسلسل العلل والأسباب أن يتصاعد إلى قوة فوق الطبيعية والمادة وبهذا يزول التعارض بينه وبين كل حقيقة علمية تماما، لأنه يطلق للعلم أوسع مجال لاستكشاف اسرار الطبيعة ونظامها، ويحتفظ لنفسه بالمفهوم الإلهى فى نهاية المطاف وهو وضع السبب الأول فى قوة أعلى من الطبيعة والمادة.

إذاً فليست المسألة الإلهية كما يشاء أن يصورها الماديون مسألة أصابع تمتد من وراء الغيب فتنزل المطر، وتحجب الشمس وتظهرها، فإذا كشف العلم الحديث عن أسباب المطر وعوامل التبخر، واذا كشف عن أسباب الكسوف واكتشف أن الأجرام السماوية ليست متساوية الأبعاد عن الأرض. وأن القمر أقرب إليها من الشمس، فيتفق أن يمر القمر بين الأرض والشمس فيحجب نورها عنا ويحدث الكسوف.

وإذا كشف العلم عن سبب الخسوف وهو وقوع القمر فى ظل الأرض، أقول إذا اكتشف العلماء هذه المعلومات فليس معنى هذا الاستغنا عن الله السبب الأول وواضع النواميس فى الكون(٢).

١- الإسلام يتحدى ص ٣٠.

٢- محمد باقر الصدر فلسفتنا ص ١٨٠ ومابعدها.

وهكذا نلاحظ أن الملحدين المحدثين يحاولون تبرير الإلحاد بأدلة موهمة لاحقيقة لها - وفى الوقت الذى يبررون فيه إلحادهم بالعلم وبالأدلة العلمية التى تتحدث عن الأسباب والمسببات الظاهرة ويتخذون قانون الحتمية كمبدأ لهم، فإنهم يخرجون على مقتضيات هذا القانون نفسه والذى يلزم العالم أن يسير مع العلل والمعلولات حتى النهاية ولايقف أمام العلل والمعلولات الظاهرة فقط، وإذا كان هو بمناهجه التجريبية لايستطيع الوصول إلى ذلك فإن ذلك لايكون داعياً للإنكار وإنما يكون داعياً إلى البحث عن مناهج أخرى تصلح للإثبات.

نعم فهناك المنهج العقلى والمنهج النقلى اللذان يثبتان وجود الله إثباتا لايجد العاقل معه انفكاكا.

وهذا ماغفل عنه دعاة العلمية الذين وضعوا أنفسهم فى حلقة مفرغة. فإذا ماقلنا لهم : إن لهذا الكون إلها قادراً منظما منسقاً، قالوا : إن قانون الحتمية الطبيعية هو المنظم الظاهر لهذا الكون، بحكم منهج البحث العلمى التجريبى، وإذا ماقلنا لهم : إن قانون الحتمية والتعليل نفسه يثبت وجود علة أولى وسبب أول للأسباب الظاهرية التى اكتشفها علم الطبيعة والبيولوجيا، يقولون : ليس هذا من مجالنا لأننا نبحث فيما هو واقع ومشاهد وحادث ولانبحث فيما وراء ذلك.

وهكذا يخرجون على مقتضيات العلم والمنهج العلمى، ويتناقضون مع أنفسهم؛ لأنهم يعتمدون على قانون التعليل فى العلوم التجريبية، ثم يهملونه فى مجالات أخرى، وأنه لأمر عجيب أن يصف هؤلاء الملحدون أنفسهم بالعلميين ثم يخرجون على مقتضيات العلم وأسسه.

وإنه ليعجبنى فى هذا المقام نص للفيلسوف الألمانى المعاصر «جوزيف بوخينسكى» يقول فيه :«نظراً إلى أن العلم على وجه العموم لايقدم لنا إلا قضايا احتمالية أو ترجيحية، فإنه قد يحدث أنه يجوز رفضها باسم البداهة والوضوح المباشر، فالعلم ليس معصوماً من الخطأ، فإذا وجدنا شيئاً آخر بدهياً غير مايدعيه العلم، فإنه يجوز لنا وينبغى علينا أن نقف بجانب البداهة والوضوح المباشر ضد النظريات العلمية»[1].

نعم أننا نرفض الألحاد المعاصر.

١- مدخل إلى الفكر الفلسفى ص ٧٢ ترجمة د. محمود حمدى زقزوق.

نرفضه باسم العلم الذى خرج هو نفسه على مقتضياته، فإذا كان نيوتن يزعم أن الحتمية هى قانون الوجود، فإن النظريات الرياضية الحديثة تبطل هذا الزعم، فقد أثبت (كينز) نظرية الاحتمالات التى تفسح مجالا واسعا لتخلف الأسباب عن المسببات.

والاحتمال لفظ يدل على التوقع وعدم الجزم.

وتوضيح ذلك : نفترض أن لدينا الحالات (أ) (ب) (جـ) وبينها ارتباط سببى ظاهرى، فبينما كانت نظرية الحتمية تؤكد ان الحالة (أ) لابد أن تتبعها الحالة (ب) وإن الحالة (ب) لابد أن تتبعها الحالة (جـ)، فإن نظرية الاحتمالات تقول لوحدثت الحالة (أ) فإنه يحتمل أن تتبعها الحالة (ب) أو (جـ) أو (د) أو حتى غيرها من الحالات، وكل مايمكن أن يقوله العلم هو أن احتمال حدوث (ب) بعد(أ) أكبر من احتمال حدوث (جـ)، ولكن على الرغم من ذلك فإننا لايمكن أن نتنبأ أى الحالات تتبع الأخرى بالضبط، فنحن نتحدث عن احتمال الوقوع أما الحكم المؤكد فهو فى علم الله وخاضع لمشيئته[1].

وهذا مايشير إليه قول الله تعالى «ولاتقولن لشئ إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله» «وماتشاؤن إلا أن يشاء الله» وقول الرسول صلى الله عليه وسلم «ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن».

إذا فهناك إرادة الله الحرة من حتمية الأسباب والمسببات، وإذا كنا رفضنا الإلحاد باسم العلم، فإننا نرفضه باسم البداهة والفطرة النقية التى تنطق بإثبات وجود الله.

وإذا كانوا يقولون : إن العلم لايستطيع أن يثبت وجود الله، فإننا نقول لهم : ولايستطيع أن ينفيه.

ولو كنتم علميين بحق ومحايدين فى أبحاثكم لاعترفتم بذلك لتفسير ماعجز العلم عن تفسيره[2]. وهو السبب الأول الذى نظم الأسباب المباشرة وقوانين الحتمية والتعليل، وأليس كل قانون محتاج إلى مقنن؟

وإذا لم تعترفوا بذلك سقط العلم التجريبى كله.

١- راجع فى توضيح نظرية الاحتمالات كتاب شواهد العلم فى هدى القرآن للأستاذ محمد سعدى المقدم ص ٦٤ القاهرة ١٩٥٠، وكتاب الاستقراء والمنهج العلمى د. محمود فهمى زيدان ص ١١٦ ومابعدها - القاهرة ١٩٨٠.

٢- وقد اعترف نيوتن مخترع قانون الجاذبية بعجز العلم عن تفسير هذا القانون فقال :«إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لاحياة فيها ولاإحساس وهى تؤثر على مادة أخرى مع أنه لاتوجد أية علاقة بينهما».

راجع ص ٤٣ من الإسلام يتحدى.

والرد التقليدى الذى يقوله الماديون : بأن هذا الكلام يلقى بنا إلى غيبيات لامجال اليقين فيها.

والجواب : وهل كلامكم عن الإلحاد وإنكار وجود الله إلا ضرب من الغيبيات؟ من الذى كان موجوداً منكم عند بدء الخلق لكى يشاهد أنه فى البداية كانت المادة وحدها ولم يكن الله؟ أم أن هناك فرقا بين الغيب المادى والغيب الإلهى؟

إذاً فالمسألة كلها رجم بالغيب من أناس يتهموننا نحن بالغيب (ماأشهدتهم خلق السموات والأرض ولاخلق أنفسهم وماكنت متخذ المضلين عضدا).

وإذا كان العلماء التجريبيون يعتبرون لفظ (الله) من قبيل الغيبيات التى لايمكن إثباتها لأنها لن تخضع للمنهج العلمى التجريبى، فإننا نقول لهم : إنكم تقولون ألفاظاً وتؤمنون بوجودها إيماناً جازماً، ولكنكم لاتعرفون معناها ولم تستطيعوا إخضاعها للمنهج العلمى، إنكم ترددون دائماً ألفاظ «القوة» و «الطاقة» و «الذرة» و «الإلكترون» «وقانون الطبيعة» و «الكهرباء» و «المغناطيسية» إلى غير ذلك من الألفاظ، ولكن أحداً منكم لايعرف مامعنى هذه الألفاظ، وإذا سألته عنها أجابك بآثارها، فهو يعرف الكهرباء بالنور مثلا، ولكنه لايعرف ماهى الكهرباء فى ذاتها؟ ويعرف المغناطيسية بالجذب، ولكنه لايستطيع تحديد ماهيتها.

وهكذا نلاحظ أنهم يصوغون كلمات للتعبير عن وقائع معلومة لكى يبينون عللا غير معلومة[1]، ولكنهم عاجزون تماماً عن تفسير هذه الكلمات تماماً كما نؤمن نحن بوجود الله عن طريق آثاره فى الكون، فما بالهم يحرمون علينا ما أحلوه لأنفسهم، وهو الإيمان بالغيبيات والاعتراف بوجودها وتأثيرها فى ظواهر الطبيعة المحسوسة؟

مع أن العلم قد غرق فى الغيبيات إلى أذنيه[2].

يقول العالم الطبيعى (ميريت ستانلى) : لقد درسنا الذرة واستخدمنا مانعرفه من قوانين الكتلة والطاقة فى استنباط صفاتها وتركيبها وخواصها، ونحن مع ذلك لم نر الذرة حتى اليوم بطريقة مباشرة، ولقد أيدت القنبلة الذرية الأولى ماوصلنا إليه من قوانين ونظريات حول تركيب الذرة غير المنظورة ووظائفها.

١- الإسلام يتحدى ص ٤٢.

٢- الشيخ محمد حسن آل ياسين - المادة بين الأزلية والحدوث ص ٧.

إننا نستدل على هذه الظواهر جميعاً بآثارها فى ذلك على الاستدلال المنطقى الصرف وعلى مالدينا من حقائق أولية بسيطة تتعلق بهذه الظواهر(١).

وهكذا يتضح لنا عدم الموضوعية عند بعض العلماء التجريبيين الذين ينكرون وجود الله، حيث يقيمون أحدث النظريات العلمية على أساس أشياء غير مرئية وغير معروفة بجوهرها - ومع ذلك ينكرون على المتدينين إيمانهم بقوة غير مرئية يعرفونها بآثارها، وهى : الله سبحانه وتعالى.

وإذا كان العلم قد أثبت أن الموجودات غير محصورة فى المحسوسات فمن الواجب أن نسلم بقيام موجودات لاتحيط بها الحواس والعقول؛ لأن إنكارها جهل لايقوم على دليل ولأن وجودها ممكن وليس بالمستحيل.

وغاية مايملكه المتردد فى حقيقة الموجودات الخفية أن يقول : إن وجودها غير ثابت لديه، أما أن يدعى أن وجودها غير ثابت له ولالغيره، فذلك قول لاحق له فيه ولاسند له عليه، وقد يكون المصدق بالخرافات أحكم منه رأياً وأصوب منه فكراً؛ لأنه يصدق شيئاً قد يتسع للتصديق والتكذيب(٢).

إن العلم الحديث يقول : إن فى هذا المكان الخالى أصواتاً وأحاديث ولكننا لانسمعها.

ويقول : إن فيه صوراً وأشخاصاً موجودة ولكننا لانراها - وافتح المذياع أو التليفزيون لكى تتأكد من هذه الحقيقة؟ فما بال العلماء التجريبيين يزعمون أن الموجود هو المحسوس فقط مع أن العلم أثبت وجود ماليس بمحسوس؟

الطبيعة العاجزة :

ونصل فى المناقشة إلى ادعائهم أن **الطبيعة هى التى خلقت الكون** وهو اعتراف بالسببية يحتوى على جهل بالمسبب، بمعنى : أن هؤلاء اعترفوا بأن هذا الكون لابد له من سبب أوجده، ولكنهم ضلوا وغفلوا عن السبب الحقيقى الذى خلق الكون فأضافوا الخلق إلى الطبيعة.

وفى البداية نسأل : ماهى الطبيعة؟

والجواب : أن للطبيعة مفهومين :

١- الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٧.

٢- عباس محمود العقاد - الله ص ٤٢.

المفهوم الأول : أنها عبارة عن الأشياء ذاتها، الجماد والنبات والحيوان والرياح والأمطار، أو قل : هى جملة الموجودات المادية(١).

المفهوم الثانى : أنها عبارة عن صفات الأشياء وخصائصها من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة. والقابليات من : الحركة والسكون والنمو والاغتذاء والتزاوج والتوالد، وغيرها من القابليات.

ولو أخذنا الطبيعة بالمفهوم الأول لوجدنا أن الحاصل هو أن الأرض خلقت الأرض والسماء والجمادات صنعت نفسها(٢). وهذا خروج على قوانين العقل، وأهمها قانون السببية الذى اعترفوا به منذ قليل، إذ أن السبب غير المسبب والفاعل غير المنفعل، والسبب سابق على المسبب والمسبَبَ متأخر عن السبب، ولكن كلامهم هذا يستلزم أن يكون السبب هو عين المسبب، وأن يكون الشئ متقدما ومتأخراً فى آن واحد، فهو متقدم باعتباره سبباً ومتأخر باعتباره مسبباً، وهو كلام لايقوله الأطفال فضلا عن العقلاء والعلماء.

ولو أخذنا الطبيعة بالمفهوم الآخر، مفهوم الصفات والقابليات، فإن لنا أن نسأل : من الذى وضع هذه الصفات ومن الذى حدد هذه القابليات؟

من الذى وضع فى الحبة قابلية الانتفاخ والانفلاق حين توضع فى الماء والتراب؟ ومن الذى أخرج منها الجذور والسيقان؟ ومن الذى أعطاها قابلية الإثمار؟

لو قلنا : إن الماء هو الذى صنع كل ذلك، فهل يستطيع الماء أن ينفخ فى الحديد ويفلقه؟ اللهم لا.

إذاً فلابد أن يكون هناك سبب آخر هو الذى وضع هذه الصفات وهذه القابليات، إنه الله الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى، وهكذا يقف الملحد عند حدود الظواهر المحدودة دون محاولة للبحث عما وراء الظواهر.

(إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون»(٣).

وأخيراً أيها العقلاء، إن الطبيعة صماء لاتسمع وأنتم تسمعون، فمن أين جاء لكم

١- راجع كتاب الطبيعة ص ٨ د. يوسف كرم.

٢- سعيد حوى - الله ص ٩١.

٣- سورة الأنعام آية : ٩٥.

السمع ومن تدعون أنها قد خلقتكم فاقدة له؟

إن الطبيعة لاتعقل وأنت تعقلون.

إن الطبيعة لاإرادة لها ولااختيار وأنتم مريدون.

إن الطبيعة بكماء لاتتكلم وأنت تتكلمون.

إن الطبيعة تحتوى على كل صفات النقص وأنتم كاملون، فمن أين لكم بهذا الكمال؟

وهل يكون المخلوق أسمى من الخالق؟

وهل فاقد الشئ يعطيه؟

إن الجواب على ذلك مرهون بمدى ذكائكم.

ياهؤلاء :

إن الطبيعة مخلوق لاخالق، ومصنوع لاصانع، ومنفعل لافاعل، فأنتم الذين تتحكمون فيها بعلمكم وفكركم، وتسخرونها فى خدمة أغراضكم فعودوا بفكركم إلى ماوراء الطبيعة تشاهدون خالقها لو كنتم عقلاء، ثم تأملوا مصنوعات اللّه تجدون فيها النظام والعناية والتدبير الذى لايمكن أن يكون موجوداً بالمصادفة.

وهذا ماسوف نفصله من خلال دليل العناية.

برهان العناية والغائية والنظام

تمهيد :

لقد أثبتنا – من خلال برهان الحدوث – وجود المحدث والخالق، غير أن ظواهر الخلق ومظاهر الموجودات لاتدل فقط على أن لها خالق، بل تدل أيضاً على أن هذا الخالق معتنى بخلقه ومنظم له وواضع لكل شئ فى موضعه الملائم.

وبمعنى آخر، إن ظواهر الخلق لاتدل على مجرد الخلق من العدم، وإنما تدل أيضا على أن هذا الخالق مستمر فى خلقه للعالم، وأنه مايزال يمد الخلق بإمكانيات الوجود فى كل لحظة وأنه لولا عنايته ورعايته المستمرة لخلقه لزال الخلق من الوجود ولأصبح حطاما لامعنى له، ومن هنا وصف الخالق بأنه الحى القيوم الذى لاتأخذه سنة ولانوم، وإلا لأصبح الوجود عدماً، وهذا ماتشير إليه الآية الكريمة :«إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفوراً»[١] وهذا ماأثبته علم الفسيولوجيا وعلم الطبيعة، حيث يقول العلماء : إن كل حركة تصدر من إنسان أو حيوان، إنما يصاحبها احتراق جزء من المادة العضلية، وكل فعل من الحس أو الإرادة ينشأ عنه فناء فى الأعصاب وكذا كل تفكير ينشأ عنه إتلاف فى الدماغ، ومعنى ذلك : أنه لايمكن أبداً لذرة واحدة من المادة أن تصلح مرتين للحياة، فإذا مابدأ عمل عقلى أو عضلى فالجزء من المادة الحية الذى يصرف لصدور الفعل والعمل إنما ينعدم تماما، فإذا عاد العمل وتكرر نجد أنه قد عوض المادة القديمة بمادة جديدة عن طريق الهواء والمواد الغذائية. معنى ذلك : أن الإنسان يخلق فى كل لحظة خلقاً جديداً[٢].

نقول هذا الكلام ردا على بعض العلماء وبعض الفلاسفة الذين ادعوا أن الله خلق العالم وأودع فيه القوانين ثم تركه يسير بذاته، لا .. فالله لم يترك العالم لحظة واحدة، بل عنايته ورعايته وحكمته وتدبيره تحوط بالعالم من أقصاه إلى أقصاه، ومن ذرته إلى مجرته.

وفى القرآن الكريم عشرات الآيات التى تلفت أنظار الناس إلى عناية الله وتنظيمه له وتدبيره. منها قول الله تعالى :

١– سورة فاطر الآية : ٤١.

٢– راجع ص ٨ من كتاب العدل الإلهى للأستاذ حسن حسين.

«اللّه الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار* وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار* وآتاكم من كل ماسألتموه، وإن تعدوا نعمة اللّه لا تحصوها، إن الإنسان لظلوم كفار»[١].

وقوله تعالى :«أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حى، أفلا يؤمنون* وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون* وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون* وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون»[٢].

وقوله تعالى :«وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب»[٣].

وقوله تعالى :«وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر»[٤].

وقوله تعالى :«واللّه جعل لكم من أنفسكم أزواجا، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة اللّه يكفرون»[٥].

وقوله تعالى :«واللّه أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والبصر والأفئدة لعلكم تشكرون* ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن إلا اللّه، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون»[٦].

وقوله تعالى :«ألم تر أن اللّه أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود* ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى اللّه من عبادة العلماء[٧].

وقوله :«وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً

١- سورة إبراهيم : الآيات من ٣٢ - ٣٤.

٢- سورة الأنبياء : الآيات ٣٠ - ٣٣.

٣- سورة يونس : الآية ٥.

٤- سورة الأنعام الآية : ٩٧.

٥- سورة النحل الآية : ٧٢.

٦- سورة النحل الآية : ٧٩.

٧- سورة فاطر الآيات : ٢٧ - ٢٨.

أكله، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمرة إذا أثمر، وآتوا حقه يوم حصاده ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين* ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولاتتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين»(١).

هذه آيات قليلة اجتزأتها من عشرات الآيات الدالة على عناية الله بخلقه، وجاء العلم الحديث لكى يشرح لنا هذه الآيات، ففى كل يوم يكتشف حقيقة جديدة تثبت هذه العناية وهذا النظام الإلهى فى الكون، غير أن مااكتشفه العلم هو أقل بكثير مما لم يستطع اكتشافه، فآيات الله فى الكون لايمكن أن تحصى أو تعد، حتى إنه لو قدر لبنى البشر أن تتكشف لهم جميع آيات الله فى الكون ثم جلسوا جميعا لتدوينها وقد تحولت أشجار الأرض إلى أقلام وأنهار العالم إلى حبر ومداد لما استطاعوا ذلك، وهذا مصداق قول الحق تبارك وتعالى :«ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله»(٢).

وقوله :«قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا»(٣).

نعم، نحن لانستطيع أن نحصى آيات الله فى الكون ولكننا فقط سوف نحاول أن نشير إلى بعض آياته فى آفاق الكون المتسع، تلك الآيات التى أشار إليها القرآن الكريم وفصلها العلم الحديث مما يؤكد لنا أن القرآن والكون صورتان لحقيقة واحدة، فالقرآن هو كتاب الله المتلو والكون هو كتابة المجلو.

وها نحن الآن نبين حديث العلم عن العناية بالكون من أصغر شئ موجود وهو الذرة إلى أكبر شئ وهى الأفلاك والمجرات والسديم(٤).

عناية الله بالكون :

أبسط وحدة فى الوجود هى الذرة التى فتتها العلم الحديث وأظهر مكوناتها وأكبر وحدة فيه هى الأفلاك والمجرات السابحة فى الهواء.

١- سورة الأنعام الآيات من ١٤١ - ١٤٣.

٢- سورة لقمان آية : ٢٧.

٣- سورة الكهف الآية : ١٠٩.

٤- هو مجموعة مجرات - والمجرة مجموعة نجوم، والنجم متغاير الحجم، فمنه مايزيد على حجم الشمس عشرات المرات ومنه مايقل حجمه عن الأرض.

وبين الذرة والمجرة توجد الخلية الحية التى تكون الإنسان والحيوان والنبات. وقد أثبت العلم أن كل شئ فى الكون يسير بنظام خاص وتقدير معين، مصداقاً لقول الله تعالى :(إنا كل شئ خلقناه بقدر).

وتعالى معى نعاين تقدير الله فى الذرة وفى الإنسان وفى الأرض وفى الأفلاك وفى بعض مايقع تحت الحس البشرى.

الذرة :

الذرة عالم صغير تناهى فى صغرة إلى الحد الذى لايمكن أن يرى بالمنظار الذى يكبر الأشياء ملايين المرات، فهى بناء على هذا ليست شيئاً، ولكن تعال إلى مايقوله العلم عن نظام الذرة.

يقول العلم الحديث : إن الذرة مؤلفة من جزئيات كهربائية. سالبة وموجبة.

والموجبة : يطلق عليها اسم البروتون.

والسالبة : يطلق عليها اسم الإلكترون. وبعض الذرات فيها زيادة على ذلك شحنة معتدلة تسمى نيترون وهناك جسيمات اخرى داخل الذرة منها : اليوزيترون - الميزون باى - الميزون الخفيف والثقيل والمتعادل - الفوتون - الهيبرون»

وعلى الرغم من أن العلماء - كما يقولون - اكتشفوا كل هذه العناصر فى الذرة، فإنهم لم يشاهدوا الذرة ولامكوناتها بطريق مباشر، وانما اثبتوها عن طريق آثارها بوسائل منها.

١- رؤية وميض.

٢- الكشاف الكهربى.

٣- عداد مولر.

٤- الغرف السحابية.

٥- الالواح الفوتوغرافية.

وبالرغم من هذه الوسائل كلها لم يتمكن أى إنسان من رؤية شئ مما فرض وجوده ولكنهم يستخدمون المنطق الرياضى فى الاستدال على وجودها وحركتها(١).

ولكن كيف تسير عناصر الذرة؟

١- كمال بنيامين - العلم والمنطق والايمان ص ١٨-الانجلو المصرية.

يقول العلماء ان هذه العناصر الثلاثة تسير بنظام عجيب :

إذ أن البرتون والنيترون يشكلان نواة الذرة، بينما الإلكترون يشكل كوكب سيار يدور حولها بسرعة هائلة، وبسبب هذه السرعة الهائلة فى حركة الإلكترون يبقى متحركا، ولولا هذه السرعة لجذبته كتلة النواة وعندئذ يكون العجب، إذ فى هذه الحالة يصبح جرم كالكرة فى حجم البيضة، إذ أن الفراغ كبير جداً فى عالم الذرة، فكتل الجزئيات لاتأخذ إلا حيزاً صغيراً جداً من فراغ الذرة الواسع، ويلاحظ أن البعد بين النواة والإلكترون الدائر حولها كالبعد بين الشمس وكواكبها السيارة نسبياً (أى بالنسبة إلى الحجم فى كل)[١].

ويلاحظ :

١- أن عدد الإلكترونيات فى مدار الذرة الخارجى يكون مطابقاً لعدد البروتونات، فإذا كان فى نواتها برتون واحد واحد كان فى المدار إلكترون واحد. كما فى الهيدروجين.

٢- وإذا كان فى النواة (بروتونان) كان فى المدار إلكترونان، وبناء على عدد الإلكترونات والبروتانات فى الذرة توصل العلماء إلى تحديد العناصر الموجودة فى الكون، وحددوا لكل عنصر حقيقته، فالفارق بين الهيدروجين والأورانيوم، أن الأول فيه برتون واحد وإلكترون واحد بينما الأورانيوم فيه (٢٣٨) بروتون ومثلها إلكترون.

أن الإلكترونات رغم كثرة عددها ورغم سرعتها الهائلة لايصطدم بعضها ببعض.

٣- أن مكونات الذرة لاحقيقة لها أكثر من نقط وهمية سابحة فى الفضاء تدور حول مركزها بنفس النظام الذى تتبعه الأرض فى دورانها حول الشمس، بحيث لايمكن تصور وجود الإلكترون فى مكان محدود بسرعة دورانه؛ لأنه يدور حول مداره بلايين المرات فى الثانية الواحدة[٢].

هذا مايقوله العلم عن الذرة، فلماذا لانأخذ منه دليلا على وجود المنظم القائم على هذا التنظيم العجيب فى حركة الذرة؟

٤- أن سلوك الذرة ليس سلوكا عشوائيا وإنما هو سلوك منظم جعل العلماء

١- راجع كتاب «الله» لسعيد حوى ص ١٦.

٢- الإسلام يتحدى ص ٥٤.

يكتشفون العناصر الموجودة فى الكون، وجعلهم يعرفون كيف تتفاعل العناصر مع بعضها، وماهى العناصر التى يمكن تفاعلها، والعناصر الأخرى التى لايمكن أن تتفاعل؟

وانظر إلى العناصر الكيمائية الموجودة فى الكون والتى يبلغ عددها أربعة بعد المائة ولاحظ مابينها من أوجه الشبه وأوجه الاختلاف العجيبة، فمنها الملون ومنها غير الملون، وبعضها غاز، وبعضها سائل، وبعضها صلب، وبعضها خفيف وبعضها ثقيل، وبعضها موصل جيد والآخر ردئ التوصيل، وبعضها مغناطيسى والآخر غير مغناطيسى، وبعضها معمر والآخر لايبقى إلالفترة محدودة، ومع ذلك فكلها تخضع لنظام واحد هو نظام الذرة ومكوناتها ودوراتها، لدرجة أن العالم الروسى (ماندليف) قد صنف العناصر الموجودة فى الكون بحسب وزنها الذرى وعدد الإلكترونات والبروتونات والنيوترونات الموجودة فيها، وكان ترتيب العناصر فى الجدول الذى وضعه (ماندليف) متدرجا حسب قانون دورى تخضع له كل العناصر بحيث تشكل سلماً متدرجاً صاعداً ولكن (ماندليف) فوجئ بفراغ إذ أنه وجد أن درجات السلم الدورى للعناصر تطرد بتتابع لافراغ فيه إلا فى ثلاثة عناصر، فإما أن يكون هذا القانون الدورى غير مطرد وغير صحيح، وإما أن يكون صحيحا ومطرداً وحينئذ فلابد من وجود هذه العناصر الثلاثة المفقودة وكان (ماندليف) على ثقة من صحة القانون الدورى للعناصر فراح يحدد خصائص العناصر المفقودة إلى أن اكتشفها العلم وصدق كلام ماندليف[1]؟

إذاً فهذا النظام الصارم الذى لايتخلف فى حركة الذرة من الذى وضعه ومن الذى ضبط عدم تخلفه؟ إنه الله سبحانه وتعالى.

ونأتى إلى الوحدة الثانية بعد الذرة وهى الخلية الحية التى تتكون من عدد من الذرات، وقد تحدثنا عن تكون الخلية الحية والنسب التى توجد فيها سابقا مما لاداعى لإعادته هاهنا، ولكننا فقط نريد أن نتسآل عن السبب الذى نظم هذه العناصر وحدد نسبها مع أنه لو اختلت هذه النسبة ولو بواحد فى المليون لتحولت الخلية إلى شئ آخر لاحياة فيه؟

١- الله يتجلى فى عصر العلم ص ٢٢.

الإنسان :

وتعال إلى الإنسان الذى هو مجموعة من الخلايا الحية وانظر إلى عناية الله به ورعايته له منذ وجوده فى رحم الأم، وكيف يوضع فى قرار مكين حتى لايتعرض للهلاك، ثم كيف يدبر الله له أمر غذائه، وكيف يسير فى أطواره حتى ينزل إلى الوجود إنساناً كاملا مزودا بكل ماتحتاجه حياته، وينعم الله عليه بالسمع والبصر والعقل وغير ذلك من النعم التى لاتعد ولاتحصى، ويعجب الإنسان من تنظيم الله لأجهزة الإنسان سواء منها جهاز المعدة أو جهاز التنفس أو الجهاز البولى أو الجهاز العصبى، وسوف نضرب مثلا بالجهاز العصبى للإنسان :

إننا نتحير إذا رأينا النظام المعقد للأجهزة اللاسلكية وكيف تنقل لنا الأخبار من آلاف الأميال فى ثوان معدودة، وإذا كان هذا الأمر البسيط يلفت نظرنا بهذا الشكل، فما بالنا بالنظام العصبى للإنسان الذى ينقل ملايين الأخبار فى أقل من الثانية، هذه الأخبار التى توجه القلب وتتحكم فى حركات جميع الأعضاء.

ومركز هذا النظام للمواصلات هو (مخ الإنسان) وفيه يوجد ألف مليون خلية عصبية، ومن كل هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر فى سائر الجسم، وتسمى هذه الأسلاك بالأنسجة العصبية، وفى هذه الأنسجة يجرى نظام استقبال وإرسال للأخبار بسرعة سبعين ميلا فى الساعة، وبواسطة هذه الأنسجة نتذوق ونسمع ونرى ونباشر أعمالنا.

وتوجد فى الأذن عشرة آلاف خلية سمعية تمكن الإنسان من السمع وفى كل عين مائة وثلاثون مليونا من الخلايا الملتصقة بالضوء.

وهناك شبكة من الأنسجة الحسية على امتداد جلدنا، فإذا قربنا إلى الجلد شيئا حارا، فإن ثلاثين ألفاً من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها فوراً إلى المخ فيرسل المخ أوامره إلى الجلد بمحاولة الابتعاد.

وإذا قربنا إلى الجلد شيئاً بارداً فإن ربع مليون من الخلايا التى تلتقط الأشياء الباردة تحس به وترسل الأخبار إلى المخ فيرسل المخ أوامره إلى الشرايين كى تتسع فيسرع مزيد من الدم اليها ويزودها بالحرارة[١].

١- راجع علم النفس الفسيولوجى للدكتور عباس محمود عوض ص ٤ ومابعدها، وقارن ص ٥٤ من الإسلام يتحدى.

هذه نماذج بسيطة من عمل المخ وإلا فإن العلماء يذكرون للمخ الإنسانى أعمالا وتنظيمات وتخطيطات لايسع الإنسان أمامها إلا أن يعترف بالمخطط والمنظم والمبدع (تبارك الله أحسن الخالقين).

لقد حاول العلماء أن يقلدوا مخ الإنسان فاخترعوا عقلا إلكترونيا يقوم ببعض وظائف العقل الإنسانى، وبعد سنين عديدة ركبوا الجهاز فكان حجمه ثلاث أضعاف حجم أكبر بيانو مع أن المخ الإنسانى الذى يقوم بأضعاف أضعاف مايقوم به العقل الإلكترونى، حجمه صغير للغاية.

ولذلك قال (كلودم هاثاوى) أحد مصممى هذا العقل. «ليس العالم من حولنا إلا مجموعة هائلة من التصميم والإبداع والتنظيم، وبرغم استقلال بعضها فإنها متشابكة متداخلة، وكل منها أكثر تعقيداً فى كل ذرة من ذرات تركيبها من ذلك المخ الإلكترونى الذى صنعته، فإذا كان هذا الجهاز يحتاج إلى التصميم، أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجى البيولوجى الذى هو جسمى. والذى ليس بدوره إلا ذرة بسيطة من ذرات هذا الكون اللانهائى فى اتساعه وإبداعه إلى مبدع يبدعه»(١).

وهكذا يكشف لنا العلم كل يوم عن إبداع الله فى كونه وعنايته به مما لايسع أى عاقل إلا أن يسجد لله شكراً على هذا الإبداع، ذلك أن المشتغل بالعلوم هو أول من يجب عليه التسليم، بوجود عقل مبدع لاحدود لعلمه أو قدرته (إنما يخشى الله من عباده العلماء).

الحيوان :

وأما عن إبداع الله فى الحيوان فهو شئ لايصدقه عقل، وانظر إلى أنواعه وأشكاله من حيث ضخامة جسمه كالفيل أو عدم الضخامة حتى يبلغ فى الصغر حدا لايرى إلا بالآلات المكبرة، ومع ذلك نجد له جهازاً هضمياً كاملا يحتوى على الفم والمرئ والبلعوم والمعدة والأمعاء.

ثم نعجب من طريقة حياة الحيوان وكيفية محافظته على حياته كيف يعيش النمل، وكيف يجمع طعام الشتاء فى الصيف.

كيف ينظم النحل مملكته وينظم حياته بصورة يقف أمامها العقل عاجزاً.

١- الله يتجلى ص ٩٠.

ثم ماحكاية هذا الوطواط الذى لايرى نهاراً ومع ذلك يطير ولا يصطدم بشئ، لأن الله سبحانه وتعالى قد زوده بجهاز (رادار) عجيب يجعله يتجنب مايصطدم به.

ومن عجيب مايروى عن إبداع الله فى عالم الحيوان ماروواه الأستاذ (ميلن) من أن هناك حيوانا يسمى (إكسيلوكوب) يُرى طائراً فى الربيع ويعيش منفرداً، ويموت بعد أن يبيض مباشرة فلايرى صغاره، ويعيش فى مكان محكم حتى إذا حان وقت البيض عمدت الأنثى إلى قطعة من الخشب فحفرت فيها سردابا طويلا ثم عمرته بذخيره تكفى صغارها سنة كاملة، وهى طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية، وتأتى بنشارة الخشب تجعلها سقفاً على تلك البيضة، ثم تجئ بذخيره جديدة تضعها فوق ذلك السطح، ثم تضع بيضة أخرى - وهكذا تبنى بيتها مكونا من جملة أدوار، فإذا تم لها ذلك، ودعته وهلكت[1] وتخرج الصغار لكى تقوم بنفس الدورة، فمن الذى علمها؟ من الذى نظم لها حياتها؟ إنه الله رب العالمين.

النبات :

وفى النبات آية على إبداع الله، فى شكله وفى طعمه وفى نوعه، وفى حياته وخروجه من قلب الأرض دليل على المحيى المميت، وإلا فحدثنى عن هذه النباتات التى تخرج فى الصحراء بلا ماء ولارعاية، من الذى زرعها ومن الذى رعاها؟ «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاهو ويعلم مافى البر والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة فى ظلمات الأرض ولارطب ولايابس إلا فى كتاب مبين»[2].

ويقول العلماء : إن هناك أنواعا من النباتات يسخر الله لها أنواعا من الحيوانات لكى تقوم بنقل حبوب اللقاح من الذكر إلى الأنثى.

ومن هذه الأنواع مايعرف (بنبات اليوكا) وزهرته تتدلى إلى أسفل ويكون عضو التأنيث فيها أكثر انخفاضاً عن عضو التذكير، فتأتى فراشة تسمى فراشة اليوكا وتقوم بنقل حبوب اللقاح من عضو التذكير إلى عضو التأنيث فى نبات اليوكا، وهناك كثير من الأزهار التى تسجن الحشرات داخلها، ومن أمثلتها الزهرة المسماة (جاك فى المقصورة) ولها نوعان : ذكور وإناث ويتم التلقيح بينهما بواسطة ذبابة دقيقة تقف على عضو التذكير فإذا به يلفها بداخله وتجد نفسها سجينة حيث يغطى النبات نفسه من

١- راجع ص ١١ من كتاب العدل الإلهى - حسن حسين.

٢- سورة الأنعام آية : ٥٩.

الداخل بمادة شمعية منزلقة يتعذر على الحشرة أن تثبت أقدامها، وعندئذ تدور الحشرة بصورة جنونية داخل المكان حتى تتعلق بها حبوب اللقاح، وبعد قليل يسمح النبات للحشرة بالخروج، وهنا تذهب الحشرة إلى النبات المؤنث وتضع ماتحمله من حبوب اللقاح(١).

سبحان الله ماهذا التنظيم؟ وماهذا التوافق والانسجام العجيب بين هذه الأشياء التى خلقها الله؟!

الأرض :

حتى الأرض التى نعيش عليها تنطق بعظمة إبداع الله وغريب عنايته بها.

كيف خلقت الأرض ملائمة لحياة كل من يعيش عليها رغم أن العلم يقول : إنها مجرد كرة معلقة فى الهواء ولكنها تدور حول نفسها بطريقة منظمة دقيقة.

وتدور حول نفسها فيكون فى ذلك تتابع الليل والنهار.

وتدور حول الشمس مرة كل عام فيكون فى ذلك تتابع الفصول.

ويحيط بالأرض غلاف غازى يشتمل على الغازات اللازمة للحياة، ويبلغ هذا الغلاف الغازى من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة التى تأتى من الكواكب الأخرى.

كما أن الغلاف الجوى المحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها المناسبة للحياة ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يمكن أن يتكاثف مطراً يحى الأرض بعد موتها، ومن هنا نلاحظ التوازن بين الجو وبين المحيطات.

ثم إن هذه المحيطات الممتدة فى أنحاء الأرض لها وظائف أساسية وبدونها تتعذر الحياة على الأرض، كما أن الجبال أيضا لها وظائف أساسية فى الأرض.

أما الأرض اليابسة فهى بيئة ثابتة لحياة كثيرة من الكائنات الأرضية، فالتربة تحتوى على العناصر التى يمتصها النبات ويحولها إلى أنواع مختلفة من الطعام يفتقر إليها الإنسان والحيوان.

وعلى هذا، فإن الأرض مهيأة على أحسن صورة للحياة، ولاشك أن كل هذا من تيسير حكيم خبير، وليس من المعقول أن يكون مجرد مصادفة أو خبط عشواء(٢).

١- الله يتجلى ص ٤٨.

٢- المرجع السابق ص ٧.

ولوكانت الأرض على غير ماهى عليه الآن لاستحالت الحياة عليها. وإليك مجرد أمثلة بسيطة.

١- لو كان حجمها أقل مما هى عليه الآن لقلت الجاذبية فيها ولما استطاعت أن تمسك الماء والهواء من حولها كما هو الحال فى القمر الذى لايوجد فيه ماء ولايحيط به غلاف هوائى، ويترتب على ذلك أيضا أن تشتد البرودة ليلا إلى حد التجمد وتشتد الحرارة نهاراً إلى حد الاحتراق.

٢- لو كان حجمها أكبر مما هى عليه الآن لتضاعفت جاذبيتها ولارتفع الضغط الجوى بصورة يستحيل معها الحياة على الأرض.

٣- تدور الأرض حول محورها مرة واحدة كل أربع وعشرين ساعة، ومعنى ذلك أنها تسير حول محورها بسرعة ألف ميل فى الساعة، ولو قلت سرعتها لزادت درجة الحرارة بصورة يستحيل معها الحياة ولو زادت سرعتها لزادت درجة البرودة أيضاً.

٤- الأرض لها سمك معين، ولو كانت قشرة الأرض أكثر سمكا مما هى عليه الآن لما وجد الأوكسجين، إذ أن القشرة الأرضية سوف تقوم بامتصاصه وبالتالى تصعب الحياة.

٥- لو كان الغلاف الهوائى المحيط بالأرض ألطف مما هو عليه الآن لاخترقت النيازك والشهب الأرض ولأحرقتها(١).

إذاً من الذى قدر كل هذه التقديرات، ومن الذى نظم هذه الحركة الأرضية؟

ومن الذى هيأها لكى تكون صالحة لحياة الإنسان؟

«أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون* أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله بل أكثرهم لايعلمون»(٢).

السماء والأفلاك :

يقول علم الفلك : إن عدد نجوم السماء مثل عدد ذرات الرمال الموجودة على سواحل البحار فى الدنيا كلها، وأقل نجم فيها أكبر من الأرض، ومنها نجوم فى حجم الأرض عدة ملايين من المرات.

١- راجع ص ٥٩ من الإسلام يتحدى.

٢- سورة النمل الآية : ٦٠ - ٦١.

ولو نظرنا إلى الفضاء الكونى من خلال مرصد مجهز تجهيزاً علميا متقدما لشاهدنا بلايين النجوم تسير فى الفضاء، منها مايسير وحده، ومنها مايسير فى شكل مجموعات.

وأقرب كوكب منا هو كوكب القمر الذى يبعد عن الأرض ٢٤٠٫٠٠٠ ميل، وهو يدور حول الأرض ويكمل دورته فى مدة تسعة وعشرين يوما ونصف يوم، وهناك تسعة كواكب مع الأرض تدور حول الشمس بسرعة فائقة.

وهناك آلاف من الأنظمة غير النظام الشمسى يتكون منها ذلك النظام الذى يسمى بنظام المجرات، أى مجموعة من الأفلاك مثل : المجموعة الشمسية.

ويقرر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من أكثر من خمسمائة مليون من المجرات كلها تدور فى الفضاء، ولكل مجرة منها خط محدد لاتحيد عنه حتى لاتتصادم مع بعضها رغم سرعتها التى لايتصورها عقل.

- فمنها مايسير بسرعة ثمانية أميال فى الثانية.
- ومنها مايسير بسرعة ثلاثة وثلاثين ميلا فى الثانية.
- ومنها مايسير بسرعة أربعة وثمانين ميلا فى الثانية.

ويرى علماء الفلك أيضا أن مجرات النجوم يتداخل بعضها مع بعض فتدخل مجرة تشتمل على بلايين من السيارات المتحركة فى مجرة أخرى مثلها ثم تخرج هذه بسياراتها من تلك دون أن يحدث أى تصادم بين سيارات المجرتين(١).

وإن العقل المنصف حين يشاهد هذا الإبداع العجيب والتنظيم الدقيق، لايسعه إلا أن يحكم باستحالة وجود هذا النظام بلا منظم حكيم لانهاية لحكمته وعقله وتدبيره، ذلك أن هذه الكواكب السابحة تسير على نظام دقيق لاتحيد عنه قيد أنملة مهما مرت بها الأيام وتعاقبت عليها الليالى والقرون. إنها تدور فى أفلاكها بنظام يمكننا من التنبؤ بما يحدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه بقرون عديدة.

بل إن نظام الأفلاك والمسافات المحددة الموجودة بينها، جعل العالمين (آدم ولافريير) أن يتنبأ بوجود كوكب لم يكن معروفا وجودة فى وقتهما، وبناء على قولهما : وجه مرصد برلين سنة ١٨٤٦ تلسكوبا إلى الجهة التى أشارا إليها وسرعان ماوجد رجال المرصد الكوكب الذى نسميه اليوم (نبتون) ضمن المجموعة الشمسية(٢).

١- الإسلام يتحدى ص ٥٣.

٢- المرجع السابق ص ٦٣.

ويقول العلماء أيضا : إن نظام الذرة ومكوناتها هو الذى ينطبق على نظام الأفلاك ودورانها.

وإذا كان (مانديليف) قد تنبأ بوجود عناصر أخرى بناء على نظام الذرة، فإن هؤلاء العلماء تنبأوا بوجود (نبتون) بناء على النظام الذى تسير عليه هذه الأفلاك.

وسبحان الله، نجوم تسير فى الفضاء معلقة فى الهواء منذ قرون، الله أعلم بها - ومع ذلك لايتصادم فلك بفلك ولايخرج فلك عن مداره.

وصدق الله حين قال :

«وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون* والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقرير العزيز العليم* والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم* لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون»[١].

سبحان الله، نظام يحكم الكون من ذرته إلى مجرته، ودقة وتقدير يحكم كل صغير وكبير فى الوجود.

- وعناية بكل مخلوق فى الكون.

- وغائية وهدف لكل حركة فيه .. ألا يدل ذلك على وجود الخالق المنظم المبدع؟

أليس من اللامعقول أن ينكر أحد خالق هذا النظام؟

ألم أقل سابقا : إنهم مجانين يحتاجون إلى العلاج قبل المناقشة؟

لقد زعم الملحدون أن كل ذلك بالصدفة البحتة؟!

فما هى الصدفة؟ وهل لها وجود فى الكون؟

هذا ماسنتناوله فى الصفحات التالية :

١- سورة يس الآيات ٣٧ - ٤٠.

دعوى المصادفة

حاول الملحدون أن يفروا من إلزام دليل العناية والنظام بفكرة المصادفة، فادعوا أن كل ماحدث فى الكون قد حدث بالمصادفة البحتة وبدون قصد، وقد عبر هكسلى عن فكرة المصادفة فقال : لوجلست مجموعة من القرود على آلات كاتبة وظلت تضرب على حروفها ملايين السنين، فلا نستبعد أن نجد فى بعض الأوراق الأخيرة التى كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير، فكذلك كان الكون الموجود الآن نتيجة لعمليات عمياء ظلت تدور فى المادة لبلايين السنين(١).

وبعضهم ضرب مثلا آخر فقال : لو أن صندوقا من الحروف الأبجدية يعاد تنضيده مئات المرات وآلاف المرات وملايين المرات على امتداد الزمان الذى لاتحصره السنون ولا القرون، فلامانع أن هذه التنضيدات تسفر فى مرة من المرات عن ألياذة هوميروس أو قصيدة من الشعر المنظوم، وهكذا الكون المادى هو مجرد مصادفة(٢).

المناقشة :

هذه هى نظرية المصادفة التى يعتمد عليها الملحدون فى تفسير نظام العالم، وهى كما ترى لادليل عليها اللهم إلا مجرد الأمثلة التى ضربوها، وهى فى الواقع تهدم فكرتهم من حيث لايشعرون. ذلك أن هكسلى - افترض وجود قوة معينة تحاول الوصول إلى غرض معين هى القرود وافتراض وجود مكن منظم عليه حروف، وافترض الحروف كاملة، وافترض وجود معانى مسبقة لهذه الحروف بحيث تكون كلمات لها معانى.

والمثال الثانى : افترض وجود القوة التى تتولى التنضيد، وفى هذا مايكفى لهدم نظرية المصادفة، ذلك أننا نتفق معهم على وجود قوة معينة قبل الأشياء. ولكن الخلاف هو أننا نقول : إن هذه القوة فعلت مافعلت بقصد وغاية وعناية، وهم يقولون إنها فعلت مافعلت بعشوائية وبدون قصد ولكننا لو عدنا إلى أعمال هذه القوة نلاحظ أن واقعها يهدم المصادفة والعشوائية، فكل ذرة فى الوجود تسير بحساب دقيق ينفى أى أثر للمصادفة، وهكذا يكون الواقع المشاهد دليلا لنا ضد مدعى الصدفة.

١- الإسلام يتحدى ص ٦٥.

٢- عباس العقاد - الله ص ٢١٥.

ذلك أن الصدفة لاتجرى على نظام ولاتدعو إلى نظام، مع أن كل مافى الوجود منظم لاعشوائية فيه.

الصدفة هى فعل بدون قصد ولاغاية، وكل مافى الوجود مقصود وموضوع لغاية محددة وهدف محدد.

الصدفة لاتتكرر، فلو فرضنا المستحيل وسلمنا جدلا أنها قد تؤدى إلى النظام مرة، فليس يعقل أن تكون هى سبب تحقيق النظام فى جميع الكائنات وسبب استمراره واضطراده(١).

وبمعنى أوضح : فإننا نتساءل : لماذا تماسك النظام فى الكون بعد أن وجد مصادفة واتفاقا، ولماذا لم يسرع الخلل إليه وظهرت فيه الفوضى وهى مثل النظام ومناظرة له بالتساوى فى احتمال الوقوع؟

هذا هو حديث العقل ينفى الصدفة ويهدمها من أساسها.

ثم تعال معى إلى حديث العلم :

ماذا يقول فى أمر الصدفة؟ هل من الممكن أن توجد خلية حية بالصدفة؟

ونخفف المسألة على الملحدين : هل من الممكن أن يتكون جزئ بروتينى واحد بالصدفة - علماً بأن الخلية الحية بها أربعين ألف جزئ بروتينى،

ولكن ماهو الجزئ البروتينى؟

يقول العلم إنه مركب كيميائى من خمسة عناصر هى : الكربون، والإيدروجين، والنيتروجين، والأوكسجين، والكبريت.

هذه خمسة عناصر من مائة وأربعة عنصراً موجوداً فى الكون.

إذاً فنحن الآن فى انتظار معرفة عدة أمور لكى تحدث الصدفة.

الأمر الأول :

احتمال اجتماع العناصر الخمسة بالذات وبنسب محددة من بين أكثر من مائة عنصر، لتكوين الجزئ البروتينى.

الأمر الثانى :

نريد أن نعرف كمية المادة التى ينبغى أن تخلط خلطا مستمراً لكى تؤلف هذا الجزئ.

١- يوسف كرم - الطبيعة - ومابعدها الطبيعة ص ١٤٥.

الأمر الثالث :

نريد أن نعرف المدة الزمنية لكى يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزئ الواحد.

وقد قام العالم الرياضى السويسرى «تشارلز يوجين» بحساب هذه العوامل فوجد أن الفرصة لاتتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزئ بروتينى واحد إلا بنسبة ١ إلى ١٠ مضروبا فى نفسه ١٦٠ مرة (أى ١٠ × ١٠ مائة وستين مرة) وبعبارة أخرى : نضيف مائة وستين صفراً إلى جانب عشرة وهو رقم لايمكن النطق به، فكيف نرجح الاحتمال الواحد على هذا العدد الهائل من الاحتمالات الغير ممكنة؟.

وأما عن المادة التى تلزم لحدوث هذا التفاعل، فهى تزيد بليون مرة عن المادة الموجودة الآن فى سائر الكون حتى يمكن تحريكها وخضها.

وأما عن المدة الزمنية اللازمة لذلك، فهى بلايين عديدة من السنين قدرها العالم السويسرى بأنها عشرة مضروبة فى نفسها ٢٤٣ مرة، وبعبارة أخرى مائتان وثلاثة وأربعون صفراً أمام عشر سنين(١).

وهكذا نلاحظ أن مقادير الوقت وكمية المادة والفضاء اللانهائى التى يتطلبها وجود جزئ بروتينى واحد بالصدفة هى أكثر بكثير من المادة والفضاء الموجودين الآن وأكثر من الوقت الذى استغرقه نمو الحياة على ظهر الأرض.

وهكذا يقول العلم بالحساب الرياضى : إن المصادفة مستحيلة الوقوع.

ومع ذلك فإن دعاة المصادفة يدعون أنهم علماء، فهل هم كذلك حقا؟!!

التسليم بالمحال :

حتى لو سلمنا جدلا بهذا المحال الذى هو اجتماع أربعين ألف ذرة من خمسة عناصر لتكوين جزئ بروتينى واحد. فإننا نسأل عن وجود الحياة من خلال هذا الجزئ، من أين أتت؟ مع أنه مجموعة مركبات كيماوية ميتة لاحياة فيها، ولايمكن أن تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب وهو الروح الذى يودعه الله فى مخلوقاته؟

ثم كيف اجتمعت هذه الجزئيات لتكوين الخلية الحية. وكيف اجتمعت الخلايا الحية لتكوين الأجسام؟

وكيف تنوعت هذه الأجسام إلى مليون ونصف من أنواع الحيوانات وحوالى

١- الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٠.

٢٠٠،٠٠٠ ألف من أنواع النبات؟ وكيف انتشرت كل هذه الكمية الهائلة على سطح الأرض؟ كيف وجد من بينها هذا المخلوق الأعلى الذى نسميه الإنسان(١).

أن هؤلاء الملحدين يريدون لنا أن نلغى عقلنا ونسلم :

بأن الجزئيات السالبة والموجبة التى تتكون منها الذرة قد وجدت بالمصادفة؟

١- الإسلام يتحدى ص ٦٩.

الأجناس والأنواع والأفراد :

إننا نقرأ فى المنطق أن الوجود ينقسم إلى أجناس قريبة وبعيدة، وأن هذه الأجناس تنقسم إلى أنواع، وأن الأنواع تنقسم إلى أفراد. راجع ص ٦٧ من كتابنا «المنطق واتجاهاته القديمة والحديثة والمعاصرة».

فمن الذى نظم هذا التنظيم؟ من الذى جعل صفات جنس لاتنطبق إلا على أنواعه؟ ومن الذى جعل صفات النوع لاتنطبق إلا على أفراده؟ من الذى جعل لكل جنس حقيقته الذاتية التى لاتختلط مع غيرها من الحقائق؟

إننا نشاهد أجناساً كثرة وأنواعاً مختلفة من الإنسان والنبات والحيوان، ونلاحظ أن كل نوع فيها ينقسم إلى فصائل، وتنقسم الفصائل بدورها إلى أقسام أصغر فأصغر. ولكننا مهما قسمنا نجد أن هناك صفات مشتركة بين جميع الأفراد التى تنتسب إلى نوع واحد أو صنف واحد.

إن الإنسان كنوع من أنواع الحيوان له حقيقة ثابتة، ومع ذلك نلاحظ أن افراده مختلفه فى الشكل وفى اللغة وفى العادات والتقاليد.

فإنسان أوروبا يختلف عن إنسان آسيا، وإنسان أمريكا يختلف عن إنسان أفريقيا، نعم اختلافات كثيرة ولكننا مع كل ذلك نجد أن حقيقة الإنسانية منطبقة على الجميع بلا أدنى فرق.

إن النبات من حيث حقيقته واحد (جسم نام) ومع ذلك نجد أن هناك أنواعا منه لاحصر لها ولاعد فهذا حلو وذاك مر، هذا كبير وذاك صغير، هذا مفيد، وذاك مميت، هذا مغلف وذاك غير مغلف.

فمن أين أتى هذا التباين فى الأفراد مع أن الجنس واحد، وكل الظروف واحدة : الأرض، والهواء والماء.

فمن الذى ميز؟ ومن الذى نوع؟ ومن الذى نظم؟.

إذاً لابد من الاعتراف بأن وراء كل ذلك التنظيم خالقاً مدبراً، هو الذى خلق المادة الأساسية وأودع فيها من القوة والتوجيه ماجعلها تتخذ هذه الصور التى لاتحصى من الأفراد والأصناف والأنواع والأجناس، وإذا كان العقل ينطق بذلك، فإن القرآن - كتاب العقل - ينطق أيضاً.

فيشير إلى هذا البرهان العقلى إشارة لطيفة تخص العقلاء من الناس فيقول :«وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» سورة الرعد الآية : ٤.

وأن بعضها كان سالباً والآخر موجباً بالمصادفة؟

وأن كل جزئ سالب التقى بجزئ موجب مصادفة؟

وأن دورة السالب حول الموجب كانت بالمصادفة.

وأن الفراغ بين النواة والكهارب مقدر ومحدد لولاه لكان جرم الأرض فى حجم البيضة مصادفة؟.

وإن هذه الذرات تملك إمكانية تكوين العناصر بالمصادفة؟!.

وأنها قد اجتمعت لتكوين الجزئ البروتينى مصادفة.

وأن الجزئ البروتينى كون الخلية مصادفة؟

والخلية كونت الأجسام مصادفة؟!.

والأجسام شكلت نفسها إلى نبات وحيوان وإنسان مصادفة.

والعقل دخل إلى الإنسان بالمصادفة؟

وأن الكون المحيط بالإنسان وجد صالحا لحياته بالمصادفة؟!.

وانتظام الأفلاك والكواكب وسيرها فى الفضاء كان مصادفة.

وحركة الشمس والقمر المحسوبة كانت مصادفة. كل هذا كان مصادفة!!.

هكذا يريد لنا دعاة الإلحاد أن نلغى عقلنا؟

السؤال الذى لاجواب عنه :

وأخيراً، فإننا نسأل هؤلاء الملحدين :

من أين جاءت المادة الأساسية التى أوجدت الكون بالمصادفة؟

من الذى خلقها وأودع فيها كل هذه الإمكانيات؟

لاجواب.

وأخيراً : ألا ترى معى أيها المؤمن أن هؤلاء الملحدين يؤمنون بقوة عليا خالقة وقادرة، ولكنهم يعطون صفاتها للكون والمادة حيث ينسبون لها الخلق والإيجاد؟

وهكذا يصفون الكون بالألوهية من حيث لايشعرون، وكان من الأفضل لهم أن يؤمنوا بإله غير مادى خالق لهذا الكون دون أن يكون الكون نظيرا له وخالقاً مثله.

شبهة على دليل العناية والرد عليها :

يورد الملحدون على دليل العناية شبهة مضمونها : أنه لو كان لله عناية بهذا الكون لما وجدت الشرور والأمراض والكوارث التى تقع على الناس.

فما ذنب هذا الرجل الذى أصيب بالعمى أو الأمراض المزمنة؟

وماذنب هذه القرية التى تصاب بزلزال يدكها من أساسها؟

لماذا كان هذا فقيراً لايجد شيئاً، وذاك غنى مترف يملك كل شئ؟

ماذنب الطفل الصغير الذى يولد مشوهاً أو مريضاً أو فاقداً لحاسة من الحواس؟.

لماذا كان هذا مجنونا يسخر الناس منه، وذاك عاقل(١).

وهكذا يتلخص اعتراضهم : فى أنه كيف يكون هناك قصد وعناية مع وجود الشر والنقص والظلم فى الكون؟

مناقشة الشبهة :

الحق أن مسألة الخير والشر من المسائل التى تحتاج إلى الإيمان بالله أولا حتى يفهم المقصود بمثل هذه الأمور التى تقع ويظنها بعض الناس شراً أو انتقاما منهم، ومن هنا كان الإيمان بالقضاء والقدر عنصرا أساسيا من عناصر الإيمان، ولكنه مؤخر بعد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، ولذلك فمهما حاولنا أن نقنع الملحدين بالحكمة من هذه الأمور، فإننا لانستطيع إلا مع من أراد الله له الهداية، ولكننا على أى حال سوف نناقش شبهتهم لأنها شبهة عامة قد تطرأ حتى للمؤمنين، ليس على سبيل السؤال لله أو الأعتراض على قضائه؛ لأنه لايسأل عما يفعل وهم يسألون، وإنما على سبيل محاولة معرفة الحكمة، مع الإيمان بأن القصور فى معرفة الحكمة من هذه الأمور لايعنى عدم وجود الحكمة فى ذاتها.

والواقع أن مسألة القضاء والقدر كانت من أهم المسائل التى دفعت ضعاف الإيمان إلى الكفر بالله، وذلك أن المحن والبلايا حينما تقع على إنسان ما، فهو إما أن يكون قوى الإيمان فيعرف الحكمة الحقيقية من الشر الواقع فى العالم فيزداد إيمانا فوق إيمانه، وإما أن يكون ضعيف الإيمان سخيف التفكير حتى يظن أن وقوع البلايا والرزايا عليه دليل على عدم العدل الإلهى وبالتالى ينكر وجود الله.

وقد حدث هذا الأمر لكثير من الفلاسفة والعلماء، ومنهم فردريك نيتشه. وابو العلاء المعرى، وداروين، وسارتر وغيرهم.

وهذا مايدعونا إلى أن نبين الحكمة الحقيقية من الشر الموجود فى العالم :

١- راجع ص ١٥ من كتاب العدل الإلهى - حسن حسين.

الحكمة من خلق الإنسان :

نريد أن نسأل سؤالا وهو : ماالحكمة من خلق الإنسان فى الكون؟

والجواب : أنه مخلوق للاختبار والامتحان والابتلاء :(الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور) ولايمكن أن يتحقق الاختبار والابتلاء إلا من خلال وجود الخير والشر، مثل : الأمراض والفقر والبلايا والمحن، والعاقل من الناس هو الذى لايجزع من هذه الأمور وإنما يصبر على بلاء الله سبحانه وتعالى، وهنا تتحول البلية إلى عطية، والمحنة إلى منحة حيث يفوز الإنسان برضا الله سبحانه وتعالى والفوز فى الحياة الحقيقية وهى حياة الجزاء بعد الموت.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم «اذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضى اصطفاه».

من هنا كانت الشرور والأمراض والموت والنقص والظلم أمورا لابد منها لكى تتحقق الحكمة من خلق الإنسان.

ولكن الملحدين يتخيلون عالماً من نوع آخر.

فهو عالم لاشر فيه ولانقص فيه، ولاتفاوت فيه، عالم خالد لاموت فيه ولاألم – الكل كامل – الكل واحد.

وهذا عالم إلهى وليس عالما إنسانيا، إنهم يريدون أن يكونوا آلهة ولايريدون أن يكونوا بشراً، وهذا تصور أقل مايقال فيه : إنه تخريف ومجافاة للواقع الإنسانى، لأنه فى هذه الحالة لايكون هناك فرق بين العالم وبين خالق العالم، مع أن الاعتراف بوجود الله سبحانه وتعالى يستلزم أن يكون العالم مخلوقا لايبلغ الكمال كله ويفتقد إلى موجده على الدوام.

الشرور لها حكمة :

ومع ذلك، فالآلام والأمراض والموت لهم حكم لاتحصى ولاتعد، منها :

١- أننا لانعرف الشئ إلا بنقيضه، فنحن لانعرف نعمة الصحة إلا بالمرض، فلو خلقنا كلنا أصحاء بلا مرض لما استطعنا أن نقدر نعمة الصحة حق قدرها، ولذلك قالوا: إن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لايراه إلا المرضى، وللمرض فوائد لايستهان بها، منها : أنه حامى الحياة البدنية ينبهنا إلى كل خطر يتهددنا، وهو مهماز

الترقى يدفع بنا إلى التخلص من الألم فيفتق الحيلة ويقود إلى بحوث واختراعات لم تكن لتتسنى لنا لولاه(١).

فضلا عن أننا لو قبلناه كامتحان إلهى كان كفارة للذنوب، ومن هنا يقول الرسول الكريم :«مايصيب المسلم من نصب ولاوصب ولاهم ولاغم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه».

٢- لولا الموت لاستحالت الحياة : حيث يقول العلماء : لو أن ذبابتين توالدتاهما وأولادهما دون موت، فإنه بعد خمس سنوات تتشكل طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية ارتفاعها ٥سم، وهذا جنس واحد من المخلوقات، فكيف إذا كانت المخلوقات كلها تتوالد ولاتموت؟ ومن هنا نفهم حكمة المرض وحكمة وجود مسببات الأمراض من جراثيم وغيرها(٢).

٣- حتى الزلازل والبراكين والشهب الحارقة لها حكم ولها فوائد.

يقول الدكتور (ديل سوارتزن - درويبر) :«قد يظن كثير من الناس أن البرق ليس أكثر من وسيلة من وسائل التدمير، ولكن التفريغ الكهربى الناتج عن البرق يؤدى إلى تكوين أكاسيد النتروجين التى يهبط بها المطر أو الثلج إلى التربة ويستفيد منها النبات(٣).

هاهو العلم يكتشف أن البرق والشهب الحارقة التى يظنها الناس شراً - هى خير فى ذاتها، ولكن المشكلة هى فى قصر نظر بعض الناس.

إذاً فالشرور الواقعة فى الكون حين ندقق النظر فيها نعرف أنها خير، فالنار قد تحرق قرى ومنازل وتدمر مدنا، ومع ذلك فلا يستطيع الإنسان أن يعيش بدونها ولو لم توجد فى الكون لكان عدمها هو الشر بعينه.

والأمطار التى تسقط فتهدم البيوت قد يتصور بعض قصار النظر أنها شر، ومع ذلك فلولاها لماتت الأرض ولأجدبت ولما وجد سكان الصحراء مايقتاتون به، ولو منعها الله عن الناس لقال الناس : إن الله قد حبس عنا خيراً كثيراً من أجل شر قليل.

وهكذا - فما تظنه أنت شراً قد يكون خيراً بالنسبة إلى غيرك، فقطع يد السارق

١- يوسف كرم - الطبيعة ومابعد الطبيعة ص ١٨٢.

٢- سعيد حوى - الله - ص ٦٦.

٣- الله يتجلى ص ١٨.

شراً بالنسبة له. ولكنه خير بالنسبة إلى المجتمع كله، حيث حفظه بقطع هذه اليد التى تعتدى على حرماته.

هذه هى بعض الحكم لوجود الشرور والآلام – فالخير والسعادة لامعنى لهما بدون هذه الشرور.

ومأضل من هؤلاء الملحدين الذين يتخيلون أن الخير قابل للوجود بغير وجود الشر معه، مع أن الخير والشر ضدان يستلزم وجود أحدهما وجود الآخر، فكيف يتأتى للعدل معنى من المعانى بغير الأخطاء والإساءات؟

وماهو العدل إن لم يكن هو منع الظلم؟

وماذا يفهم إنسان من الراحة إلا أنها عدم التعب؟

ومن الصحة إلا أنها عدم الألم[١].

ولذلك قال الفيلسوف المثالى ليبنتز :«هذا العالم أحسن العوالم الممكنة التى تقبل الوجود وكان فى قدرة الله أن يخلقه بغير شر ولاقبح، ولكنه يكون إذن بغير خير ولاجمال، إذ الخير مرتبط بالشر والجمال مرتبط بأضداده»[٢].

ولكن علينا أن لاننظر إلى العالم من زاوية حادث معين، فى وقت محدد لنركز أبصارنا على مافيه من شر ونغمضها عما وراءه من خير، بل علينا لكى ندرك الحكمة فى الكل، ان ننظر إلى العالم نظرة عامة شاملة، نرى بها أن هذه الأمور التى نحبها شرا هى أمور لابد منها للوصول إلى الخير ويذكرنا قول ليبنتز السابق بنص طيب للأديب والفيلسوف والعالم : الجاحظ الذى يقول :«ان المصلحة فى أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها، امتزاج الخير بالشر، والضار بالنافع، والمكروه بالسار والضعة بالرفعة، والكثرة بالقلة، ولو كان الشر صرفا هلك الخلق، أو كان الخير محضا سقطت المحنة، وتقطعت اسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة (...) فسبحان من جعل منافعها نعمة ومضارها ترجع إلى أعظم المنافع وجعل فى الجميع تمام المصلحة وباجتماعهما تمام النعمة)[٣].

نعم هذا هو أفضل العوالم الممكنة، والشرفية عارض ليس مقصوداً لذاته، وعدد

١– راجع ص ١٢٧ من كتاب «الله» العقاد.

٢– السابق ص ١٩٦.

٣– راجع قصة الإيمان لنديم الجسد ص ١٥٢.

اللذات فيه يزيد على عدد الآلام، بدليل أن كل كائن ذو شعور يؤثر الحياة مهما كانت على الموت(١).

ولكن هؤلاء الملحدين يريدون إلهاً يسير على خطتهم وعلى منهجهم الذاتى، فيقول أحدهم مثلا : سوف أؤمن بالله إذا شفانى من مرضى، أو إذا أنزل المطر، أو إذا قضى حاجتى، وهكذا يريدون أن يقيسوا كمالات الله وعدله على قدر أفهامهم ومستوى إدراكهم المحدود، وعلى قدر أنانيتهم.

وقد قمنا ببيان الحكمة من الشرور والآثام الموجودة فى الكون على قدر طاقتنا المحدودة، وقد نعجز عن بيان الحكمة فى بعض الأمور.

وهذه هى طبيعة النقص الإنسانى - ولكن هذا ليس معناه أنه ليس لهذه الأمور حكمة - فالله لايخلق شيئاً عبثاً - وإنما معناه أننا عاجزون عن إدراك حكمة الله فى كل شئ، لأنه هو الخالق ونحن المخلوقون وشتان مابيننا وبينه، ولو أننا أدركنا حكمته فى كل شئ لما كان بيننا وبينه من فرق، وكيف يكون الإنسان إلهاً؟

وهذه هى مشكلة الملحدين، إنهم يريدون أن يكونوا آلهة لابشر.

«وسبحانك ربى لاإله سواك»

١- الطبيعة ومابعد الطبيعة ص ١٨٢.

البرهان الرياضي الهندسي على وجود الله

من المعروف فى علوم الرياضة والهندسة أننا نستطيع أن نبنى كثيراً من النظريات على عدد قليل من البديهيات والمسلمات، أو المصادرات والفروض التى نسلم بها ونقبلها دون مناقشة أو جدال حول صحتها، فالعلماء يسلمون أولا بالبديهيات ثم يلاحظون النتائج التى تترتب عليها، فيضعون بناء على ذلك النظريات الهندسية التى تعتمد أساساً على هذه البديهيات، فإذا كانت النظريات صحيحة ومتفقة مع الواقع، فإن ذلك يكون برهانا على صحة البديهيات المسلمة.

وكذلك الحال فيما يتعلق بوجود الله سبحانه وتعالى، فوجوده أمر بديهى فلنسلم بصحة القضية البديهية التى تقول :«إن الله موجود» ثم نضع النظرية التالية :(إذا كان هناك إله لابد أن يكون هناك نظام وإبداع).

ثم نطبق هذه النظرية على الواقع فنجد أنها صحيحة، فالكون منظم ومرتب وكل شئ فيه بقدر معلوم، والقوانين تحكم كل ذرة من ذرات الوجود.

إذاً فالنظرية صحيحة أثبتها الواقع، وبالتالى تكون القضية البديهية صحيحة، وعندئذ تصير فكرة الألوهية إحدى بديهيات الحياة – والمطابقة بين النظرية والواقع تعد برهانا على صحة النظرية والبديهية التى قامت عليها.

وعلى ذلك يكون منطق الاستدلال هكذا :

إذا كان هناك إله فلابد أن يكون هنالك نظام، ومادام هنالك نظام فلابد من وجود إله.

البرهان الأخلاقي على وجود الله

إن وجود الله ضرورة أخلاقية واجتماعية، وبدون الإيمان بالله قد تتحول المجتمعات الإنسانية إلى غابات حيوانية يأكل فيها القوى الضعيف.

فمن الذى يلزم الإنسان بأن يكون صادقا؟ ومن الذى يلزمه بأن يكون أمينا؟ ومن الذى يلزمه بإحسان المعاملة مع الناس؟ ومن الذى يلزمه بكل المبادئ الأخلاقية التى تضمن قيام المجتمعات وسلامة أمنها؟

إنه الله سبحانه وتعالى، والإيمان به والاعتقاد فى عدل ثوابه وعقابه.

أن بعض الملحدين يقولون : ليس هناك داع لوجود الله، فالضمير الإنسانى كاف لذلك!!

ولكننا نسألهم : من الذى كون هذا الضمير وحدد له الحلال والحرام والواجب والممنوع؟

إنه الله سبحانه وتعالى .. ولكن الملحدين يأخذون تعاليم الله وينسبونها إلى الضمير.

وبعض الملحدين يقولون : بأن قوانين الدولة كافية لحفظ النظام وإقامة المجتمعات.

ولكننا نقول لهم : ومن أين أتيتم بهذه القوانين؟

ومن الذى يحاسب الذين يخونون قانون الدولة ويخرجون عليه فى الخفاء ولايثبت عليهم هذا الخروج؟

من الذى يحاسب السارق الذى لم تثبت عليه جريمة السرقة من خلال القوانين البشرية؟

من الذى يحاسب القاتل الذى برأته قوانين الدولة؟

إذاً لابد من الإيمان بوجود الله لضمان إقامة مجتمعات سليمة.

– فهو واضع القوانين الأخلاقية التى تضمن للبشر حياة سعيدة إذا التزموا بها وطبقوها.

– وهو ضامن الثواب للملتزمين بهذه القوانين، والعقاب للخارجين عليها، فهو العليم بما توسوس به نفس الإنسان، بل هو أقرب إليه من حبل الوريد.

نموذج للاستدلال على وجود الله من الكتب القديمة

قلنا : إن كتب التراث فى علم الكلام هى الزاد الأساسى للكاتب المسلم، ولذلك ينبغى الحرص عليها وذلك بعرضها عرضا ميسراً، أو عرض نماذج منها لتمرين العقول الحديثة على القراءة فيها.

وسوف أختار نصا من كتاب المواقف لعضد الدين الإيجى(١) :

قال : صاحب المواقف :

المسلك الثالث : لبعض المتأخرين :

يعنى صاحب التلويحات، وهو أنه لاشك فى وجود ممكن : كالمركبات فإن استند إلى

١- كتاب المواقف من أهم الكتب فى علم الكلام؛ لأنه عبارة عن خلاصة وافيه لكتاب أبكار الأفكار للآمدى ونهاية العقول للرازى. بالاضافة إلى المباحث الفلسفية التى أضافها الإيجى. وقد قام بشرح المواقف السيد الشريف الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ هـ، كما قام بالتعليق عليه فى الحاشية حسن جلبى المتوفى سنة ٨٨٦ هـ، وقد اشتمل هذا الكتاب على ستة مواقف، وقسم المواقف إلى مراصد ثم قسم المراصد إلى مقاصد :

وقد تحدث فى الموقف الأول : عن المقدمات العامة لدراسة علم الكلام من حيث تعريفه وموضوعه وفائدته ومسائله، كما تحدث عن النظر والتقليد، وبعض المباحث المنطقية حيث تحدث عن أنواع الاستدلال وصور القياس وأقسام الدليل.

وأما الموقف الثانى : فقد كتبه تحت عنوان «الأمور العامة» ومعظمه مباحث فلسفية حيث تحدث عن الوجود والماهية والوحدة والكثرة والعلة والمعلول، وغير ذلك من المباحث الفلسفية.

وأما الموقف الثالث : فقد تحدث فيه عن الأعراض : من حيث تعريفها وأنواعها، مثل : الكم والكيف والمكان والزمان والحواس الخمس، وفيه كثير من مباحث علم النفس والفسيولوجيا.

والموقف الرابع : فى الجواهر، وفيه تحدث عن الأجسام والأفلاك والكواكب والكسوف والخسوف، وفى هذا الموقف كثير من المباحث الفلكية التى تفتقد الدقة العلمية الحديثة.

والموقف الخامس : فى الإلهيات.

والموقف السادس: فى السمعيات.

ويلاحظ أن المواقف الأربعة الأولى تقع فى سبعة مجلدات، وأما الموقفان الخامس والسادس اللذان يمثلان صلب علم الكلام فيقعان فى المجلد الثامن.

راجع تحقيق الدكتور أحمد المهدى للموقف الخامس من كتاب المواقف.

الواجب ابتداء وانتهى إليه فذاك، وإن تسلسلت الممكنات قلنا :(جميع الممكنات) المتسلسلة إلى غير النهاية (من حيث هو جميع ممكن؛ لاحتياجه إلى أجزائه التى هى غيره، فله علة) موجدة ترجح وجوده على عدمه لما عرفت من أن الإمكان محوج. (وهى لاتكون نفس ذلك المجموع؛ إذ العلة متقدمة على المعلول، ويمتنع تقدم الشئ على نفسه ولاجميع أجزائه؛ لأنه عينه (ولاتكون) أيضا (جزأه) أى بعض أجزائه (إذ علة الكل علة لكل جزء)؛ وذلك لأن كل جزء ممكن محتاج إلى علة، فلو لم تكن علة المجموع علة لكل واحد من الأجزاء؛ لكان بعضها معللا بعلة أخرى، فلاتكون تلك الأولى علة للمجموع، بل لبعضه فقط، وحينئذ (فيلزم أن يكون) الجزء الذى هو (علة المجموع، علة لنفسه، ولعلله) أيضا.

وإذا لم تكن علة المجموع نفسه ولا أمراً داخلا فيه، (فإذن هو أمر خارج عنه. والخارج عن جميع الممكنات واجب لذاته، وهو المطلوب) ولابد أن يستند إليه شئ من تلك الممكنات ابتداءً فتنتهى به السلسلة.

واعترض عليه بوجوه :

الأول : المجموع يشعر بالتناهى)؛ لأن مالا يتناهى، ليس له كل ولامجموع ولاجملة، بل ذلك إنما يتصور فى المتناهى، وتناهى الممكنات يتوقف على ثبوت الواجب، (فإثباته به) : أى إثبات الواجب بما يدل على تناهى الممكنات (مصادرة على المطلوب. والجواب: أن المراد به) أى بالمجموع ومايرادفه فى هذا المقام (هو الممكنات) بأسرها (بحيث لايخرج عنها شئ منها؛ وذلك متصور فى غير المتناهى) إذ يكفيه ملاحظة واحدة إجمالية شاملة لجميع آحاده. إنما الممتنع أن يتصور كل واحد مما لايتناهى مفصلا، ويطلق عليه المجموع بهذا الاعتبار.

(الثانى : إن أردت بالمجموع كل واحد) من آحاد السلسلة :(فعلته ممكن آخر متسلسلا إلى غير النهاية) بأن يكون كل واحد منها علة لما بعده ومعلولا لما قبله من غير أن ينتهى إلى حد يقف عنده.

(وإن أردت به الكل المجموعى، فلا نسلم أنه موجود؛ إذ ليس ثمة هيئة اجتماعية) إلا بحسب الاعتبار، وماجزؤه اعتبارى لايكون موجوداً خارجيا.

(والجواب : أنا نريد) بالمجموع (الكل من حيث هو كل، ولاحاجة إلى اعتبار الهيئة الاجتماعية) إذ الكل ههنا عين الآحاد (كما فى مجموع العشرة) ولاشك أن الكل بهذا المعنى موجود ههنا.

(الثالث : إن أردت بالعلة) العلة (التامة فلم يجوز أن تكون نفسه؟ قولك : العلة متقدمة، قلنا :لانسلم ذلك فى) العلة (التامة، فإنها مجموع أمور كل واحد منها مفتقر إليه) فيكون كل واحد من تلك الأمور متقدما على المعلول (ولايلزم من تقدم كل واحد تقدم الكل، كما أن كل واحد من الأجزاء متقدم على الماهية ومجموعها) ليس متقدما، بل (هو نفس الماهية وإن أردت بها) : أى بالعلة (الفاعل) وحده (فلم لايجوز أن يكون جزأه، قولك : لأنه علة لكل جزء) فيكون علة لنفسه، ولعلله، (قلنا) ذلك (ممنوع. ولم لايجوز أن يحصل بعض الأجزاء بلاعلة أو بعلة أخرى؟

والجواب : (أن المراد) بالعلة : هو (الفاعل المستقل بالفاعلية، وهو فى مجموع كل جزء منه ممكن لابد أن يكون فاعلا لكل) من الأجزاء : على معنى أنه لايستند شئ منها بالمفعولية إلا إليه، أو إلى ماصدر عنه (وإلا وقع بعض أجزائه بفاعل آخر) لم يصدر عنه (فإذا قطع النظر عنه أى عن الآخر (لم تحصل الماهية) المعلولة التى هى المجموع (فلم يكن) ذلك الفاعل (فاعلا مستقلا) بالمعنى المذكور، وهو خلاف المقدر.

(فإن قيل هذا) الذى ذكر تموه (منقوض بالمركب من الواجب والممكن) فإن مجموعها من حيث هو مجموع لاشك أنه ممكن؛ لاحتياجه إلى جزئه الذى هو غيره. مع أن فاعله، ليس فاعلا لكل واحد من أجزائه.

(وأيضا لو كان فاعل الكل) بالاستقلال (فاعلا لكل جزء) منه كذلك (للزم فى مركب فى أجزائه ترتب زمانى) كالسرير مثلا. (إما تقدم المعلول على علته، أو تخلف المعلول عن علته) المستقلة؛ إذ عند وجود الجزء المتقدم كالخشب إن وجدت العلة المستقلة للكل؛ لزم الأمر الثانى، وإن لم توجد لزم الأمر الأول؛ وكلاهما محال.

(قلت : الجواب عن الأول) : وهو النقض (أنا قيدناه) : أى الكل (بما كل جزء منه ممكن) كما مر آنفاً. (فاندفع النقض) فإن قيل : نحن نمنع كون فاعل الكل فاعلا لكل جزء منه، ونسنده بالمركب من الواجب والممكن فلا يجديكم إخراجه بغير الإمكان.

قلنا : هذا المنع مندفع بما قررناه من الدليل على أن الفاعل المستقل للكل يجب أن يكون فاعلا لكل جزء منه إذا كانت آحاده بأسرها ممكنة.

(وعن الثانى) وهو المعارضة : (أن التخلف عن العلة الفاعلية) المستقلة بالمعنى الذى صورناه (لايمتنع) إنما الممتنع. هو التخلف عن العلة الفاعلية المستجمعة لجميع مايتوقف عليه التأثير، أعنى العلة التامة، على أنا نقول :

(كيف) يتجه علينا ماذكرتم (والمراد) بقولنا : علة الكل يجب أن تكون علة لكل جزء منه (أن علته) أى علة الجزء (لاتكون خارجة عن علة الكل وبذلك) الذى ذكرناه من المراد (يتم مقصودنا) وهو أن علة المجموع المركب من الممكنات كلها : لايجوز أن تكون جزأه، إذ يلزم حينئذ أن لاتكون علة ذلك الجزء خارجة عنه، فهى إما نفسه؛ وهو محال، أو ماهو داخل فيه، فينقل الكلام إليه حتى ينتهى إلى مايكون علة لنفسه.

وعلى تقدير التسلسل نقول : كل جزء فرض علة فى تلك السلسلة، فإن علته أولى منه بأن تكون علة لها؛ فيلزم ترجيح المرجوح، هذا خلف، ولك أن تتمسك فى إبطال علية الجزء بهذا ابتداء.

(ولايلزم ماذكرتم) من أحد الأمرين (إذ قد تكون علة كل جزء) من الأجزاء (جزء علة الكل بحيث يكون الكل علة الكل) فعند وجود الجزء المتقدم؛ توجد علته التامة، وعند وجود الجزء المتأخر، توجد علته التامة ويكون مجموع هاتين العلتين : علة تامة للكل، ولامحذور فيه، نعم لو كانت العلة المستقلة للكل : عين العلة المستقلة لكل واحد من اجزائه، لزم ماذكرتموه.

ونكتفى بهذا القدر من نماذج الاستدلال على وجود الله من خلال الفكر القديم والحديث معاً.

وسوف نشير فيما يأتى من الصفحات إلى أن الملحدين لايجدون دليلا واحداً يبررون به إلحادهم فى الوقت الذى يجد فيه المؤمنون أدلة لاحصر لها ولاعد على إيمانهم.

الملحدون لادليل عندهم

وإذا كنا قد أثبتنا وجود الله بعدد محدود من الأدلة، فهناك عشرات الأدلة غيرها على وجود الله، إلا أن المنكرين لوجود الله لايجدون دليلا واحداً يثبتون به قضيتهم مما يوكد بطلانها.

فلم نسمع حتى الآن دليلا عقلياً واحداً على عدم وجود الله، وكل ما لهم هو شبه أتت من قصر نظرهم وسوء فهمهم للوجود والحياة.

إنهم لايقتنعون بكل هذه البراهين التى أثبتت وجود الله - وهو ثابت من قبلها - فليس هناك ماهو أظهر من وجود الله ولاأثبت - ويريدون برهانا حسياً.

إنهم يريدون أن يضعوا الله فى المختبر - تعالى عن كلامهم - كما يضعون شيئا ماديا، إنهم يريدون أن يشاهدوا الله بالمجهر كما يشاهدون الأميبا والجراثيم. ويريدون الإلة شيئا ماديا مجسداً مثلهم.

ولكننا نقول لهم : إنه لو كان الله كذلك لما كان عندنا أدنى شك فى إنكار وجوده وفى رفض الإيمان به.

وإذا كان الله شيئا ماديا كما يريدون فما فائدة الإيمان به وماقيمة الإيمان فى هذه الحالة؟

إن الإيمان لايتحقق إلا إذا كانت هناك الغيبيات التى لاتشاهدها الحواس ولكن يراها القلب بنور البصيرة فيؤمن بها.

إن الله لايريد أن يجبر أحداً على الإيمان به، ومن هنا غاب عن الأبصار فلا تدركه، حتى يترك للإنسان حرية الاختيار، لكى يؤمن به من يؤمن ويكفر به من يكفر، فمن آمن فلنفسه إيمانه، ومن كفر فعليه كفره.

ولكن الأمر الملفت للنظر هو : أن يعتقد الملحدون فى فكرة بدون دليل ولابرهان، وفى الوقت ذاته يصفون أنفسهم بالعلميين مع أن الدليل والبرهان هو (ألف باء) العلم.

بل أكثر من هذا : يصفون أنفسهم بالتقدميين وبالعصريين، مع أن أفكارهم رجعية متخلفة، فقد أشار القرآن الكريم إلى أن الكافرين فى عصور الجاهلية والتأخر كانوا يطلبون مايطلبه الملحدون المعاصرون من رؤية الله ومعاينته بالحواس.

يقول الله تعالى :«وقال الذين لايعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون»(١).

ويلاحظ أن الآية قد عللت لأخطاء هؤلاء بأنهم غير عالمين أى جهال، كما أشارت إلى أن هذا الكلام ليس جديداً، بل هو منطق الكافرين دائما قديما وحديثاً.

ويقول الله تعالى «وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيرا * يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين»(٢).

وقال :«وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون»(٣).

وقال «فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم»(٤).

وهكذا تبين لنا هذه الآيات الكريمة أن شبه الملحدين المعاصرين شبه قديمة متهتكة جاهلية، تدل على ضيق أفق أصحابها وتعلقهم بمرحلة الطفولة البشرية التى لاتؤمن إلا بما تحس وترى.

ولعل فى هذا مايكفى لإبطال ادعائهم بأنهم العلميون!! والتقدميون !!؟؟.

والأولى حينئذ أن نصفهم بالجاهليين والرجعيين والمتأخرين، لأنهم عادوا إلى الماضى السحيق يستلهمون منه فكرهم وعقائدهم.

ولكن هل يقتنع الملحدون لو شاهدوا الله عياناً!!

يجيب القرآن الكريم على هذا السؤال فى وضوح فيبين لنا أن كفر الكفار لم يكن لقلة الآيات الدالة على وجود الله سبحانه، بل إن الآيات من الكثرة بحيث لاتعد، ومن الوضوح بحيث لاتخفى ولكن المشكلة فى الملحدين أنفسهم وفى إعراضهم عن هذه الآيات.

المشكلة هى فى استكبارهم عن الاعتراف بالحق، وفى انحرافهم عن فطرة الإنسان

١- سورة البقرة الآية : ١١٨.

٢- سورة الفرقان الآية : ٢١، ٢٢.

٣- سورة البقرة الآية ٥٥.

٤- سورة النساء الآية ١٥٣.

وأخلاق الإنسان السوى بحيث أصبحوا فى حالة انغلاق وعمى فكرى عن كل الآيات البينات الدالة على وجود الله[1]. وأمثال هؤلاء مهما شاهدوا من الآيات لافائدة منهم.

ويحدثنا القرآن عن أمثال هؤلاء فيقول :«ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون* لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون»[2].

ويقول :«ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين»[3].

ويقول :«وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر»[4].

وهكذا تبين لنا الآيات أن المسألة ليست مسألة دليل حسى يثبت وجود الله وإنما هى مسألة عناد وكبر وغفلة وهوى لاأكثر ولاأقل .. ولكن الله سبحانه وتعالى لايشرق إلا لمن يبحث عنه بالفعل، أما هؤلاء المتعالمين المتغطرسين فهيهات هيهات أن يشرق الله لهم «سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق، وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها، وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين»[5].

١- سعيد حوى - الله ص ١٠ القاهرة.

٢- سورة الحجر الآية : ١٤.

٣- سورة الأنعام الآية : ٧.

٤- سورة القمر الآية ٢.

٥- سورة الأعراف الآية : ١٤٦.

الفصل الثالث
صفات الله سبحانه وتعالى

إذا تأملنا هذا الكون ومافيه من عظمة الإبداع ودقيق الصنع والتقدير، علمنا بلاشك أن خالقه قادر مريد عالم حليم سميع بصير، مستغن عن خلقه؛ لأنه كان قبل أن تكون، باقيا أزلا وأبداً لأنه هو الذى سيحكم عليها بالعدم، وهكذا تدلنا النظرة المجردة إلى الكون على كثير من صفات الله سبحانه وتعالى.

وقد قسم المتكلمون صفات الله إلى أقسام متعددة يمكن أن نوجزها فيما يلى :

أولا – صفات إيجابية لفظاً ومعنى : وهى الصفات التى توجب معنى تتصف به الذات – وهى المعروفة بصفات المعانى السبع، كالقدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام[1].

ثانيا – صفات سلبية : وهى عبارة عن نفى كل مايمتنع أن يوصف به البارى من صفات النقص.

وهى تنقسم إلى نوعين :

(أ) صفات سلبية لفظاً ومعنى : كسلب الجهة والمكان والجسمية والعرضية والزمان عن الله سبحانه وتعالى. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الصفات إجمالا فقال :(ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) فالله منزه إجمالا عن كل مالايليق بذاته من صفات النقص الموجودة فى الكون أو المتصورة فى الذهن البشرى.

(ب) صفات سلبية معنى إيجابية لفظاً، مثل : القدم. فإن معناه سلب الحدوث والبقاء، فإن معناه سلب العدم، والوحدانية؛ فإن معناها نفى الشريك عن الله، والقيام بالنفس؛ فإن معناه نفى الاحتياج عن الله.

ثالثا – صفات نفسية مثل : صفة الوجود التى تحدثنا عنها فيما سبق.

رابعا – صفات خبرية وهى الصفات التى نسبت إلى الله سبحانه وتعالى مايوهم المشابهة بينه وبين خلقه مثل الوجه، والقدم، والاستواء، والضحك والحب وغير ذلك من الصفات التى أخبر بها القرآن الكريم، واخبرت بها السنة النبوية المطهرة.

١– راجع ص ٢٩٣ من ابن قيم الجوزية للدكتور عبد العظيم عبد السلام – القاهرة ١٩٥٦.

خامسا – صفات أفعال : وهى الصفات التى تنسب أفعالا خاصة إلى الله تعالى كالرازق والمحى المميت وغير ذلك.

وقد اختلف المتكلمون تجاه هذه الصفات.

– فمنهم من انكرها مطلقا كصفات مستقلة وردها إلى الذات خوفا من تشبيه الله تعالى بالبشر كالمعتزلة والجهمية مع خلاف بينهما فى المنهج ويطلق عليهم اسم المعطلة، لأنهم عطلوا الصفات عن العمل.

– ومنهم من أثبتها مطلقا وآمن بظاهر ماورد فيها من نصوص دون تشبيه أو تكييف، أو تأويل، وهم السلف الصالح.

– الذين يعبر عن رأيهم ابن تيمية وابن القيم.

– ومنهم من آمن بالبعض، وفوض العلم إلى الله فى البعض، ورد بعض الصفات إلى بعضها وهم الأشاعرة الذين آمنوا بالصفات الإيجابية والسلبية، والنفسية.

– ثم فوضوا العلم إلى الله فى الصفات الخبرية، ثم ردوا صفات الأفعال إلى صفة القدرة.

ونريد الآن أن نتحدث عن الصفات الإيجابية والسلبية حديثاً ملائماً لظروف المسلمين فى العصر الحاضر.

بمعنى : أنه لاداعى إطلاقا للتطويل حول الصفات التى يسلم بها جميع المؤمنين بالله مثل : صفات القدرة والإرادة والعلم والحياة وغيرها مما يسلم به أصحاب الديانات السماوية. ولاينكرها إلا منكر لوجود الله سبحانه وتعالى.

ولكن ماينبغى التركيز عليه هو :

– خصائص هذه الصفات التى غابت عن أذهان بعض المسلمين فبعدوا عن الإسلام.

– الصفات التى دارت حولها مسائل خلافية بين الإسلام والنصرانية واليهودية مثل صفة : المخالفة للحوادث، وصفة الوحدانية.

الصفات الإيجابية

القدرة : هى صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، مهمتها إيجاد الممكنات وإعدامها على وفق علم الله واختياره المطلق.

والدليل على إثباتها لله بديهى، لأنه لو لم يكن الإله قادراً لما كنا موجودين الآن، وبما أننا موجودون فلابد أن يكون الموجد قادراً.

كما أن هذه الصفة يتصف بها المخلوق - على قدرة - ومن المحال بداهة أن يكون المخلوق قادراً والخالق عاجزاً؛ لأن فاقد الشئ لايعطيه وأما الدليل من القرآن الكريم فكثير من الآيات، منها قول الله تعالى :«والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه، ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله مايشاء، إن الله على كل شئ قدير»(١).

وقوله تعالى :«وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، وجعل بينهما برزخا وحجراً محجورا* وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً»(٢).

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عظيم قدرته تبارك وتعالى.

الإرادة : صفة قائمة بذاته مهمتها تخصيص الممكنات ببعض مايجوز عليها من الأمور المتقابلة. وذلك مثل تخصيص وجود العالم فى زمان معين وبصفة معينة مع أنه كان من الممكن أن يوجد فى زمان آخر وعلى صفة أخرى ولكن الإرادة خصصت وقوعه فى زمان معين.

والدليل عليها :

أن الفعل الصادر عن الله مختص بوجوه من الجواز لايتميز بعضها عن البعض الآخر إلا بمرجح ولاتكفى ذاته للترجيح؛ لأن نسبة الذات إلى الضدين واحدة، فما الذى خصص أحد الضدين بالوقوع فى حال دون حال.

إذا قيل : القدرة، قلنا : القدرة لاتكفى لأن نسبتها إلى الضدين واحدة.

وإذا قيل : العلم، قلنا : العلم أيضاً لايكفى للتخصيص لأنه يتبع المعلوم ويتعلق به على ماهو عليه ولايؤثر فيه ولايغيره(٣).

١- سورة النور الآية : ٥٤.

٢- سورة الفرقان الآية : ٥٤.

٣- الإمام الغزالى - الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٥٤.

والدليل من القرآن الكريم قول الله تعالى :«إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون»(١) وقوله تعالى :«وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا»(٢).

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تشير إلى إثبات إرادة الله تعالى وأنها فوق كل إرادة ومشيئة «وماتشاؤن إلا أن يشاء الله»(٣).

ويلاحظ أن الإرادة مغايرة للأمر والرضى ذلك أن الأمر معناه طلب الفعل، والإرادة لاتفيد الطلب، ومن هنا نقول : إن الله سبحانه وتعالى لايأمر بالكفر ولابالمعصية مع أنه يريدهما ويشاء وقوعهما من العبد؛ لأنه لايقع فى ملك الله إلاما يريده.

وأما الرضى فمعناه : قبول الشئ من صاحبه والاطمئنان إليه، والله سبحانه لايرضى من العاصين عصيانهم ولايقبله منهم مع أنه أراد وقوعه ولكن بقدرتهم الخاصة.

العلم : صفة أزلية قائمة بذاته تعالى بها تنكشف المعلومات عند تعلقها بها. والدليل عليها : هو العالم ومافيه من الإبداع والإتقان والإحكام، وقد سبق تقرير ذلك.

ومن القرآن الكريم قول الله تعالى :(يعلم مافى السموات والأرض ويعلم ماتسرون وماتعلنون والله عليم بذات الصدور)(٤).

وقوله :«يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله، إن الله لطيف خبير»(٥).

الحياة : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تقتضى للمتصف بها صحة الاتصاف بالعلم والقدرة والإرادة، بمعنى : أنه لايكون قادراً مريداً سميعاً بصيراً إلا من كان حياً، وهذا برهان على إثباتها. كما أنها صفة كمال؛ لأن عدمها نقص بالنسبة لله سبحانه وتعالى.

ومن القرآن الكريم قوله تعالى :«الله لاإله إلا هو الحى القيوم».

١- سورة يس آية : ٨٢.

٢- سورة الإسراء آية : ١٦.

٣- راجع بالتفصيل ص ٣١٦ منكتاب علم الكلام ومدارسه د. فيصل بدير عون – القاهرة ١٩٨٢.

٤- سورة التغابن الآية : ٤.

٥- سورة لقمان الآية ١٦.

وقوله «وعنت الوجوه للحى القيوم» وغيرها من الآيات التى أثبتت لله الحياة الأزلية الأبدية.

السمع : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تتعلق بالمسموعات تعلق إدراك وانكشاف.

البصر : صفة قديمة قائمة بذات الله تتعلق بالمبصرات تعلق إدراك وانكشاف أيضاً.

والدليل على ثبوت هاتين الصفتين لله : أنه لو لم يتصف بهما لاتصف بضدهما وهو محال على الله سبحانه وتعالى.

ومن القرآن الكريم قوله تعالى :«ليس كمثله شئ وهو السميع البصير» وقوله :«إن الله سميع بصير».

الكلام : صفة أزلية قائمة بذاته تعالى بها الأمر والنهى والخبر بلا حروف ولاأصوات، بل معانى قائمة بذاته تعالى.

وقد عبر عنها الوحى السماوى بلغات البشر الموحى إليهم من خلال الكتب السماوية مثل : القرآن الكريم، فهو قديم غير مخلوق باعتباره معانى قائمة بذات الله سبحانه، وأما المكتوب فى المصاحف المقروء بالألسنة فهو مخلوق لله تعالى.

والدليل على صفة الكلام : أنها صفة كمال بالنسبة لله وأن عدمها نقص لايليق بذات الله سبحانه وتعالى.

ومن القرآن الكريم :«وكلم الله موسى تكليما»، «وماكان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا».

خصائص صفات المعانى :

لصفات الله سبحانه وتعالى خصائص تميزها عن صفات البشر، ومنها :

١- القدم : فصفات الله سبحانه وتعالى قديمة، ذلك أنه لو كان شئ من صفاته جل وعلا حادثا للزم حدوثه لأنها ملازمة لذاته، لكن التالى باطل لما عرفناه من أن الله تعالى قديم فالصفة مثله(١).

٢- **الأبدية** : ذلك أن ماثبت قدمه استحال عدمه ومادامت صفات الله قديمة أزلا فهى مستمرة أبداً.

١- السنوسية الكبرى ص ٢٥.

٣- **العموم والشمول** : فصفات الله سبحانه وتعالى عامة وشاملة لاتحدها حدود ولاقيود، فإذا كانت القدرة الإنسانية أو العلم الإنسانى أو السمع أو البصر مقيد بقيود معينة وبشروط خاصة، فإن صفات الله لاتحدها هذه الحدود فهو العالم الذى لاحدود لعلمه القادر الذى لاحد لقدرته السميع والبصير بلا حدود ولاقيود.

٤- **المخالفة لصفات الحوادث** : فالله يسمع ويبصر ولكن بلا جارحة، وهو حى ولكن بدون شروط الحياة عند الإنسان من الجسم والروح، فكل صفاته مخالفة تماما لصفات الحوادث والاشتراك هو فى الاسم لافى المسمى.

٥- إن هذه الصفات ليست عين الذات بل زائدة عليها، فالله تعالى عالم بعلم وحى بحياة وقادر بقدرة وسميع بسمع وبصير ببصر.

وبيان ذلك :

أن الله سبحانه تعالى له حقيقة ثابتة تميزه عن كل ماسواه ذاتا وصفاتا، فالله هو خالق العالم الموجود بذاته، القائم من غير افتقار إلى محل يقوم به[1].

وأما الصفات فلها مفهومها الذى يميزها عن الذات وهذا المفهوم هو : أنها لاتقوم بذاتها.

يقول سعد الدين التفتازانى :«والمراد بالصفة مالايعلم ولايخبر عنه بالاستقلال بل بتبعية الغير والذات بخلافها»[2].

وإذا كانت الصفات لها مفهوم إجمالى يميزها عن الذات، فكان لكل صفة من الصفات حقيقتها المميزة عن باقى الصفات الأخرى.

فالقدرة صفة تأثير، والإرادة صفة ترجيح، والعلم صفة انكشاف. إذاً هناك تمايز عقلى يحدد لكل صفة حقيقتها فكيف يمكن أن تكون الصفات عين الذات كما ادعى البعض؟.

وإذا كان العقل وقانون الذاتية يشهد بأن الصفات غير الذات فإن آيات الكتاب الكريم قد أكدت ذلك أيضا فى صراحة ووضوح. قال تعالى :«ولايحيطون بشئ من علمه» وقال : «فلنقصن عليهم بعلم».

١- عبد القاهر البغدادى - أصول الدين ص ٨٨.

٢- راجع شرح المقاصد جـ ٢ ص ٧٩.

إذاً فالآيات الكريمة تثبت صفة العلم مما يؤكد لنا أن الله عالم بعلم لابذاته وقادر بقدرة لابذاته وسميع بسمع لابذاته، وهكذا قل عن باقى الصفات.

وقد ضل المعتزلة والفلاسفة فى هذا الباب فادعوا أن صفاته عين ذاته فخرجوا بذلك على قوانين العقل ونصوص القرآن الكريم معاً[1].

الصفات السلبية :

وتسمى بصفات التنزيه، وهى كثيرة يجمعها قول الله تعالى :«ليس كمثله شئ وهو السميع البصير».

ولاداعى لتعدادها وإنما نقول : إن الله منزه إجمالا عن كل مالايليق بذاته العلية من صفات النقص.

وسوف نركز حديثنا على صفتين :

- صفة المخالفة للحوادث.
- وصفة الوحدانية.

المخالفة للحوادث :

ومعناها : أن الله سبحانه وتعالى لايشبه شيئا من خلقه ولايشبهه شئ منها، فهو منزه عن المثل.

وقد ضل فى هذه الصفة اليهود والنصارى حيث وصفوا الإله بصفات البشر من الجسمية والحلول فى مكان معين وزمان محدد وغير ذلك مما يتنزه عنه المولى سبحانه وتعالى.

كما ضلت بعض الفرق التى ظهرت فى الوسط الإسلامى مثل : الكرامية والمشبهة والمجسمة وغيرهم من الفرق المنحرفة التى كونها اليهود فى محاولة لهدم الإسلام عن طريق إظهار العقائد الباطلة.

الصفات الخبرية

وردت فى الكتاب والسنة كثير من الصفات التى يوهم ظاهرها وصف الله بصفات المخلوقين مثل : اليد، والمجئ، والاستواء، والنزول، والقدم، والوجه وغير ذلك من الصفات التى دل عليها القرآن الكريم فى آياته ومنها

١- راجع «قوانين الفكر بين الاعتقاد والإنكار» ص ٢١٣ المؤلف.

قول الله تعالى

«الرحمن على العرش استوى»[١] وقوله «وجاء ربك والملك صفا صفا»[٢] وقوله «اليه يصعد الكلم الطيب»[٣] وقوله «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك»[٤] وقوله (يد الله فوق ايديهم) [٥] وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة، فيقول : هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له» وقوله (ص) «يضع الجبار قدمه فى النار»

وقد اختلفت مناهج المتكلمين فى معالجة هذه الصفات، وابرز هذه المناهج هو :

- منهج اهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريديه
- منهج السلف الصالح الذى يعبر عنه ابن يتمية وابن القيم
- منهج المعتزلة

وقبل ان نوضح مناهجهم علينا أن نعلم أنهم متفقون على أن ظواهر هذه الألفاظ غير مرادة بالنسبة لله تعالى، لأنها لاتليق بذاته، فليس لله وجه كوجه الإنسان، ولايد كيد الإنسان، وليس له استواء كاستوائه، ولانزول كنزوله، وكل المسلمين متفقون على هذه الحقيقة فظواهر الآيات غير مرادة بالنسبة لله تعالى.

ولكن جرى الخلاف بينهم حول تعيين المعنى المراد.

١- أما المعتزلة فقد ذهبوا إلى أن هذه الصفات من المتشابهات التى يجب صرفها عن ظاهرها وتعيين المعنى المراد منها واعتبروها من المجاز الذى يجب أن يعرف حقيقته فقالوا بأن اليد مجاز عن القدره، والوجه مجاز عن الذات والمجئ معناه مجئ أمره أو مجئ ملائكته، وهكذا صرفوا اللفظ عن ظاهره وعينوا المعنى المراد من هذه النصوص.

* وقد ايدوا موقفهم هذا بقول الله تعالى «هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيبتغون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ومايعلم تأويله إلا الله. والراسخون فى العلم يقولون

١- سورة طه الآيه : ٥.

٢- الفجر الآيه : ٢٢.

٣- فاطر الآيه : ١٠.

٤- الرحمن.

٥- الفتح.

آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر الا أولوا الألباب»[1] فقالوا فى وجه الاستدلال إن هذه الصفات هى من المتشابهات ومن حق الراسخين فى العلم أن يعلموا تأويلها وحقيقتها لذا عطفت الآية الراسخين على الله فى علم تأويلها.

٢- **وأما الأشاعرة والماتريديه** الذين عرفوا بأهل السنة فقد اعتبروها من المتشابهات التى لايعلم معناها ولاينبغى أن يبحث عنها، وانما ينبغى ان نصرف الفاظها عن ظاهرها ونفوض الأمر فى معناها الحقيقى إلى الله سبحانه وتعالى، فهو أعلم بمراده منها.

وقد استدلوا على موقفهم هذا بنفس الآية السابقة ولكن بفهم واقعى لها قريب من مراد الآية نفسها.

فقد قالوا بأن آيات الصفات من المتشابهات، وتتبع المتشابه ومحاولة البحث عنه هو صفة من صفات الذين فى قلوبهم زيغ عن الحق، لأن هذه المتشابهات لايعلم تأويلها إلا الله، وأما الراسخون فى العلم فهم المؤمنون بها على مراد الله لها دون بحث عن حقيقتها، خصوصا وأن بلاغه الآيه تستلزم الوقوف على لفظ الجلالة واعتبار الواو استئنافية، وليست عاطفة كما يقف المعتزلة فى فهم الآية.

كما أن قول الراسخين كل من عند ربنا يعنى أنهم آمنوا بما عرفوه على التفصيل، وبما لم يعرفوا تفصيله وتأويله.

كما احتج الأشاعرة بإجماع الصحابة رضوان الله عليهم حيث أمروها كما جاءت ولم يبحثوا عن معناها رغم توفر الدواعى فلو كان البحث عن تأويلها على سبيل التفصيل جائزا لكان أولى الخلق بذلك الصحابة والتابعين، ولكن لم ينقل عن واحد منهم الخوض فى هذه الأمور، بل المنقول هو العكس[2]، فقد ضرب عمر بن الخطاب صبيغ بن عسيل حين تعمد البحث عن معانى هذه المتشابهات.

هكذا قال الإمام الأشعرى إن الوجه واليد والعين، وغير ذلك من الصفات هى صفات ثابتة لله سبحانه وتعالى ليست عائدة إلى الصفات السبع - ولكننا لانعلم حقيقتها.

واعترض على المعتزلة فى تأويلهم اليد بالقدرة قائلا: إن ذلك يستلزم إثبات قدرتين

١- آل عمران - الآية ٥.

٢- فخر الدين الرازى - أساس التقديس فى علم الكلام ص ١٨٢ ومابعدها.

لله سبحانه وتعالى، كما قال الامام الأشعرى بأنه لو كان المراد من قوله «مامنعك الا تسجد لما خلقت بيدى» القدرة لما كان لآدم على ابليس فضل اذ الكل مخلوق بقدرته، ولكن الله أراد ان يفضل آدم على ابليس بخلقه بيده دونه، ولو كان خالقا لإبليس بيده لكان ابليس قد احتج على ربه بقوله :«وانت خلقتنى بيدك كما خلقت آدم.

ولكن الله أراد أن يفضل آدم بخلقه بيده دون الخلق، وقال ذلك لابليس موبخا، فدل كل ذلك على أن صفة القدره غير صفة اليد، مع التسليم المطلق بأنها ليست كأيدينا لقول الله تعالى «ليس كمثله شئ وهو السميع البصير» وأما حقيقتها فالله أعلم بها، فالعصمة فى الدين أن تنتهى حيث انتهى بك.

وقد أخبر القرآن الكريم أن الله يسمع ويبصر، ويحب ويبغض، ويستوى على العرش وغير ذلك من الصفات الخبرية ومادام الله قد وصف نفسه بهذه الصفات، ووصفه بها رسوله (صلى الله عليه وسلم) وهو أعلم الناس به تعالى فلا مجال لتأويلها.

اذا لم يبق هناك خوف أو تحرج فى وصفه تعالى بما وصف به نفسه – مع الاعتقاد الجازم بعدم المشابهة بين الله وخلقه، فهى صفات ثابتة لله، لكن كيفيتها الله أعلم بها(١).

وهذا موقف علمى يتسم بالحكمة والعلم والسلامة واحترام العقل بدلا من موقف المعتزلة الذين اعتمدوا على الظن فى تعيين المعنى المراد.

وقد يكون الذى دفع المعتزلة إلى هذا الموقف الضعيف هو ظروف الاختلاط بالأمم الجديدة، ودخول الثقافات الأجنبية، واحتدام الجدل بين المسلمين وغيرهم من اليهود والنصارى والفرس مما دفع المعتزلة إلى الانجراف والتأثر بمناهج الخصوم.

وهذا موقف يذكر لهم فى الدفاع عن الإسلام، لولا أنهم تأثروا به فى معالجة قضايا العقيدة.

فالموقف يختلف تماما بالنسبة لما يستقر فى قلب المسلم، ومايجب أن يكون عليه بينه وبين ربه

والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بصفات، فإذا ماأهملنا هذه الصفات ووصفناه بصفات من عندنا نكون قد جاوزنا حدودنا، لأن التأويل التفصيلى الذى يعين المعنى

١– راجع الإبانه عن أصول الديانة.

المراد أمر مظنون بالاتفاق، والقول فى صفات الله بالظن غير جائز خوفا من الوقوع فى الزيغوالضلال.

وقد أخذ الإشاعرة من عبارة خاصة للإمام مالك بن أنس تأييداً لموقفهم، فقد روى ان واحدا من الناس سأل الامام مالك عن معنى الاستواء فقال :«الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب»

٣- واما ابن تيمية وابن القيم الذين يعبرون عن المذهب السلفى فقد كان لهم موقف خاص من الصفات الخبرية، حيث لم يعتبروا آيات الصفات الخبرية من المتشابه الذى لايُعلم معناه، وانما اعتبروها من المحكم المعلوم المعنى.

وقالوا بأن التشابه فى هذه الآيات أمر نسبى، بمعنى أن مايشتبه على هذا قد لا يشتبه على ذاك، فهناك آيات اشتبهت على الجهمية كقوله «ليس كمثله شئ».

فذهبوا إلى نفى الصفات جملة، ولكن العلماء فسروها بما أبان اشتباهها بحيث اصبحت من المحكم المعلوم المعنى.

اذا فهذه الصفات لها معانى ثابتة ومعلومة ولابد من اجرائها على ظاهرها – ولكن كيفيتها الله اعلم بها ونحن لم نطالب الا بمعرفة معنى الآية وتدبر معناها ولم نكلف العلم بكيفيتها، لأن معرفة الكيفية والحقيقة هو التأويل الذى لايعلمه إلا الله.

وهكذا فرق ابن يتيمة بين علم المعنى وعلم التأويل

– فالمعنى متعلق بمفهوم اللفظ.

– وأما التأويل فمتعلق بالكيفية.

والذى كف السلف انفسهم عن الخوض فيه هو البحث عن الكيفية.

وقالوا : لو كانت آيات الصفات غير معلومة لنا لخرج معظم القرآن عن أن يكون مفهوما لنا وهذا معارض لمنهج القرآن الذى أمر بتدبر آياته كما قال تعالى :

«أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها».

«أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا».

والحث على تدبر القرآن وفقه معناه يناقض القول بأن هناك آيات لامعنى لها، أولا يفهم معناها، أو يجب الكف عن بيان معناها أو التفويض فيها(١).

وقد أقام ابن القيم هذا المذهب على أساس نفيه للمجاز فى القرآن حيث قال :ان

١- محمد السيد الجليند – ابن يتمية ص ٥٨.

تقسيم الالفاظ إلى حقيقة ومجاز ليس تقسيما شرعيا ولاعقليا ولالغويا، وليس صحيحا ماادعاه البعض من أن الحقيقة هى اللفظ المستعمل فيما وضع له والمجاز هو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له فالقرآن كله حقيقة لامجاز فيه(١).

وهكذا فكل الصفات الخبرية من قبيل الحقيقة المعلومة المعنى.

واما عبارة الامام مالك التى استدل بها الأشاعرة على مذهبهم فى التفويض، فقد فسرها اساتذة المذهب السلفى بما يتفق ورأيهم السابق.

حيث قالوا مفاد النص : أن هناك معنى معلوما لنا ويجب علينا الإيمان به، وأن هناك كيفا مجهولا عنا والسؤال عنه بدعة، فهناك فرق بين معنى الاستواء وبين كيفيته، فما دام الاستواء معلوما فالآية ليست من المتشابه وإنما من المحكم المعروف المعنى والتفسير، وانما الذى استأثر الله بعلمه هو الكيفية، ولم يكلفنا الله الا بمعرفة الآية وتدبر معناها ومن هنا فلله يد وقدم واستواء، وعلو ونزول وغير ذلك. فلابد من اجراء اللفظ على ظاهر معناه مع عدم البحث عن كيفيته.

وقال اساتذة المذهب السلفى، بأن هذا هو ماكان عليه صحابة رسول الله، فقد كانوا يعرفون معانى هذه الآيات، ولم يثر موضوع المعنى أمامهم أى مشكلة، وهذا هو ابن مسعود يقول «لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منى تبلغه آباط الإبل لأتيته».

وكان صحابة رسول الله يحفظون العشر آيات من كتاب الله ولايجاوزونها حتى يفهموا معناها ويعملوا بما فيها فلو كانت الصفات الخبرية غير معلومة لهم لسألوا عنها.

وهكذا يبرز أمامنا الخلاف بين الأشاعرة وبين ممثلى المذهب السلفى حول نقطة محددة وهى : التفويض وهل هو فى المعنى أو فى الكيفية،

فالأشاعرة يقولون إنه فى المعنى والكيفية معا وبناءً عليه يصرفون اللفظ عن ظاهره دون تحديد معنى أو كيفية وابن تيمية وابن القيم يقولون ان التفويض هو فى الكيفية دون المعنى فهو معلوم عندهم ومن هنا قالوا بإجراء اللفظ على ظاهره ولكن تضيق نقطة الخلاف هذه حين نعلم أنهما معا قد اتفقا على عدم المشابهة بين الله وخلقه بأى وجه من وجوه التشابه فلله يد ولكن ليست كأيدى العباد، وله وجه، ولكن ليس كأوجه العباد وهكذا فالله ليس كمثله شئ، ولايشبه شيئا من خلقه، ولايشبهه أحد من خلقه.

١- ابن القيم – الصواعق المرسلة ص ٢٨٤ .

ونستطيع أن نقول : إن المسلم أمامه رأيان لعلماء الأمة هما رأى الأشاعرة - ورأى السلف، وله أن يختار مايشاء، وليست المسألة الا ترجيح لرأى أصح على رأى صحيح وليس هناك مايدعو للخلاف والنزاع داخل الفكر الإسلامى.

وعلينا أن نجتمع على ماتفقنا عليه ونعزر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه.

شبهة والرد عليها من خلال الكتب القديمة :

قلنا : إن الله لايوصف بصفات البشر من الجوهرية والعرضية والجسمية أو الوجود فى جهة أو مكان، غير أن بعض الملحدين يقولون : كيف يكون هناك موجود تخلو عنه الجهات وهو لاداخل العالم ولاخارجه؟ وقد عرض الإمام الغزالى فى كتابه الاقتصاد فى الاعتقاد[١] لهذه الشبهة وناقشها، وهذا مايدعونا إلى ذكر نص كلامه كنموذج للتمرين على القراءة فى الكتب القديمة :

قال الإمام الغزالى :

فإن قيل : فنفى الجهة يؤدى إلى المحال وهو إثبات موجود تخلو عنه الجهات الست[٢] ويكون لاداخل العالم ولاخارجه ولامتصلا به ولامنفصلا عنه وذلك محال.

قلنا : مسلم أن كل موجود يقبل الاتصال فوجوده لامتصلا ولامنفصلا محال، وإن كان موجوداً يقبل الاختصاص بالجهة فوجوده مع خلو الجهات الست عنه محال، فأما موجود لايقبل الاتصال ولا الاختصاص بالجهة فخلوه عن طرفى النقيض غير محال

١- كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد من الكتب الهامة فى علم الكلام والتى تعبر عن رأى متأخرى الأشاعرة ويمتاز بالإيجاز والتركيز والشمول.

وقد رتبه على أربع تمهيدات وأربع أقطاب :

(التمهيد الأول) : فى بيان علم الكلام من المهمات فى الدين.

(والتمهيد الثانى) : فى بيان أنه ليس لجميع المسلمين بل لطائفة منهم مخصوصين.

(والتمهيد الثالث) : فى بيان أنه من فروض الكفايات لامن فروض الأعيان.

(والتمهيد الرابع) : فى تفصيل مناهج الأدلة التى استعملها فى كتابة.

أما القطب فقد خصصه للنظر فى ذات الله وقسمه إلى عشرة أقسام أطلق على كل قسم (دعوى).

(والقطب الثانى) خصصه لبحث صفات الله سبحانه وتعالى.

(والقطب الثالث) فى أفعال الله من حيث مايجوز أو يجوز.

(والقطب الرابع) فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وماورد على لسانه من أمور الساعة.

٢- الجهات الستة هى : فوق وأسفل وقدام وخلف، ويمين وشمال.

وهو كقول القائل : يستحيل وجود موجود لايكون قادر أولا عاجزاً ولاعالماً ولاجاهلا، فإن أحد المتضادين لايخلو الشئ عنه، فيقال له : إن كان ذلك قابلا للمتضادين فيستحيل خلوه عنهما، وأما الجماد الذى لايقبل واحداً منهما لأنه فقد شرطهما وهو الحياة فخلوه عنهما ليس بمحال، فكذلك شرط الاتصال والاختصاص بالجهات التحيز والقيام بالمتحيز، فإذا فقد هذا لم يستحل الخلو عن متضادين فرجع النظر إذاً إلى أن موجوداً ليس بمتحيز ولاهو فى متحيز بل هو فاقد شرط الاتصال والاختصاص هل هو محال أم لا؟.

فإن زعم الخصم أن ذلك محالا وجوده، فقد دللنا عليه بأنه مهما بان أن كل متحيز حادث وأن كل حادث يفتقر إلى فاعل ليس بحادث، فقد لزم بالضرورة من هاتين المقدمتين ثبوت موجود ليس بمتحيز : أما الأصلان، فقد أثبتناهما وأما الدعوى اللازمة منهما فلاسبيل إلى جحدها مع الإقرار بالأصلين :

فإن قال الخصم : إن مثل هذا الموجود الذى ساق دليلكم إلى إثباته غير مفهوم، فيقال له : ماالذى أردت بقولك غير مفهوم؟

فإن أردت به أنه غير متخيل ولامتصور ولاداخل فى الوهم فقد صدقت، فإنه لايدخل فى الوهم والتصور والخيال إلا جسم له لون وقدر، فالمنفك عن اللون والقدر لايتصوره الخيال، فإن الخيال قد أنس بالمبصرات فلا يتوهم الشئ على وفق مرآة ولايستطيع أن يتوهم مالا يوافقه، وإن أراد الخصم أنه ليس بمعقول أى ليس بمعلوم بدليل العقل فهو محال إذ قدمنا الدليل على ثبوته ولامعنى للمعقول إلا مااضطر العقل إلى الإذعان للتصديق به بموجب الدليل الذى لايمكن مخالفته وقد تحقق هذا.

فإن قال الخصم : فما لايتصور فى الخيال لاوجود له، فلنحكم بأن الخيال لاوجود له فى نفسه، فإن الخيال نفسه لايدخل فى الخيال والرؤية لاتدخل فى الخيال، وكذلك العلم والقدرة، وكذلك الصوت والرائحة، ولو كلف الوهم أن يتحقق ذاتا للصوت لقدر له لونا ومقداراً وتصوره كذلك.

وهكذا جميع أحوال النفس من الخجل والوجل والفسق والغضب والفرح والحزن والعجب فمن يدرك بالضرورة هذه الأحوال من نفسه ويروم خياله أن يتحقق ذات هذه الأحوال فيجده يقصر عنه لابتقدير خطأ، ثم ينكر بعد ذلك وجود موجود لايدخل فى خياله فهذا سبيل كشف الغطاء عن المسألة[١].

١- الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٢٩.

الوحدانية

الوحدانية، لغة : عدم التعدد، والواحد فى اصطلاح الأصوليين : هو الشئ الذى لاينقسم[١] : ووحد الشئ يوحده إذا أفرده ونفى عنه التعدد[٢].

والمراد من الوحدانية فى علم التوحيد : إثبات مايأتى :

أولا : إثبات أن الله واحد فى ذاته : أى ليس مركبا من أجزاء وهو مايعبر عنه بنفى الكم المتصل.

ثانيا : إثبات أن الله واحد فى صفاته، بمعنى : أنه ليس لله صفتان من نوع واحد (نفى الكم المتصل) وليس لغير الله صفة تشبه صفاته (نفى الكم المنفصل).

ثالثا : إثبات أن الله واحد فى وجوده وأفعاله، أى لاضد له ولاند ولاشبيه ولانظير، وهو مايعرف بنفى الكم المنفصل.

وسوف نحاول الآن تفصيل هذه الأقسام.

وحدانية الذات :

ومعناها : أن ذات الله غير مركبة من أجزاء سواء كانت خارجية أو ذهنية، وذلك محال على الله تعالى وإلاللزم احتياجه إلى أجزائه والاحتياج يستلزم الحدوث، وقد ثبت أن الله قديم قائم بنفسه غير محتاج لشئ.

كما أنه لو كان مركبا من أجزاء لاحتاج إلى مركب يركبه ويكون هو الإله، ولكن الاستغناء المطلق ينافى ذلك.

وقد وقع فى هذا الخطأ النصارى حيث ادعوا أن الإله مركب من أقانيم أو أصول أو ذوات وفى الوقت ذاته يدعون أنه واحد

والدليل على وحدانية الذات هو :

أنه لو تركبت ذاته من أجزاء أو أقانيم - كما يقول النصارى - فإما أن تقوم صفات الألوهية وهى القدرة والإرادة وغيرها بكل جزء، أو بالبعض، أو بالمجموع، والكل باطل :

- أما الأول : فلأن كل جزء سوف يكون إلهاً وبذلك يحدث التمانع الذى سنبطله فى وحدانية الوجود والربوبيه.

١- الارشاد ص ٥٢.

٢- أبو بكر الجزائرى - عقيدة المؤمن ص ٧٣.

- وأما الثانى : هو قيام أوصاف الألوهية ببعض الأجزاء، فلأنه لا أولية ولا أولوية لبعض الأجزاء على بعض، وحينئذ لايمكن أن تقوم الصفات بجزء دون جزء، وذلك يستلزم الخلو التام عنها وهو يؤدى إلى نفى وجود العالم.

- وأما الثالث : وهو قيام الأوصاف بمجموع الأجزاء، فلأنه يلزم عليه عجز كل جزء على انفراده، لأن كل جزء من مجموع الأجزاء قام به جزء من كل صفة من صفات الألوهية.

ولاشك أن من قام به جزء من القدرة والإرادة يكون عاجزاً ومفتقراً للجزء الثانى من تلك الصفة القائمة بغيره من الأجزاء، وعجز كل على انفراده يوجب عجز سائر الأجزاء وذلك يؤدى إلى استحالة وجود العالم أيضاً.

وأيضا يلزم عليه انقسام مالا ينقسم من الصفات وهو محال(١).

والغرض من ذلك : أن نبين تفاهة عقول اللذين تصوروا الإله مركباً من أجزاء، وفى الوقت ذاته يدعون أنه واحد مع أن الوحدة تنافى التركيب بالنسبة لله سبحانه وتعالى.

الوحدانية فى الصفات :

ومعناها : أنه ليس له صفتان من نوع واحد، وليس لغير الله صفة تشبه صفاته.

أما الدليل على أنه ليس لله صفتان من نوع واحد كقدرتين وإرادتين هو أن نقول لو كان له صفتان من نوع واحد فإما أن تكون أحداهما كافية فى الإيجاد أولا.

فإن كانت كافية، كان وجود الثانية عبثا.

وإن كانت غير كافية، كانت محتاجة إلى أخرى من نوعها، وبالتالى تكون كل واحدة منهما على انفراد ناقصة وهذا مستحيل فى حق الله وأما دليل عدم وجود صفة للحوادث تماثل صفاته فهو : أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود ومادام وجود الله واجباً فلايمكن أن تشبهه صفة غيره؛ لأن ماعداه جائز، والفرق شاسع بين الواجب والجائز، وإذا كان الإنسان موصوفاً بالوجود والقدرة والعلم واليد والمجئ وغير ذلك من الصفات، فإنه ليس معنى ذلك أن صفات الله تشبه صفات خلقه، لأن الفرق بين صفات اللهّ وصفات الخلق كالفرق بين ذات الله وذات الخلق(٢).

١- إبراهيم الدسوقى - مرشد الأنام فى علم الكلام ص ١٦ القاهرة ١٣٤١ هـ.

٢- عقيدة المؤمن ص ٦٩.

الوحدانية في الوجود والأفعال
(توحيد الربوبية)

يطلق لفظ الرب على عدة معانى، منها : السيد، المالك، والمربى، والمصلح والمعبود بحق سبحانه وتعالى، إذ يطلق عليه لفظ الرب إطلاقا حقيقيا[1]، ويطلق على غيره إطلاقا مجازيا إضافيا، ومن هذه المعانى للفظ الرب اشتق اسم الربوبية التى تعنى الخلق والرزق والملك والسيادة، ومن هنا أصبح توحيد الربوبية، هو وحدانية الخالق المحى المميت المؤثر فى الكون فهو واحد بمعنى أنه لاضد له ولاند، ولاشبيه ولانظير.

والأدلة على ذلك كثيرة، منها :

الدليل الأول :

لو كان هناك إلهان فإما أن يكون أحدهما كافيا فى إيجاد العالم أو غير كاف، فإن كان كافيا كان وجود الثانى عبثاً وكان غير واجب الوجود إذ لايتوقف وجود الحوادث عليه، وبذلك لايكون إلها إذ لاحاجة للعالم إليه.

وإن لم يكن أحد الألهين كافياً فى إيجاد العالم كان كل منهما محتاجا والاحتياج ينفى الألوهية، وبذلك يكون التعدد باطلا[2].

الدليل الثانى :

لو وجد إلهان قادران لما وجد شئ من الممكنات لكن التالى باطل بداهة :

أما بيان الملازمة : فلأن الإلهين متساويان فى كل شئ فتكون نسبة المقدورات إليهما سواء، إذ المقتضى للقدرة ذاتهما وللمقدورية الإمكان (لأن الوجوب والامتناع يحيلان المقدورية) فتستوى النسبة بين كل مقدور بينهما.

فإذا : يلزم وقوع هذا المقدور المعين إما بهما وهو باطل لاستحالة مقدور واحد بين قادرين، وإما بأحدهما وهو باطل أيضا لما يلزم عليه من الترجيح بلامرجح[3].

١- ويطلق لفظ الرب إطلاقا مجازيا إضافيا على رب البيت، وسيد القوم أو المربى أو المالك من البشر وهى نسب إضافية بحسب ماأضيف إليه.

٢- المرحوم الدكتور على جبر - محاضرات فى علم الكلام.

٣- المواقف ص ٦٩ الموقف الخامس تحقق د. أحمد المهدى.

الدليل الثالث :

وهو المعروف بدليل التمانع والتوارد، مضمونه :

لو وجد إلهان مؤثران فى إيجاد الممكنات لما وجد العالم لكن التالى باطل بالمشاهدة فبطل ماأدى إلية وهو التعدد وثبتت الوحدانية لله سبحانه وتعالى.

وهذا دليل استثنائى مركب من مقدمة كبرى هى الأولى وصغرى هى الثانية، ولابد من بيان دليل الكبرى (بيان الملازمة).

ودليل الكبرى : لو وجد إلهان فإما أن يتفقا على وجود شئ أو عدمه وإما أن يختلفا.

(أ) فإن اختلفا بأن أراد أحدهما إيجاد شئ وأراد الآخر عدمه فلا يخلو الحال :

١- إما أن ينفذ مرادهما فيلزم اجتماع الضدين.

٢- وإما ألا ينفذ مرادهما فيلزم عجزهما، كما يلزم اجتماع الضدين أيضا.

لأن من أراد الحركة لم ينفذ مراده فيكون الجسم ساكنا، ومن أراد السكون لم ينفذ مراده فيكون الجسم متحركا.

٣- وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر فيلزم عجز من لم ينفذ مراده فلايكون إلها كاملا، وكذلك يلزم العجز للذى نفذ مراده، لأن الفرض أنهما متماثلان فى كل شئ.

(ب) وإن اتفقا :

١- فإما أن يتفقا على إيجاد الشئ معاً بأن يؤثر كل منهما فيه على سبيل الاستقلال وهذا يلزمه وقوع مقدور بين قادرين وهو باطل.

٢- وإما أن يتفقا على إيجاده بطريق التعاون وهذا يلزمه عجز كل واحد منهما على انفراد، والعجز ينافى الألوهية.

٣- وإما أن يتفقا على أن يتصرف أحدهما فى بعض العالم كالشرق - والثانى فى البعض الآخر كالغرب - مثلا.

وهذا محال من وجهين :

الأول : أنا نقول : هل إله الشرق قادر على مقدورات إله الغرب أم لا؟

ولايمكن أن يكون قادراً لأن الآخر قد سد عليه مواطن قدرته بالإيجاد، وكونه غير قادر باطل، وإلا كان عاجزاً - والعجز محال على الإله وبذلك يكون التعدد باطلا أيضا.

الثانى : أن تخصيص كل منهما بجزء معين لابد أن يكون من مخصص خارج عنهما والمخصص يحتاج إلى مخصص آخر وتتسلسل المسألة إلى مالانهاية وإن كان التخصيص باختيارهما وليس من مخصص خارج عنهما فهو محال أيضا، لأن الفاعل المختار هو الذى يتأتى منه الفعل والترك، بحيث يستطيع كل واحد منهما أن يتصرف فى مقدورات الآخر وهو محال لأنه لو تصرف فى هذه المقدورات، فإما أن يتصرف فيها بالإيجاد أو بالإعدام - والإيجاد تحصيل حاصل والإعدام يستلزم اضطراب العالم وفساده وتداخل الإرادات والتنازع.

ويلاحظ : أن كل هذه افتراضات عقلية فقط، فإن وجود العالم من صانعين ممتنع لذاته[١].

وقد دلل القرآن على عقيدة الوحدانية بأدلة غاية فى الوضوح والبداهة، ومنها قول الله تعالى :

«لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون»[٢].

وقوله :«ماتخذ الله من ولد وماكان معه من إله إذاً لذهب كل إله بماخلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون* عالم الغيب والشهاد فتعالى عما يشركون»[٣].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى أثبتت أنه تعالى واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله لارب غيره ولاإله سواه.

١- راجع محاضرات فى علم الكلام الدكتور على جبر.

٢- سورةالأنبياء الآية: ٢٢.

٣- سورة المؤمنون الآية : ٩٢.

توحيد الألوهية

كل ماسبق يتعلق بتوحيد الربوبية : بمعنى وحدانية الخالق والرازق والمالك والمؤثر فى الكون، وهناك نوع آخر من الوحدانية يطلق عليه اسم : توحيد الألوهية، ومعناها : إفراد الله تعالى بالعبادة مع الالتزام بكل ماأمر والانتهاء عن كل مانهى، كما يستلزم توحيد الألوهية تعلق قلب العبد بالرب خوفا وطمعا ورجاء ورهبة.

وتوحيد الألوهية هو الثمرة الضرورية لتوحيد الربوبية، لأنه مادام قد ثبت أن الخالق المؤثر فى الكون واحد فلابد من عبادته وحبه ووقف الحياة كلها عليه بحيث تحكم تعاليمه كل حركة من حركات حياة المسلم.

وقد جاءت الرسالات السماوية لإثبات توحيد الألوهية، لأن توحيد الربوبية مركوز فى الفطرة البشرية ولكن لما عبد الناس غير الله من الأصنام والأحبار والرهبان والكواكب والنجوم، وغير ذلك من مصادر الطبيعة، جاءت الرسالات لكى ترد العبادة والولاية لله الحق(١).

فوائد عقيدة الوحدانية :

لهذه العقيدة فوائد لاحصر لها ولاعد، منها :

١- أنها سبب فى نجاة الإنسان فى الدنيا والآخرة ففيها الفوز والفلاح.

٢- أنها تستلزم المساواة بين جميع الناس، فما دام الإله الذى يملك بيده زمام الأمور واحداً، إذاً فالناس كلهم سواء لافرق بين حاكم ولامحكوم ولامالك ولامملوك الكل أمام رب العزة سواء.

٣- وفيها تحقيق لإنسانية الإنسان، فبدلا من أن يسجد الإنسان لحجر لايضر ولاينفع، أو أن يسجد لحبر أو راهب، أصبح السجود وأصبحت العبادة الخالصة لمن يستحقها وهو الله الواحد الأحد.

٤- وفيها ارتفاع بكرامة الإنسان، فلايخاف أحدا إلا الله ولايخشى أحداً إلا الله، لأنه مادام الذى بيده الأجل والرزق واحدا، فكيف يخاف الإنسان من سواه، أو يخشى أحداً إلاهو. مع أن النفع والضر بيد الله وحده، ولو اجتمعت الأمة على نفع الإنسان

١- راجع ص ٨٥ ومابعدها من كتاب : عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى.

بشئ لم تنفعه إلا بما كتبه الله له، ولو اجتمعت على أن تضره بشئ لم تضره إلا بما قدره الله عليه.

إذاً فالإله واحد هو المصدر الأساسى للتأثير فى الكون، وهكذا منحت عقيدة التوحيد المسلم يقيناً بأنه لاإله يخاف ويرجى ويتجنب سخطه ويلتمس رضاه إلا الله.

وبهذا أخرج المسلم كل الأرباب الزائفة من حياته، وحطم كل الأصنام المادية والمعنوية - من الخوف والجبن والرهبة، ورضى بالله وحده ربا عليه يتوكل وإليه ينيب وفى فضله يطمع ومن قوته يستمد، وله يتودد وإليه[1] يحتكم، وبه يعتصم (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى طريق مستقيم)[2].

٥- وفى عقيدة الوحدانية تحقيق لسعادة الإنسان، ذلك أن السعادة ليست فى المال أو الأولاد أو غيرها من المظاهر الدنيوية، وكم من أصحاب ملايين ومالكين لأسباب السعادة الدنيوية ولكنهم يفقدون السعادة الحقيقية التى تتمثل فى الرضى، وفى الأمن، وفى السكينة، ولكن عقيدة الوحدانية تبعد عن الإنسان الخوف، فلاخوف على شئ ولاخوف من شئ ولاقلق على مستقبل مادام الإله الخالق الرازق المحيى المميت الذى بيده مقاليد الأمور واحدا.

وهكذا يكون الإيمان بوحدانية الله سبباً للسكينة النفسية والاطمئنان القلبى، وهذه هى السعادة الحقيقية.

نواقض الوحدانية

تبطل عقيدة الوحدانية بالشرك.

فما هو الشرك؟ وماهى أنواعه؟ مامظاهره؟

الشرك لغة : من شركه يشركه شركا وشركه، إذ جعل له نصيبا قليلا أو كثيراً فى ذات أو معنى.

وشرعا : هو اعتقاد أن لغير الله أثراً فى الكون، أو تأليه غير الله وتعظيمه[3].

والشرك نوعان :

شرك فى الربوبية : وهو إسناد الخلق والتدبير إلى غير الله سبحانه وتعالى. وشرك

١- د. يوسف القرضاوى - الخصائص العامة ص ١٥.

٢- سورة آل عمران الآية : ١٠١.

٣- راجع ص ١٧٨ من المصطلحات الأربعة لعبد المتعال الجبرى.

فى الألوهية وهو عبادة غير الله والخروج على أوامره وعدم الالتزام بها، أو الاحتكام إلى غير ماأنزل الله سبحانه وتعالى.

والشرك فى الربوبية كفر بلاجدال، وأما الشرك فى الألوهية إن كان الفاعل له مصراً عليه بعد تنبيهه وتحذيره فهو كفر كذلك.

وأما إن كان غير مصر عليه فهو مؤمن فاسق أو عاصى وذلك كالذى يصلى فرضا ويهمل فرضا، أو المرأة التى تسير كاشفة عن جسدها، أو الأمة التى تحتكم إلى قوانين البشر وتترك قوانين الإله، فهى أمة عاصية فاسقة، وفرق بين الشرك وبين الكفر : وهو أن الشرك أعم فمن الشرك مالا يكون كفراً وذلك كالشرك الأصغر والشرك الخفى، ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :«إن أخوف ماأخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا وماالشرك الأصغر يارسول الله؟ قال الرياء»(١).

وقوله صلى الله عليه وسلم «من حلف بغير الله فقد أشرك».

وقوله صلى الله عليه وسلم :«ياأيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل. فقيل له : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يارسول الله؟ قال : قولوا : اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لانعلمه».

وهكذا نلاحظ أن الشرك أعم من الكفر، فمن الشرك مالا يكون كفراً وهو المعاصى التى يرتكبها الإنسان غير مصر عليها(٢).

بعض مظاهر الشرك :

للشرك مظاهر كثيرة، منها :

١- الاستعانة بغير الله فيما لايقدر عليه العبد أو بغير الأسباب الطبيعية التى أودعها الله فى الكون، ومن ذلك : طلب النصرة فى الحروب بغير قوة الجيوش التى أمر الله بها «وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة».

والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله إليها.

ومن ذلك : الوسائط التى يعتقدها بعض الناس بين الله وخلقه، ويعتقدون أن لها قدرة وسلطانا على قضاء حوائج الناس.

ومن ذلك : الذهاب إلى الدجالين والعرافين الذين يدعون أنهم يستطيعون التأثير فى الكون.

١- رواه أحمد.

٢- راجع ص ٩١ من عقيدة المؤمن.

٢- الرهبة من الجن والخوف منهم والاستغاثة بهم، وتقديم القرابين لهم، وذلك مثل مايحدث بين الجاهلات من النساء اللائى تدعين أن الجن قد تلبس بهن وطلب منهن ذبح ديك أحمر أو حمامة خضراء، ويعقدون مايسمى الزار.

فكل هذا شرك بالله، إذا الحامل عليه اعتقاد أن الجن لهم تصرفات خارجة عن إرادة الله وتدبيره، وهذا مما ألقاه الشيطان فى قلوب أوليائه من الإنس فعملوا به، وشاعوه ونشروه حتى أصبح عقيدة فى نفوس الجهال من المسلمين(١).

٣- تعظيم أقوال البشر ومناهج البشر والعمل بقولهم واتخاذ رأيهم ديناً واجب الاتباع وأخذ كلامهم مأخذ التقديس، على مافيه من خطأ بين فى بعض المسائل.

ومن ذلك أيضا : الاحتكام إلى قوانين البشر وإهمال قوانين الله وطاعة ولاة الأمور فى معصية بدون إكراه عليها، ويشهد لهذا حديث عدى بن حاتم الطائى الذى كان قد تنصر فى الجاهلية ثم أسلم وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ قول الله تعالى فى شأن أهل الكتاب :«اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، والمسيح بن مريم وماأمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لاإله إلا هو سبحانه عما يشركون» فقال عدى : ماكنا نعبدهم يارسول الله فقال الرسول :«أليسوا يحلون لكم الحرام فتحلونه، ويحرمون عليكم الحلال فتحرمونه؟ فقال : نعم، قال النبى صلى الله عليه وسلم فتلك عبادتهم».

هذه هى أهم مظاهر الشرك التى تشيع الآن فى الأمة الإسلامية، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيد المسلمين إلى التوحيد الحقيقى الذى يجعلهم يعودون إلى منهج الله ويلتزمون بأوامره ويجتنبون نواهيه. ويتحاكمون إلى ماشرع وأنزل حتى تسلم لهم عقيدتهم ويصح إيمانهم وتتحقق لهم السعادة فى الدنيا والآخرة.

إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

١- المرجع السابق ص ٨٢.

المصادر والمراجع

أولا القرآن الكريم.

ثانيا – المؤلفات البشرية :

١- ابن رشد والرشدية – رينان – ترجمة د. عادل زعيتر.

٢- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين – الرازى.

٣- أعلام الفلسفة الحديثة د. رفقى زاهر – القاهرة سنة ١٩٧٩.

٤- إنجيل متى.

٥- الإسلام يتحدى – وحيد الدين خان – القاهرة.

٦- الظاهرة القرآنية – مالك بن نبى – القاهرة.

٧- الملل والنحل – الشهرستانى – القاهرة.

٨- المصطلحات الأربعة – د. عبد المتعال الجبرى.

٩- المفهوم الحقيقى لكلمة المسلم – أبو الأعلى المودودى.

١٠- العقائد – الشهيد حسن البنا – القاهرة سنة ١٩٧٨.

١١- المواقف – عضد الدين الإيجى.

١٢- الخصائص العامة للإسلام – د. يوسف القرضاوى.

١٣- الله فى العقيدة الإسلامية – الشهيد حسن البنا – القاهرة سنة ١٩٧٧.

١٤- الله يتجلى فى عصر العلم – مجموعة من العلماء التجريبيين – ترجمة د. الدمرداش سرحان – القاهرة.

١٥- الله – سعيد حوى – القاهرة.

١٦- المجموع – الفارابى.

١٧- التفكير فريضة إسلامية – عباس العقاد – بيروت سنة ١٩٧١.

١٨- القرآن والتفكير – د. أحمد الحوفى – القاهرة سنة ١٩٧٥.

١٩- الاستقراء والمنهج العلمى – د. محمود فهمى زيدان.

٢٠- المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت – د. محمود زقزوق – القاهرة.

٢١- الإتقان فى علوم القرآن - السيوطى - القاهرة.
٢٢- المذاهب الفلسفية العظمى فى العصور الحديثة د. محمد غلاب - القاهرة سنة ١٩٤٨.
٢٣- الغزالى - كا. رادى فو - بيروت.
٢٤- التفكير الفلسفى الإسلامى - د. سليمان دنيا - القاهرة.
٢٥- الفلسفة الإسلامية فى المشرق والمغرب د. عبد المعطى بيومى.
٢٦- الاقتصاد فى الاعتقاد - الغزالى.
٢٧- الإرشاد - إمام الحرمين الجوينى - القاهرة.
٢٨- الطبيعة ومابعد الطبيعة - د. يوسف كرم - القاهرة.
٢٩- الإيمان والمعرفة والفلسفة. د. محمد حسين هيكل.
٣٠- المادة بين الأزلية والحدوث - الشيخ محمد حسن آل ياسين.
٣١- الرد على الدهريين - جمال الدين الأفغانى.
٣٢- تفسير الكشاف -الزمخشرى.
٣٣- تفسير ابن كثير.
٣٤- تفسير المنار - الشيخ رشيد رضا.
٣٥- تاريخ الفلسفة فى الإسلام - ديبور - القاهرة ١٩٥٧.
٣٦- تأملات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة - د. محمد عبد الرحمن بيصار.
٣٧- تراث الإنسانسة - موسوعة علمية بيد مجموعة كبيرة من المفكرين.
٣٨- تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية - الشيخ مصطفى عبد الرازق.
٣٩- تمهيد للفلسفة - د. محمود حمدى زقزوق.
٤٠- حواشى على شرح الكبرى للسنوسى - الشيخ إسماعيل الحامدى.
٤١- درء تعارض العقل والنقل - ابن تيمية - القاهرة سنة ١٩٧١.
٤٢- رسالة التوحيد -الشيخ محمد عبده - القاهرة سنة ١٤٢٤هـ.
٤٣- علم التوحيد - د. على حسب الله - القاهرة ١٩٥٢.
٤٤- عقيدة البعث فى القرآن الكريم - د. صلاح عبد العليم القاهرة ١٩٧٣.
٤٥- علم الكلام وبعض مشكلاته - أبو الوفا الغنيمى التفتازانى.
٤٦- عقيدة المؤمن - أبو بكر الجزائرى - القاهرة.

٤٧- علم الكلام - د. على جبر.

٤٨- فلسفة المعرفة في القرآن الكريم - د. على عبد العظيم.

٤٩- فجر الإسلام - د. أحمد أمين القاهرة سنة ١٩٧٥.

٥٠- قوانين الفكر بين الاعتقاد والإنكار - د. سعد الدين السيد صالح.

٥١- قصة الفلسفة الحديثة . د. أحمد أمين وزميله.

٥٢- قضايا المسيحية الكبرى - إلياس مقار.

٥٣- مدارج السالكين - ابن القيم.

٥٤- مشكلات العقيدة النصرانية - د. سعد الدين السيد صالح القاهرة ١٩٨٢.

٥٥- مفاتيح الغيب - الرازى. القاهرة سنة ١٣٠٨ هـ.

٥٦- مقدمة ابن خلدون - القاهرة دار الشعب.

٥٧- مرشد الإنام فى علم الكلام - إبراهيم الدسوقى سنة ١٣٤١هـ.

٥٨- نحو عقيدة قرآنية - الشيخ سليمان خميس. القاهرة.

٥٩- نظرات فى العقيدة الإسلامية - د. محمد الأنور حامد القاهرة ١٩٨١. وهناك مراجع أخرى وردت فى هوامش الكتاب.

رقم الايداع
١٩٩٠/٩٨١٢ م

(مطابع الأخبار)

الفهرست

الموضوع	رقم الصفحة
الإهداء	٣
المقدمة.	٥
نحو منهج صحيح لدراسة مسائل العقيدة.	٩
تمهيد عام.	١٣
المبحث الاول : تعريف العقيدة الإسلامية.	١٤
المبحث الثانى : خصائص العقيدة الإسلامية.	٢٠
المبحث الثالث : تاريخ علم العقيدة الإسلامية.	٢٧
الأزهر وتاريخ العقيدة	٤٠
(الفصل الأول) : منهج الاعتقاد فى الإسلام.	٤٢
مناهج المعرفة البشرية.	٤٢
أولا : المنهج الحسى التجريبى.	٤٤
الاستخدام السليم للمنهج العلمى يثبت وجود الله.	٤٧
ثانياً : المنهج الذوقى الإشراقى.	٥١
ثالثاً : المنهج العقلى المنطقى.	٥٢
رابعاً : المنهج النقلى.	٦٥
العلاقة بين الأدلة العقلية والأدلة النقلية.	٦٧
(الفصل الثانى) : الإيمان بالله.	٧١
مفهوم الإيمان بالله.	٧١
الوجود الإلهى فطرى فى النفس.	٧٥
لماذا نستدل على وجود الله.	٧٩
أسباب وجود الملحدين.	٨٠
التفسير النفسى لظاهرة الإلحاد.	٨٤
العلم الحقيقى لايتصادم مع الإيمان بالله.	٨٨
أدلة وجود الله.	٩٢
دليل الحدوث فى صياغة علمية جديدة.	٩٣
المقدمة الأولى : العالم حادث.	٩٤
مبدأ المادة لاتفنى ولاتستحدث.	٩٦
المقدمة الثانية : كل حادث لابد من محدث.	٩٩
نظرية التطور والتوالد الذاتى.	١٠٢
مناقشة النظرية.	١٠٦

سبب شيوع نظرية التطور. ١١٩
لماذا تصر وزارة التربية والتعليم فى مصر على تدريس نظرية التطور؟. ١٢٠
التطور الإيمانى. ١٢١
بين تكريم الله للإنسان وإهانة الإنسان لنفسه. ١٢٢
مناقشة الإلحاد العلمى المعاصر حول قانون التعليل. ١٢٤
الطبيعة العاجزة. ١٣١
برهان العناية والغائية والنظام. ١٣٣
عناية الله بالكون. ١٣٥
الذرة. ١٣٦
الإنسان. ١٣٩
الحيوان. ١٤٠
النبات. ١٤١
الأرض. ١٤٢
السماء والأفلاك. ١٤٣
دعوى المصادفة. ١٤٦
الحكمة من خلق الإنسان. ١٥٢
الشرور لها حكمة. ١٥٢
البرهان الرياضى الهندسى على وجود الله. ١٥٦
البرهان الأخلاقى على وجود الله. ١٥٧
الملحدون لادليل عندهم. ١٦٢
الفصل الثالث ١٦٥
صفات إلله سبحانه وتعالى. ١٦٥
الصفات الإيجابية. ١٧١
الصفات السلبية والصفات الخبرية. ١٧١
الوحدانية. ١٧٩
الوحدانية فى الصفات. ١٨٠
الوحدانية فى الوجود والأفعال (توحيد الربوبية). ١٨١
توحيد الألوهية. ١٨٤
فوائد عقيدة الوحدانية. ١٨٤
نواقض الوحدانية. ١٨٥
بعض مظاهر الشرك. ١٨٦
المصادر والمراجع. ١٨٨